الأمم المتحدة
كيف تحيا ؟ وكيف تموت ؟
بقلم الأستاذ فتحى رضوان

سيجد القارئ فى هذه الكلمة اسم الأمم المتحدة واسم إسرائيل يترددان ، وقد يحسب أننى سأناقش موضوع إسرائيل والأمم المتحدة مناقشة سياسية أكرر فيها المعانى التى قيلت مراراً ؛ والحق أننى أحاول أن أتخذ من موضوع إسرائيل مجرد نموذج لدراسة مستقبل العلاقات بين الناس ، ومستقبل الأمم المتحدة كلها كأمل من آمال البشرية ، لا بوصفها أداة سياسية لفض المنازعات ، بل بوصفها ظاهرة روحية يمكن أن تكون دليلا على تقدم الإنسان وتحوله إلى مخلوق ذى ضمير يخضع له ويحكم به ، كما يمكن أن تكون دليلا جديداً على أن صراع الإنسان مع غرائزه الموروثة من الحيوان لا يزال فى مراحله المبكرة ، وأن علينا أن نصبر فترة أو فترات أخرى قد تطول وقد تقصر ؛ حتى يحقق ذلك الصراع هدفه العظيم .

* * *

إنها مشكلة نموذجية ولا شك تستغل فيها الأطماع السياسية العواطف الإنسانية ، ويجاور الباطل القانون ، وتضل فى مآزقها ودروبها المتشابكة عقول الذين يريدون الحق وحده ؛ لأنهم لا يجدونه أبداً فى هذه المشكلة إلا مختلطاً وممتزجاً بالأوهام والأكاذيب !

* * *

لنبدأ القصة من البداية :

والقصة التى أعنيها لا تقع حوادثها ولا تدب إليها الحركة إلا إذا وقعت الحرب ، وسالت الدماء ، ونشر الخراب جناحيه ، وبلغت الروح الحلقوم ، وظن الناس أن النهاية لاحت فى الأفق :

فقد بدأ الفصل الأول من القصة فى الحرب العالمية الأولى ، تلك الحرب التى نشبت فى أغسطس سنة ١٩١٤ والتى وضعت أوزارها فى الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ .

وبدأ الفصل الثانى فى الحرب العالمية الثانية ، هذه الحرب التى اشتعلت نارها فى الأول من سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، والتى انتهت فى يونية سنة ١٩٤٥ : ففى الحرب الأولى وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا العظمى اللورد روتشيلد فى الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٧ « بأن حكومة جلالة « ملك بريطانيا » تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قوى فى فلسطين للشعب اليهودى ، وأنها سوف تبذل أفضل جهودها لتسهيل بلوغ هذه الغاية ! »

وفى الحرب الثانية ألقيت البذور لفكرة إقامة عدالة دولية ونظام للسلام فى التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٩٤٣ ، فما لبثت هذه البذور أن أثمرت ، ولم يلبث ثمرها أن نما ونضج على مراحل فى تواريخ متعاقبة تمت منها مرحلة فى ٣٠ من أكتوبر سنة ١٩٤٣ ؛ إذ صدر تصريح الدول الأربع الكبيرة (روسيا وأمريكا وبريطانيا والصين) عن الأمن العالمى ، ثم مرحلة أخرى فى الأول من ديسمبر سنة ١٩٤٣ ؛ إذ أعلنت تلك الدول أملها فى إنشاء أسرة عالمية للشعوب الديمقراطية ، وثالثة فى أغسطس سنة ١٩٤٤ ؛ إذ بدأت مباحثات « ديمبرتون أوكس » لوضع نظام السلام العالمى . ورابعة فى ٣ من فبراير سنة ١٩٤٥ ؛ إذ انعقد مؤتمر يالتا الذى

قرر إنشاء هيئة دولية عامة .

وكانت المرحلة الأخيرة فى ٢٥ من أبريل سنة ١٩٤٥ إذ انعقد مؤتمر سان فرنسيسكو لمناقشة هذا النظام العالمى الجديد.

وقد سارت وقائع الفصلين الأول والثانى كل فى اتجاهها ، وكأن كلا منهما كتاب قائم بذاته ، وكأن الذى وضع الفصل الثانى نسى ما كتبه فى الفصل الأول ، فلم يحذف منه ، ولم يضف إليه ، ولم يشعر أن أحدهما يلغى الآخر ، أو على الأقل : أن أحدهما يجب أن يغير حتى يوائم الآخر !

ولعل السبب فى تعارض الفصلين أن المشكلات حينما يتقادم عليها العهد ، وتتعاقب الليالى والأيام — يختفى جزء غير قليل منها ؛ فلا يبدو إلا عضو من أعضائها : أحياناً الرأس ، وأحياناً الذنب ، وبقدر هذا الجزء الظاهر من جسم المشكلة يكون نصيب الذين يشتركون فى مناقشتها من الصواب والتوفيق .

والكاتب اليهودى ليلينتول « Lilienthal » يقول فى كتابه « ثمن إسرائيل » « What Price Israele? » ما معناه : إن مشكلة إسرائيل هى ثمرة المركب المعروف « شعب الله المختار » : ففريق من اليهود يعتقد أن بنى إسرائيل ليسوا بشراً كسائر البشر ، بل هم طائفة مصطفاة لتؤدى دوراً خاصا بها لا يقوى على النهوض به والارتفاع إلى مستواه كل الناس !

وهو يروى قصتهم فى كتابه لا كما يرويها رجال السياسة ؛ إذ يرجع بالقصة إلى سنة ٧٢١ قبل الميلاد حينما اكتسح الآشوريون دولة اليهود ، فقامت دولتهم الثانية ليكتسحها الرومان فى سنة سبعين قبل المسيح ، فكتب شاعر مجهول المزمور السابع والثلاثين بعد المائة والذى جرى نصه كما يأتى :

« على شواطئ أنهار بابل جلسنا ، ولكنا سفكنا
« الدمع حينما تذكرنا صهيون فأنى لنا أن نغنى
« فى أرض غير أرضنا ، فإذا أنا نسيتك
« يا أورشليم فلتشل يدى اليمنى .
« وليلتصق لسانى بحلقى إذا عفَّى النسيان اسمك
« من ذاكرتى وإذا لم أعل بك يا أورشليم فوق
« أعظم أفراحى »

فتعلق بهذا المزمور ، وعاش عليه أقوام من اليهود أرادوا أن يجعلوا من ذكريات ماض مندثر أسواراً تحول بينهم وبين أن يعيشوا مع الناس ، كما يعيش الناس بعضهم مع بعض . أما الذين يطيب لهم أن يسايروا الحياة ويستقبلوا ما تأتى به بلا تحجر ولا تصلب فيذكرون ما خاطب به النبى أرميا اليهود حينما قادهم نبوخذ نصر مأسورين إلى بابل فقد قال لهم :

« شيدوا بيوتاً واسكنوا فيها ، وازرعوا حدائق وكلوا منها الطيبات ، وابنوا بالنساء وأنجبوا البنين والبنات وابحثوا عن سلام المدينة التى حملتكم بعيدا إليها فى الأسر ، وصلوا لإله هذه المدينة لأنه إذا ساد السلام فستنالون أنتم السلام » .

ويقول ليلينتول : إنه فى تاريخ اليهود بقى هذان المذهبان : مذهب « شعب الله المختار » يعارض مذهب الإنسانية الشاملة ، ومدرسة الإيمان بالشعب اليهودى تعارض مدرسة الإيمان بالعقيدة السماوية ، ومبدأ التميز والانعزال يعارض مبدأ الاندماج والانسجام .

ولا شك أن هذه العلة قد طرأت على كل دين ، وأن ما أصاب الإنسانية من الكوارث والمصائب — كان ناجماً من أن الأديان لم تستطع أن تؤدى رسالتها الكبرى التى يعبر عنها القرآن فى الآية الكريمة : « يأيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وهى العقيدة التى فصلها الرسول العربى فى حديثه الذى وجهه إلى الصحابى أبى ذر الغفارى حينما عاب بلالاً بقوله « يا بن السوداء ! » فقد قال الرسول : طفَّ الصاع . . . طفَّ الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح ! »

فالأديان الثلاثة جاءت لتنزع الحواجز بين الشعوب ولتجعل من هذا العالم الذى نعيش فيه جمهورية واحدة يذهب فيها الإنسان شرقاً وغرباً أو شمالا وجنوباً ، فلا يقف فى طريقه حد ، ولا يستوقفه شرطى إلا أن يسرق أو يعتدى على حرمة من الحرمات ، ولو خفيت الحواجز على هذه الصورة لاستحال أن تقوم حرب ؛

فالحروب كما يقول « ريفز » فى كتابه « تشريح السلام » لا يثيرها الأفراد ، وإنما تثيرها الحكومات : فإذا قسمنا بقعة أرض مساحتها عشرة آلاف كيلومتر مربع على عشر دول ، تستقل كل دولة بألف كيلو — فإن فرص الحرب تزيد بهذا التقسيم عشر مرات ، فإذا نقصنا هذه الدول إلى خمس نقصت فرص الحرب إلى خمس ، فإذا حكم هذه الرقعة حاكم واحد انتفت أسباب الحروب فيها ؛ إذ لا يتصور عقل أن يعلن الحاكم الحرب على نفسه !

وقد حدث هذا فى الماضى القريب والماضى البعيد :

ففى مصر القديمة كانت الولايات المختلفة تشن الحرب بعضها على بعض ؛ فلما اندمجت الولايات فى الوجهين القبلى والبحرى اقتصرت الحرب على هذين الوجهين ، فلما أصبحت مصر وجهاً واحداً ، واندمج التاج الأحمر فى التاج الأبيض ، وأصبح لفرعون مصر تاج يرمز إلى مصر العليا ومصر السفلى معاً — ساد السلام مصر ، وازدهرت حضارتها ، ونشرت فى العالم المعمور ثقافتها .

وقد كانت فرنسا حتى لويس الحادى عشر نهباً لقتال لا ينتهى بين أمراء الإقطاع : هذا الأمير يطمع فى إقطاعية جاره فيجمع رجاله ، ويحشد جنوده ، ويبطش به ، ولكنه يخرج من المعمعة ضعيفاً ، فيطمع ضعفه جاراً ثالثاً ، فيشن بدوره حرباً عليه ! وهكذا دواليك لا تنتهى الحروب الإقطاعية والغارات الإقليمية وفرنسا تدمى والخراب يسودها ، حتى وجد أمير ضخم استطاع أن يطيح الرءوس ، وأن يدمج فى إقطاعيته أو إمارته الكبرى الإقطاعيات والإمارات جميعاً فنشأ من هذه الأجزاء المفتتة كلٌّ واحد انتهت به الحرب .

لذلك كان محور الزاوية فى عقيدة الأديان السماوية الثلاثة هو العالمية ، ولكن العالمية لا تحقق لأحد مطمعاً ؛ فالملوك والأمراء ورؤساء الدول لا يستطيعون أن يبسطوا سلطانهم ، وأن يستزيدوا من عدد رعاياهم إلا بالتعصب الضيق لقطعة من الأرض يقولون إن من حقها أن تستأثر وحدها بخير العالم ، وباسمها يقتلون ويذبحون !

فالسياسة أنزلت الأديان من سمائها لتستغلها فى أغراضها . ولما انطفأ نور الإيمان العظيم فى القلوب وقف « الكهنوت » الدينى فى كل دين يمطر بركاته على حروب التوسع وحملات الغزو والفتح بدعوى أنها تنشر الدين القيم . والحق أنها لم تكن تفعل أكثر من أن تزيد رقعة الحاكم الغازى .

على أن المسلمين والمسيحيين وإن لم يلتزموا فى حياتهم فى الأكثر مذهب العالمية الذى يقوم عليه هذان الدينان — لم يعلنوا تمردهم عليه ولا كفرهم به ولا سعيهم لنقضه ، بل إن مساجدهم وكنائسهم ووعاظهم وأئمتهم لم ينفكوا عن الدعوة إلى الإنسانية المجردة من الشعوبية .

أما اليهود فقد اعترض سبيل حياتهم الروحية والدنيوية منذ أن فقدوا سلطانهم السياسى هذا (المركب) الذى خلطوا فيه الدين بالسياسة ، وأولوا فيه نصا دينيا على الوجه الذى يتفق مع السياسة ؛ فقد صوروا العودة إلى صهيون كهدف دينى استحثاثاً للجهود السياسية الرامية إلى إعادة المجد السياسى الذى انهار أمام تيار الصراع السياسى البحت .

فالتوراة لا تذكر عن صهيون هذه أكثر مما ورد فى الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين من أن إبراهيم عليه السلام اشترى تحت قمتها قبرا . وقد مضت القرون وليس لصهيون ولا لبيت المقدس قداسة خاصة

أو كرامة مميزة ؛ فإن الملك « يهواش » ملك إسرائيل أغار على بيت المقدس أو على الهيكل الذى أقامه فيه سليمان ، وعاد إلى السامرة وقد حمل معه من تحف الهيكل كل ما استطاع أن يحمل .

ويقول ليلينتول أيضاً فى كتابه : إن كورش ملك فارس أجاز لليهود الذين كانوا فى الأسر بمملكة بابل أن يعودوا إلى أرض كنعان ، وأن يعيدوا بناء الهيكل ، فرفضت أغلبيتهم الساحقة أن تعود ، وآثرت الإقامة فى بابل حيث أفادت من الرخاء والثراء اللذين كانت تتقلب فيهما هذه المملكة الغنية .

أما الذين عادوا فقد عاشوا فى ظل (مركب) أو عقيدة « شعب الله المختار » وحاولوا أن يحتفظوا لحياتهم بملامح تميزها عن حياة غيرهم . وذهب الكاهن عزرا ونحميا من بعده إلى أنه يجب إبطال زواج اليهود بغير اليهوديات الذى تم فى فترة الأسر .

على أن الحضارة الإغريقية التى كانت قد سادت العالم المعمور إذ ذاك بمفاتنها العقلية والروحية قد غلبت بروائها المادى والدنيوى عدداً غير قليل من اليهود فى فلسطين ، فتذوقوا أدبها فيما يقرءون ، واصطنعوا أزياءها فيما يلبسون ، وحاكوا فنها المعمارى فيما يبنون ، وسعى هؤلاء أن يقيموا جسرا بين حياة من يؤمنون بـ (يهوا) وبين الحياة الإغريقية الباهرة الجمال ، فكان نصيبهم أن اتهمهم المتعصبون لفكرة « شعب الله المختار » بالخيانة !

وقد استمر اختلاط هذه الدعوة الدينية بالأطماع السياسية طوال حكم الرومان لفلسطين ؛ فقد حاول زعيم سياسى فى سنة ١٣٢ قبل الميلاد أن يثور على حكم الإمبراطور هادريان الرومانى ، فأيده الحبر الدينى (أكيبا) إلا أن هذه الثورة لم يطل عمرها ، فقد أخمدها الرومانيون، وأقاموا من أنقاض الهيكل معبدا للإله جوبيتر . ويقول الكاتب اليهودى ليلينتول تلخيصاً لحكم الدولتين اليهوديتين اللتين قامتا فى الأرض الواطئة (كنعان) : إنهما لم يبديا مظهراً من مظاهر الإدارة الناجحة كما يقول المؤرخ جوليان مورجنشترن : « إنه لم تمر فى حياة الدولتين أكثر من فترتين، كل فترة لم تزد على خمسين عاماً لاحت خلالهما فقط قوة الشعب ومجده » .

ولما غزا بطلميوس فلسطين فى سنة ٣٢٠ ق. م. ، وعاد بعد الغزو إلى الإسكندرية صحبه كثير من اليهود ، وأقاموا فى الإسكندرية ، ولم يفكروا فى العودة إليها ، فقال فيلون عنهم : « إن اليهود كانوا ينظرون إلى أورشليم كعاصمتهم ، ولكنهم اعتبروا وطنهم البلد الذى أقاموا فيه منذ كان آباؤهم وأجدادهم وأجداد آبائهم ، والذى ولدوا هم أنفسهم فيه، والذى ترعرعوا على أرضه »

وفى عهد الرومان انتشر اليهود فى كل أنحاء الإمبراطورية ، وأخذوا يبشرون باليهودية ، فآمن بها كثيرون ممن عزفت نفوسهم عن الوثنية ، وهؤلاء هم أجداد اليهود الذين يعيشون فى أوروبا ؛ فهم ينحدرون من أصول غير سامية ، ومن شعوب وأمم لم تعرف اليهودية من قبل، ولم يعرف أجدادها الأقدمون شيئاً عن صهيون أو فلسطين أو أورشليم — إلى أن جاءت المسيحية ، وآمنت بها الدولة الرومانية ، واعتبرتها دين الدولة ، واحتضنها الإمبراطور تيودسيوس الثانى سنة ٩٤٢م ؛ فلقد قامت المنافسة بين دين الحكومة والأديان الأخرى ومنها اليهودية، فلم ير الأحبار اليهود سبيلا للمقاومة إلا أن يعودوا مرة أخرى إلى فوقعة « شعب الله المختار » وأن يؤكدوا لأتباعهم أن سبيل النجاة هى أن تكون لهم حياتهم الخاصة بمميزاتها ، وما لبث أن نشأ من ذلك التقوقع « الجيتو »

و « الجيتو » هو الحى الخاص باليهود ، له أسواره ، ويعيش خلفه اليهود ، وكأنهم أمة فى كل أمة ، ودولة فى كل دولة ، وكان هذا « الجيتو »

بمثابة الراية الحمراء يرفعها اليهود أمام العين فى كل مجتمع أوروبى يعيشون فيه ، فيندفع المجتمع كالثور الهائج ضدهم ، فيزداد اليهود خلف أسوار حبهم انعزالا خوفاً من المجتمع ، فيبادلهم المجتمع من ثم خوفاً بخوف ، وحذرا بحذر ، وارتيابا بارتياب !.

ولست أنسى فى هذا الصدد ما قاله غاندى من أن الزنابير والأفاعى لا تهاجمنا وتؤذينا إلا لأننا نخافها ؛ فما تكاد تلوح أمامنا حتى يبدو علينا التحفز ، فتدرك بغريزتها أنها أمام خطر يتهددها ، فتتهيأ لدفعه ، فنزداد بدورنا خوفاً منها ، ويبدو منا الاستعداد للوثوب عليها أو على الأقل الهرب منها ، وفى لحظات قصيرة تفعل هذه المخاوف المتبادلة أثرها ، فيهجم الإنسان على الحشرة أو تهجم الحشرة على الإنسان .

وقد استطاع غاندى أن يقنع أتباعه بصحة نظريته مذكراً إياهم بأن الأمهات الهنديات قد أبرمن منذ عشرات السنين عقداً صامتاً مع الأفاعى السامة تلتزم بمقتضاه الأمهات وضع صحن ملئ باللبن إلى جانب فراش أطفالها ؛ فإذا حضرت الأفعى لعقت اللبن ، وتركت الطفل هادئاً مستسلماً لنومه العميق العذب !

ولكن عقلية « الجيتو » كانت قد انحدرت إلى يهود أوروبا من أسرى بابل وقد طاب لهم أن يجتروها وأن يستعملوها فى تحقيق أهدافهم السياسية ؛ فإن اندماج اليهود فى باقى شعوب أوروبا واصطناعهم أسلوب الحياة فيها كان يفقد الزعماء هذه السيطرة الكاملة على حياة أتباعهم ، لا فيما يخص العقيدة وحدها ، بل فيما يجاوزها إلى المأكل والمشرب والملبس ، وقد كان لزعماء اليهود الدنيويين من جهة أخرى مأرب فى هذا الانعزال ؛ لأنه أتاح لهم هيئة عالمية ذات فروع ممتدة إلى كل أقطار العالم ، تعينهم على إنفاذ المشروعات ذات الصفة الدولية . ولقد كان هؤلاء الزعماء مدركين تمام الإدراك ما فى الأسلوب الانعزالى من مخاطر ، ولكنهم ككل مغامر طموح كانوا يعتبرون هذه المخاطر من خصائص المهنة .

وكان لا بد لهذا الانعزال من فلسفة تبرره عند اليهود أنفسهم وعند العالم ، وقد كانت أولى محاولة لوضع فلسفة هذه الظاهرة كتاب موسى هس عن رومة وأورشليم الصادر فى سنة ١٨٦٢ ، والذى ذهب فيه إلى أن اليهودية فى حاجة إلى مركز يلعب الدور الذى تلعبه رومة وكنيستها فى حياة الكاثوليك . وقد وقع اختياره على أورشليم . وفى سنة ١٨٨٢ أصدر ليوبنسكر كتاباً بعنوان « التحرر الذاتى » قرر فيه : إن اليهود يعيشون مع أقوام لا يستطيعون الاندماج فيهم ، كما تعجز تلك الأقوام عن هضمهم ؛ لأن اليهود عنصر مميز ؛ ولذلك لا بد لهم من وطن خاص بهم !

ولا نستطيع أن نفهم كيف التهبت هذه الفكرة وأصبحت محوراً من محاور السياسة العالمية إلا إذا تذكرنا أن القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر كله قد شهدا أضخم انقلاب عرفته الإنسانية منذ اكتشفت النار وعرف المركب ذو الشراع ؛ فقد انفجرت قوة البخار ، وولد القطار ثم الباخرة ، واستعمل البارود ، وأصبح فى مقدور الدول الغنية أن تغزو ، وتفتح وتخضع لحكمها وكلمتها الأسواق الفسيحة ، فاستيقظت الرأسمالية اليهودية على هذا كله ، وفتحت عينها ، وأدركت أن الأمر يحتاج إلى تكتل جديد . وكان نابليون قد أسال لعاب اليهود؛ إذ أذاع بياناً نشر فى جريدة الدولة الرسمية وهو يتهيأ لغزو مصر، دعا فيه اليهود إلى أن يوافوه بمصر ليدخلوا مع جيشه إلى أورشليم . وكان مجرد تفكير نابليون فى هذه الغزوة كافياً لإثارة المطامع ، ولتأكيد أن الاستخراب (أى الاستعمار) قد بدأ صفحة جديدة ، ودخل فى مرحلة تكبر فيها المشروعات وتضخم بحيث تصبح فيها كل العمليات

التى عكف عليها اليهود وراء أسوار « الجيتو » أشبه شيء بلعب الأطفال !

لذلك جاءت رسالة الصحافى النمسوى هرتزل فى موعدها . ويقال إن هرتزل شهد محاكمة الضابط اليهودى الفرنسى « دريفوس » ، فأثارت نفسه هذه المحاكمة ؛ إذ رأى فيها مظهراً من مظاهر التعصب ضد اليهود ، فكتب رسالته تحت هذا التأثير داعياً إلى إنشاء دولة لليهود ، كأن اليهود لم يلقوا قبلها وفى أوروبا بالذات العسف والاضطهاد ، بل كأن اليهود فى هذا الوقت نفسه لم يبدءوا يتمتعون فى كل غربى أوروبا بحقوق تسوى بينهم وبين سائر المواطنين الذين يعيشون معهم فى وطن واحد .

ولقد خجل الصهيونيون من أن يتحدوا هذه الحركة التحريرية التى سادت أوروبا ، فلم يعلنوا فى مؤتمرهم الأول الذى عقد فى بال أنهم يودون أن ينشئوا دولة لليهود ، بل اكتفوا بأنهم يريدون إنشاء وطن قومى لليهود فوراً ، ولكن عدداً من اليهود كانوا يعرفون ما فى الدعوة إلى إنشاء دولة لليهود من مخاطر ، وما سيجره إنشاء هذه الدولة إذا نجحت الدعوة من متاعب ، وما ينطوى عليه التفكير الانعزالى الناشيء من المركب القديم من مجانبة الروح الموسوية كدين سماوى . وقد عبر هذا الفريق من اليهود عن نفسه فى مؤتمر بطرسبرج الذى عقد فى سنة ١٨٨٥ وقرر ما يأتى :

« نحن نقرر أننا لم نعد شعباً ، فلسنا سوى طائفة دينية ؛ ولذلك فنحن لا ننتظر العودة إلى فلسطين ، ولا إقامة أى قانون خاص بالدولة اليهودية » .

وقال قبل ذلك جوستافوس بوزانسكى الذى أقام معبداً لليهود فى إحدى مدن أمريكا ، وقد استعمل فى هذا المعبد لأول مرة فى تاريخ معابد اليهود الأرغن الذى كان محرماً فى نظر أحبار إسرائيل باعتبار أنه أداة تستعمل فى كنائس المسيحيين، قال فى خطبة افتتاح المعبد وتدشينه : « هذا المعبد هو هيكلنا ، وهذه المدينة (شارلستون) هى أورشليمنا ، وهذه الأرض السعيدة هى لنا بمثابة فلسطين ! »

وبعد بدء دعوة هرتزل إلى إنشاء دولة إسرائيلية كان لا يزال من أحبار اليهود من يفهم معنى الدين ؛ فقد استنكر المؤتمر المركزى لرجال الدين فى أمريكا محاولة إنشاء هذه الدولة بعبارة جرت كالآتى : « إن محاولة كهذه تكشف عن سوء فهم الرسالة اليهودية التى ارتقت من المستوى السياسى والوطنى إلى تأكيد روح العقيدة العالمية التى سبق إلى إعلانها أنبياء اليهود »

وأضاف هذا القرار : « إن صهيون كانت شعباً غنيا فى الماضى وهى بهذه المثابة مجرد ذكرى عزيزة ، ولكنها لا تمثل أملا من آمال المستقبل فإن أمريكا هى الآن صهيون بالنسبة لنا » .

ولو قدر لهذه الروح أن تفوز لكان ذلك فوزا للاتجاه الأمثل للإنسانية ، ولكان هزيمة لروح الانعزال وافتراض الشر فى الناس، والتحصن ضدهم وراء أسوار من المخاوف أو الأوهام .

ولكن روح « الجيتو » للأسف غلبت روح « العالمية » التى يقوم عليها الدين اليهودى ككل دين آخر ، بل تسربت إلى نظام عالمى جديد أرادت الأمم على اختلاف أديانها أن تمثل به خلاصة ما اتفقت عليه تلك الأديان وأعنى بهذا النظام « الأمم المتحدة » .

وقد دبرت روح « الجيتو » الأمر جيداً خلال الحرب العالمية الأولى ؛ ففى ظل الحرب تسود الشرور ، وتنتصر نزعات التخريب ، وتتهاوى المثل العليا ، ويغلب على الناس الميل إلى تحقيق الأهداف المادية بأى ثمن : فكما يستبيح القائد تحطيم مدينة بأسرها ليشق لنفسه طريقاً أقصر إلى عدوه فإن الدول تجيز لنفسها أن تدوس مبدأ أو مجموعة من المبادئ ؛ لتصل عن طريق أقصر إلى موطن ضعف من أعدائها .

وفى سنتى ١٩١٦ ، ١٩١٧ كان موقف بريطانيا وحليفتيها فرنسا وإيطاليا (وكانت مجموعة الدول هذه تسمى الحلفاء) حرجاً فى حربها ضد ألمانيا .

لذلك كان لا بد من اتخاذ وسائل جديدة لاستدراج قوى إلى صفها ؛ فقامت بريطانيا بجهد ذى شعبتين فى سبيل تحقيق هذا الغرض ، وكانت أولى الشعبتين تهدف إلى إثارة العرب ضد تركيا ، وذلك ببذل الوعود لهم بأن تكون البلاد العربية بعد تحريرها من الحكم التركى حقا خالصاً للعرب لا يشاركهم فى إدارتها شريك .

والشعبة الأخرى استغلال الميل المتزايد عند الطائفة الصهيونية بين اليهود إلى إنشاء دولة خاصة بهم تتيح لهم من المكاسب الاستعمارية أكثر مما يتيح لهم التعاون بين جالياتهم المتفرقة فى العالم .

وقد قدرت بريطانيا أنها فى إرضاء هذا الميل ستضرب أكثر من عصفور بحجر واحد ؛ فهى أولا : ستحقق مصلحتها فى قيام نقطة ارتكاز استعمارية (استخرابية) تأخذ شكل دولة لاشكل قاعدة عسكرية ، وستكسب ثانياً عطف اليهود الاستعماريين بأموالهم ونفوذهم السياسى فى العالم ، وثالثاً ستكسب ضغط هؤلاء اليهود فى أمريكا بالذات لدفعها إلى دخول الحرب فى صف بريطانيا؛ وقد كانت أمريكا إلى هذه اللحظة لم تقرر بعد الاشتراك فى الحرب .

وفى ضوء هذه الاعتبارات جميعاً صدر تصريح بلفور المشهور فى الثانى من نوفبر سنة ١٩١٧ ، وقد اتخذ شكل خطاب موجه من اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا إلى أحد أعيان الصهيونيين فى إنجلترا وهو اللورد روتشيلد ، وقد جاء نص الخطاب كما يأتى :

« عزيزى اللورد روتشيلد :

يسرنى جدا أن أبعث إليكم باسم حكومة جلالة الملك بالتصريح التالى ، تصريح العطف بإقامة وطن قومى فى فلسطين لليهود ، وسوف تبذل أقصى جهودها لتسهيل بلوغ هذه الغاية ، على أن يفهم جليا أنه لا يجوز عمل شىء يضير الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية فى فلسطين ، ولا الحقوق ولا المركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى أى بلاد غيرها ! »

وقد تحتاج إلى وقت طويل لتحيط بكل الأمور الغريبة المتصلة بهذا التصريح : وأول هذه الأمور أنه صادر من اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا ؛ وفلسطين لم تكن يوماً حتى الثانى من نوفبر سنة ١٩١٧ جزءاً من الإمبراطورية البريطانية ؛ فكيف أساغ هذا الوزير لنفسه أن يتصدق بهذا الوطن القومى لليهود فى أرض تنتسب إلى شعب آخر ؟ وإذا كان مبرراً للورد بلفور فى إصدار هذا التصريح أن بريطانيا كانت تتوقع سقوط فلسطين فى يدها — فهل يبرر حق الفتح للدولة الفاتحة أن تمنح شعباً آخر حقوقاً فى الأرض المفتوحة ؟

ثم : من اللورد روتشيلد حتى يسوغ لحكومة أن تقطع أمامه عهداً ، وتلتزم أمامه نفاذ وعد ؟ إن اللورد روتشيلد ليس سوى « رأسمالى » بريطانى !

وأخيراً : ما الوطن القومى ؟ إنها عبارة مبهمة غامضة قصدت بريطانيا على طريقتها المألوفة فى صوغ الوثائق الرسمية أن تختارها لتتسع لكل شىء عند الاقتضاء ولتضمين كل شىء عند اللزوم ! وقد احتاجت بريطانيا فعلا أن تفسر هذه العبارة العامة الغامضة ، وكان أول من تولى التفسير بلفور نفسه ، فقال فى هذا التفسير :

« إن الوطن القومى يعنى شكلا من حماية بريطانية أو أمريكية أو غيرهما بقصد منح اليهود مركزاً لثقافتهم القومية ، أما الصورة النهائية للحكم فى فلسطين فإنه سيكون محلا لتطور تدريجى يتم تبعاً لقانون التطور السياسى » .

ولما لم يكف هذا التفسير أصدرت الحكومة البريطانية فى سنة ١٩٢٢ كتاباً أبيض تضمن تصريحاً لمستر

تشرشل وزير المستعمرات فى ذلك الحين وقد جاء فى هذا التصريح :

« إن الوطن القومى ليس معناه حكومة يهودية تبسط سيادتها على العرب ، وإن بريطانيا لا تتوقع ولم تعن أن تصبح فلسطين يهودية كما أن بريطانيا إنجليزية ؛ وإنها لا تصبر ولا تغض البصر عن الأعمال التى تؤدى إلى نزع ملكية فريق من الناس لحساب فريق آخر ومصلحته ! »

وأرسلت أمريكا بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها لجنة للبحث والدرس فى الشرق الأوسط لتقف على الصورة الصحيحة للأمور فى تلك المنطقة ، وقد عرفت هذه اللجنة باسم لجنة كرين وكنج ، وقد جاء فى التقرير الذى وضعته تلك اللجنة عن الوطن القومى لليهود فى فلسطين :

« إن الوطن القومى لليهود فى فلسطين لا يساوى إنشاء دولة يهودية هناك ، وإن قيام دولة من هذا القبيل لا يمكن أن يتم بغير المساس بالحقوق المدنية والدينية لغير اليهود من الطوائف »

وقالت اللجنة أيضاً :

« إن الصهيونية اعتداء شنيع على حقوق الشعب ، وشذوذ عن المبادئ التى أعلنها الحلفاء والرئيس ولسن »

فإذا لم يكن من حق بريطانيا أن تمنح الوعد الذى تضمنه تصريح بلفور ، وإذا كانت بريطانيا من جهة أخرى قد عادت فأعلنت أنها لم تكن تعنى بعبارة الوطن القومى لليهود — إقامة دولة إسرائيلية فى فلسطين — فما الذى دفع الحوادث حتى قامت الدولة الإسرائيلية التى انتزعت من أهل فلسطين أكثر من ٦٠ ٪ من مساحة ذلك القطر الصغير والتى أخضعت لحكمها أكثر من نصف مليون عربى مع أن عدد سكانها الأصلاء والوافدين لم يكونوا عند ميلادها سوى ثلث السكان بفلسطين من يهود ومسلمين ومسيحيين ؟

لقد قلنا إن سبب صدور التصريح فى التاريخ الذى صدر فيه كان سياسيا عسكريا بحتا لا يمت إلى شىء إنسانى ، ولا علاقة له بحال اليهود فى العالم ، ولكيلا يبقى فى نفسك شك فى هذا الصدد اقرأ ما يقوله الصهيونى عمانوئيل نيومان الذى كان رئيساً للمؤسسة الصهيونية فى أمريكا وهو يتحدث عن دور الدكتور وايزمان فى استصدار هذا التصريح :

« لم تكن جاذبية الدكتور وايزمان ولا قدرته على الإقناع والتأثير ومهارته كافية وحدها ؛ إذ أن بريطانيا كانت وهى تعانى ضغطاً شديداً فى صراعها مع ألمانيا — تتلهف على مساعدة من اليهود ، فى روسيا من جهة ، وفى الولايات المتحدة من جهة أخرى ؛ فقد كان الناس من غير اليهود فى العالم كله يعتبرون اليهود قوة يعتد بها ، بل إن الناس كانوا يبالغون فى تقدير نفوذ اليهود ، وفى وحدة اليهود . وقد أتاحت حاجة بريطانيا إلى اليهود فرصة للدبلوماسية الصهيونية منحتها قوة وقدرة فى المساومة ؛ ولذلك ما كاد تصريح بلفور يصدر حتى أمر لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الحين بطبعه وبإلقائه من الطائرات فى روسيا وألمانيا حتى يقع فى أيدى اليهود فى كلتا الدولتين » .

إذن إنشاء دولة لإسرائيل فى فلسطين ولد فى ظل اعتبارات سياسية بحتة ، ولم يكن من بينها تحقيق هدف روحى واحد ، فلننظر ماذا كانت آثار هذا العمل السياسى المجرد من مبررات روحية :

كانت النتيجة المباشرة لهذا العمل الدنيوى المادى البحت أن آلام اليهود الذين شردتهم حرب سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٥ وإن استغلت فى الدعاية لدولة إسرائيل قد تجوهلت ، وبقى آلاف منهم بلا مأوى ولا معين لتستخدم محنهم وعذابهم كوسيلة ضغط على الدول صاحبة النفوذ . وأن كل المشروعات التى فكرت فيها الدول لاستيعاب هذه الألوف المشردة لقيت من الصهيونية مقاومة شرسة عنيفة .

بل إن الصهيونية منذ قديم كانت تكره كل تحسن فى حال اليهود فى أى بلد كانوا يعانون فيه الضنك والضيق : كأن عذاب اليهود، وسومهم الخسف، ودوسهم بالنعال غاية فى ذاته : فمثلا عندما قامت الثورة البلشفية فى أكتوبر ١٩١٧ فى روسيا، وسقط النظام القيصرى الذى امتهن اليهود — صرح وايزمان : « ليس ثمة أكثر سطحية من الظن بأن آلام اليهود وعذابهم هى أساس الصهيونية » .

ولما ألف الإنجليز والأمريكان بعد الحرب العالمية الأولى لجنة مشتركة لدراسة الحال فى فلسطين ، ولإبداء التوصيات فى مشكلة هجرة اليهود إلى فلسطين قررت هذه اللجنة أن فلسطين وحدها لن تستطيع مواجهة احتياجات اليهود إلى الهجرة ، وأن على بريطانيا والولايات المتحدة أن تبذلا مع غيرهما من الدول جهداً مشتركاً لإيجاد مأوى للمشردين الذين فقدوا بيوتهم ، ولم تكد هذه التوصيات مع غيرها من مثلها تذاع حتى تعرضت اللجنة بسبب تلك التوصيات وحدها لأشد هجوم !

وقد حاول المستر روزفلت أن يتخذ إجراءات سريعة لتهيئة أسباب الحياة لنصف مليون كاثوليكى ، و ١٠٠ ألف بروتستانتى و ٢٢٦ ألف يهودى فقدوا دورهم فى الحرب العالمية الثانية ، وندب صديقه موريس إرنست ؛ ليسافر إلى أوروبا لتنظيم هجرة هؤلاء اللاجئين إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرهما من دول أوروبا ؛ فأقامت الحركة الصهيونية العقبات والعوائق فى وجه مشروع روزفلت ، ولم يستطع صديقه إرنست أن يصدق أن الصهيونيين يسوءهم أن ينجو إخوانهم اليهود من هذه المحنة ، وأفضى إلى رئيس الجمهورية بهذه الدهشة ، فما كان من روزفلت إلا أن قال له ما نصه :

« إنهم من وجهة نظرهم على صواب ؛ فالحركة الصهيونية تعلم أن فلسطين ، الآن ، وستبقى إلى فترة ما — وسيلة للاستجداء وجمع التبرعات . إن الصهيونيين يعلمون أنهم قادرون على جمع قدر كبير من المال بقولهم للمحسنين : « ليس هناك مكان يمكن أن يلوذ به اليهودى التعس سوى فلسطين ؛ ولكن إذا وجد ملجأ لكل المشردين ، بغض النظر عن دينهم ، وجنسهم ، وأصلهم ، ولونهم — فقد سد فى وجههم باب الاستجداء ؛ لأن الذين لا يودون أن يخرجوا من جيوبهم شيئاً سيقولون فورا : ماذا ؟ أتقولون : إنه لا يوجد ملجأ لليهود التعساء إلا فلسطين ؟ إن المشردين ضيوف العالم المفضلون ! » غير أن عزيمة إرنست لم تنثن بتأثير كلام روزفلت ، وذهب إلى أصدقائه من اليهود محاولا أن يستعمل تأثيره عليهم لإقناعهم بجدوى العمل المشترك من بريطانيا وأمريكا لإنقاذ المشردين جميعاً وخلق وطن جديد لهم ، ففوجئ إرنست بما عبر هو عنه بقوله : لقد قذف بى إلى الطريق من بيوت أصدقاء لى لم يترددوا أن يقولوا لى صراحة : إرنست ! هذه خيانة ! إنك تخرب أساس الصهيونية !

وى ! وى ! إذن هذا هو أساس الصهيونية ، كما صورها روزفلت ، وكما تصورها هذه الحوادث : وسيلة لجمع المال ، وأسلوب فى استغلال آلام المنكوبين والمشردين ، مع خلط فى الظاهر بين السياسة فى أدنى أوضاعها ، ومشاعر الإنسانية فى أعلى مراتبها !

وتوفى روزفلت وحل محله ترومان وفى ٢٢ من ديسمبر سنة ١٩٤٥ أمر الوزراء المختصين ، والأجهزة الإدارية ذات الاتصال بموضوع الهجرة بتسهيل هجرة اليهود إلى أمريكا وتعجيلها ، وفى سبيل هذا الغرض التمس الرئيس من مجلس النواب « الكونجرس » أن يوافق على ضم جميع الكميات المسموح بها بالهجرة والتى لم تستعمل خلال الحرب وبسببها وجعلها كمية واحدة يرخص لها بالدخول إلى الولايات المتحدة ، ولكن الكونجرس كما يقول مؤلف كتاب (ثمن إسرائيل) قابل للتأثر بالنشاط الصهيونى ، لذلك وضع هذا الكونجرس العوائق فى وجه مشروع ذلك القانون ، وعدل فيه بما يضيق من نطاقه ،

فلم يسمح باستعمال جميع الكميات التى لم تستعمل خلال الحرب ، بل اكتفى ببعضها حتى لا يكبر عدد اليهود الداخلين إلى الولايات المتحدة ، ويقل عدد اللاجئين الذين يحتاجون إلى مأوى ، وهم الذين تستجير الصهيونية بعذابهم ، وتدور بهم على بيوت المحسنين من جهة ، وعلى دوائر النفوذ فى العالم من جهة أخرى !

ولم يدع رئيس المؤسسة الصهيونية فى أمريكا مكاناً للشك حينما ألقى خطاباً قال فيه : « إن الصهيونية ليست حركة غايتها تهيئة مرفأ أو ملجأ لليهود ، وليست ثمرة الأحداث التى وقعت فى الحرب العالمية أو التى أدت إلى تشريد اليهود واضطهادهم ، ولا نتيجة لما وقع فى خلال الحرب العالمية الأولى ، وإنما هى حركة لها مقتضيات وجودها ولزومها ولو لم يكن هناك يهود بلا وطن أو ملجأ أو أتيحت فرص الهجرة الحرة أمام اليهود فى مناطق مختلفة فى العالم ! » .

وأثار هذا المسلك كل الذين لهم ميول إنسانية والذين يعتقدون أن السياسة التى تتجاهل آلام الناس والتى لا تهدف إلى إتاحة أسباب السعادة لهم وتوفر عناصر السلام فى حياتهم سياسة حمقاء ، ولم يثر هذا المسلك هؤلاء الإنسانيين وحدهم ، بل أثار فريقاً من اليهود ولا سيما اليهود العاطفين على الصهيونية : فقد نشرت جريدة النيويورك تيمز وهى من أكثر جرائد العالم تطرفاً فى الوقوف إلى جانب الصهيونية للناشر سولزبرج كلاما ناشد فيه الصهيونيين أن يلتزموا فى شأن المشردين من اليهود — سياسة أكثر شمولا بحيث لا تقتصر على إرسال اليهود إلى فلسطين . وقد ختم كلامه بعبارة صارخة الدلالة إذ قال : إنى لا أستطيع أن أقاوم شعورى بأن اليهود التعساء الذين يحتشدون فى معسكرات اللاجئين فى أوروبا ما هم إلا رهائن لا حول لها ولا قوة ، وإن الفدية الوحيدة فى رأى الصهيونيين التى يمكن أن تحل قيدهم ، وتعيد إليهم حريتهم هى أن تقوم الدولة الصهيونية !

وقالت جريدة الطليعة وهى جريدة تصدر باللغة اليديشية[1] Yiddish : إن المؤتمر اليهودى يغط فى النوم إذا نبتت المشكلات المتصلة بتقديم المعونة لليهود المشردين ، أما إذا كان الأمر متصلا بإنشاء الدولة اليهودية فإنه يفتح عينيه ، وتدب فى أوصاله الحياة !

هذا هو الأثر الأول للدعوة الصهيونية ، وهو كما ترى أثر يناقض كل سعى كريم للإنسان منذ بدأ يفكر فى الارتقاء بنفسه والتسامى على جموح غرائزه ؛ فالصهيونية تدوس كل اعتبار إنسانى إذا اعترض الأغراض السياسية !

والأثر الآخر أنها بوصفها عملا سياسيا بحتاً قد عزلت عن الضمانات الروحية للأعمال الإنسانية ، واستعانت بالعنف وحده ؛ فقد اعتمدت على الإرهاب فى داخل حدود فلسطين ، ثم بالإرهاب خارجها ، وبعد أن كان الإرهاب جريمة يبرأ منها الناس هبطت الصهيونية بهذا التقدير الإنسانى الرفيع بحيث جرؤ هنرى دالاس كما جرؤت جريدة الجمهورية الجديدة فى أمريكا على نشر إعلانات صريحة ناشدا بها أهل أمريكا أن يجمعوا تبرعات للإرهابيين اليهود ، ونُشرت مقالات تدعو إلى إعفاء التبرعات التى تجمع لمساعدة الإرهابيين فى أمريكا من الضرائب التى تتقاضاها الدولة عن كل مبلغ مماثل ! .

ولما تحرك ضمير الدكتور ماجنسن مدير الجامعة العبرية عاب هذا الإرهاب المجرد من كل مظهر إنسانى ، ولعن الصهيونية التى تريد أن تخضع كل يهود العالم لسلطة كلية شاملة بالقوة والعنف ، واستنكر ألا تسمى الأشياء بأسمائها ؛ فقتلة الرجال والنساء لا يسمون سفاكين ! والذين يرهبون الناس لا يسمون إرهابيين ! بل يسمون أبطالا ومجاهدين! وأخذ يلوم الأمريكيين قال : إنهم يشاركون فيما يقع فى فلسطين من جرائم بفعل هذه القيادة الوثنية الصهيونية ، ولو لم يرضوا عن أعمالهم » ؛

(١) لهجة ألمانية محلية تكتب بالحروف العبرية ، وتعتبر لغة قومية ليهود وسط أوروبا .

إذ لا يكفى أن يستنكر الإنسان العمل ، بل يجب أن يقاومه ، ولا يكفى أن تعلو أصواتنا حينما يعتبر العمل مخالفاً لما يقضى به نظام الدولة ، بل يجب أن ننكر الأعمال التى لا تتفق مع تقاليد الدين السمحة .

ولكن مدير الجامعة لم يجرؤ على العودة إلى القدس حينما سافر إلى أمريكا فى إجازة .

فقد أشفق محبوه — على رواية ليلينتول — على مصيره وأرادوا أن يوفروا على الإرهاب الصهيونى رصاصة يقتلونه بها .

وقد أغرى الصهيونيين ما وجدوه من انهيار نفوذ القانون ومن تغليب اعتبارات السياسة على اعتبارات السلام العام والحقوق الأساسية للإنسان ، فاجترءوا بالقوة على الأمم المتحدة نفسها ؛ فقد رفض ممثلو إسرائيل المدنيون والعسكريون دائماً الخضوع لقرارات الأمم المتحدة ، وللآراء التى يصدرها ممثلوها والموظفون التابعون لها .

وفى كتاب « الهدنة العنيفة » يروى الكوماندور هاتشسون الكثير من أمثلة الانتهاك لقرارات الأمم المتحدة ، ولو أردنا أن نرويها جميعاً لضاق المجال عنها ؛ ولذلك أكتفى بهذا المثل الصارخ :

قال الكوماندور :

تنص اتفاقية جبل سكوبس Mount Scopus الموقعة فى السابع من يولية سنة ١٩٤٨ على أن البوليس المدنى الإسرائيلى والعربى كلٌ فى منطقة اختصاصه يضع نفسه تحت إمرة « قائد الأمم المتحدة » ؛ إلا أن إسرائيل تنكر وبلا تحفظ أى إشراف أو إدارة للأمم المتحدة فى منطقة جبل سكوبس !

وليس باعث إسرائيل على بسط سيادتها ، وتجاهل القيود التى تفرضها الأمم المتحدة — اعتباراً عاطفيا مرجعه أن هذا الموقع تقوم فيه الجامعة العبرية ومستشفى هاداسا ، بل إن مرجعه أصلا إلى أن الإسرائيليين قادرون من موقع سكوبس على أن يتحكموا فى جميع الطرق المؤدية إلى القسم العربى فى القدس !

« ومنذ توقيع الاتفاقية انتزعت السلطة على القسم الإسرائيلى بموقع سكوبس من رئيس أركان حرب « الأمم المتحدة » : فبينما هو يتمتع بحرية التنقل وسلطة التفتيش فى القسم العربى إذا هو مقيد بزيارات تحدد مقدماً ، وبجولات موجهة فى قسم صغير من القسم الإسرائيلى !

وفى سنة ١٩٥٢ حاول الجنرال رايلى الذى كان قائداً لقوات الأمم المتحدة أن يراقب شروط الهدنة فى زيارة له ، ومع ذلك فإن الإسرائيليين عجزوا على أن يقدموا مفاتيح حجرات عدة ، وأسفرت المحاولة عن عدم جدوى الزيارة !

وفى نهاية سنة ١٩٥٣ حاول الجنرال بنكى الذى حل محل الجنرال رايلى — أن يقوم بتفتيش ، وقد وصل فى ساعة مبكرة من الصباح إلى المدخل الوحيد للقطاع الإسرائيلى فى المنطقة ، فقابله الضابط الإسرائيلى الذى كان فى النوبة ، وقد صحب الجنرال بنكى جميع الضباط الذين أمكن إعفاؤهم من خدمات ذلك اليوم ؛ ليتيسر إجراء تفتيش جدى ، ومراقبة سير الأمور باهتمام . وكان الإسرائيليون قد أخطروا رسميا بالزيارة المرسومة ، وبالغرض منها ؛ وردوا بأنهم مهيئون لها ؛ فقد اصطف حرس شرف لتحية الجنرال ؛ ففتش الحرس ، وقدر هذه التحية . على أن أفراد قوة الأمم المتحدة لمراقبة الهدنة الذين قدم عليهم العهد فى أداء هذه المهمة — لم يتخل عنهم شكهم فى أن الإسرائيليين يمكنون الجنرال من التفتيش ، أما الأعضاء الجدد فقد تأثروا بمظهر الاحترام الذى قوبل به الجنرال ، وعدوه علامة طيبة على التعاون . وبعد أن فرغ الجنرال من تفتيش حرس الشرف أعلن غرضه من الزيارة ، وتبعت ذلك فترة صمت قطعها اعتذار ضابط النوبة بدعوى أنه لم يتلق أوامر تسمح بإجراء التفتيش ! وقد كنا نعلم أن حرس جبل سكوبس الإسرائيلى يحتفظ بجهاز راديو مخالفاً بذلك التعليمات ،

وأن هذا الجهاز كان يستعمل فى الاتصال بالسلطات الإسرائيلية ؛ لذلك رجونا إخطار الموظفين الإسرائيليين بوجود الجنرال وبرغبته فى تفتيش المنطقة . فأجاب الموظف الإسرائيلى فى هدوء : إن الاتصال اللاسلكى بحسب الجدول الموضوع — لن يتم إلا بعد وقت متأخر من النهار ! .

وعند ذلك أرسل الجنرال مراقبين كثيرين إلى الجانب الإسرائيلى من القدس ليستوفى حقه فى تفتيش جبل سكوبس ، وكان يجب أن يتم ذلك التفتيش فى يوم واحد ، حتى لا يتيسر نقل أى عتاد غير مشروع من منزل إلى منزل ؛ فإن هذا أمر لا يمكن التحقق منه إذا امتد التفتيش إلى يوم تال لقلة عدد المراقبين للهدنة ، ولإمكان إجراء هذا النقل فى ظلام الليل دون أن يلاحظه أحد . ولم تصل إلينا كلمة تتضمن الإذن بإجراء التفتيش حتى كان النهار قد انتصف !

ثم قال :

على أننا لم نواصل عملنا طويلا ؛ فبعد ثلاثين دقيقة ظهر الضابط الإسرائيلى ، وأعلن فى غير حرج — أنه تلقى تعليمات تقضى بوقف التفتيش !

وعلى الرغم من أن الجنرال بنكى هادئ عادة فقد كان واضحاً أن الضابط الإسرائيلى أخذ يتحدى سلطته . وإنى لواثق أن الجنرال لو لم يكن مضطراً لمبارحة المكان بسبب أعمال أخرى عاجلة — لبقى فى جبل سكوبس حتى يقرر مجلس الأمن : هل ينوى استعمال السلطة التى احتفظ بها على هذا الموقع أو أنه يقر السلطة التى ادعاها الإسرائيليون لأنفسهم ؟ »

ولعل هذا المثل يكشف عن مدى النتائج التى تترتب على شعور إسرائيل بأن الأمر مرده إلى القوة وحدها ، وأن الأمم المتحدة كباقى الدول لا تعرف إلا الأمر الواقع ، ولا تسلم إلا به ، ولا تحترم غيره !

ولما كانت الجريمة تلد الجريمة كان لابد للصهيونية لكى تعيش أن ترتكب إلى جانب الإرهاب — جريمة مشابهة لها ، هى الإرهاب الروحى أو النفسى ، يعنى تزييف رأى الناس بإحدى وسيلتين : إما بشراء ذمة المؤيدين ، وإما بإخافة المخالفين وخنق أصواتهم : أما إفساد ذمة المؤيدين فلليلينتول يروى مثلا يقف له شعر الرأس ! فقد قال : إن وزراء فى حكومة ترومان ومستر باركلى وكيل ترومان نفسه ، كانوا يؤجرون أنفسهم للدعاية للصهيونية ! فيملئون الجو بدقات طبولها بسعر معروف : فمثلا كان الثمن المحدود للمحاضرة التى يلقيها مستر باركلى هو ١٥٠٠ دولار !

أما خنق الأصوات المعارضة فلست أجد تعبيراً عنه أبلغ مما جاء فى مقدمة كتاب « الهدنة العنيفة »[١] الذى كتبه الأمريكى الكوماندور هاتشسون الذى رأس لجنة الهدنة الإسرائيلية الأردنية والذى سلفت إليه الإشارة وهو :

« على أن ثمة أمراً شغل بالى أكثر من غيره : ذلك أن كثيرين من الأمريكان الذين حصلوا على معلومات مستقاة من مصادرها الأساسية عن مشكلة الشرق الأوسط يبدون إصراراً على عدم مناقشة ما حصلوا عليه من معرفة ، وعرضه خارج نطاق صلاتهم الشخصية ، ويدعى بعض هؤلاء أن الأندية غير الرسمية التى ينتمون إليها تحرمهم فرصة التعبير عن آرائهم فى شأن مشكلة فلسطين ! فإذا صح ما يدعونه كان هناك ما نخافه أكثر مما تصورنا أول الأمر ؛ فعلى حين تحبس الحقائق التى تتصل بالمشكلة الصهيونية العربية الإسرائيلية — إذا بهؤلاء الذين يدافعون عن وجهة نظر إسرائيل يجدون الحرية المطلقة فى أن ينسقوا قصة محرفة !

إن الرأى العام فى الولايات المتحدة هو الذى يوجه أعمال ممثلى حكوماتنا المنتخبة ؛ فإذا حبس الرأى العام فى الظلام فى صدد مشكلة فإنه لن تتاح إلا فرصة ضئيلة للوصول إلى حل عادل لتلك المشكلة ! »

(١) Violent truce

هذه الشكوى الصادرة من أمريكى شغل مركزاً هاما فى البحرية الأمريكية ، وقام بوظيفة كبيرة ندبته لها الأمم المتحدة — هى مجرد عنوان لمجموعة من الجرائم التى ترتكب ، لا فى حق العرب بعامة ، ولا فى حق أهل فلسطين بخاصة ، بل فى حق الأسس التى تقوم عليها الأمم المتحدة ؛ فإن أخطر ما يتهدد الأمم المتحدة والشعوب هو أن يسمح لحروب الإرهاب ولسطوة المال وللدعاية أن تطمس المبادئ التى تصورنا أننا سنقيم عليها حياتنا حينما أسسنا الأمم المتحدة !

وليس يكفى أن يكون أحد طرفى الخصومة أقدر على الدفاع عن نفسه ماديا أو دعائيا أو عسكريا ؛ ليحكم له ؛ فالأمم المتحدة وجدت لتمنح القوة والعون من لا يجدهما فى صراعه من أجل حق من الحقوق ؛ ولكن العقلية التى تحكم إلى الآن هى عقلية تشرشل الذى روى فى مذكراته أنه أراد خلال الحرب العالمية الثانية أن ينشئ فيلقاً يهوديا ، وأن يدربه ، ويسلحه ، فاعترض على هذه الفكرة المارشال ويفل باعتبار أن ذلك سيثير العرب ؛ فرد عليه تشرشل من فوره : « لن ينبح كلب فى بلاد العرب ! » ثم قال تشرشل :

وأنشأت الفيلق اليهودى ، واشترك فى معارك شمالى إفريقية ، ولم ينبح كلب فى بلاد العرب !

فالقوة والقدرة على الصراخ هى الفيصل بين الدعاوى المتعارضة !

ولقد كلف بيفن فى سنة ١٩٤٥ فى أثناء انعقاد الجمعية العامة بباريس الجنرال برنز أن يحاول إقناع ترومان بعدم الموافقة على هجرة ١٠٠ ألف يهودى جدد إلى فلسطين ، فكان رد ترومان : إننى مضطر إلى أن أوافق على هجرة هؤلاء إلى فلسطين ؛ لأن الانتخابات قائمة ، وإذا لم أوافق فإن منافسى مستر ديوى سيوافق ! ولذلك صدر تصريح ترومان بالموافقة ! وكم كانت خيبة أمله كبيرة حينما اطلع فى اليوم التالى على تصريح لمنافسه هذا يقول فيه :

« إن مائة ألف لا تكفى ، بل يجب أن تفتح أبواب فلسطين لهجرة غير محدودة ! . . . »

يجرى هذا ، ثم نسمع أن مسألة إسرائيل مسألة إنسانية ، مسألة أمة مشردة ، مسألة إنشاء دولة لأقوام حرموا طوال حياتهم وطناً يضمهم ، وحكومة تكلؤهم بالعناية والرعاية !

ونجد فى الوقت نفسه أن المبرر منذ البداية فى مأساة إسرائيل لقيامها هو ما يقوله هربرت صموئيل فى خطابه إلى أعضاء الحكومة البريطانية : « إننا بإنشاء دولة لليهود فى فلسطين نكون قد أوجدنا فى جوار مصر وقناة السويس دولة جديدة موالية لبريطانيا ! »

ويقول مستر سيسل شلوود وكيل وزارة الخارجية البريطانية : إن إسرائيل ستكون حماية لبريطانيا ، ولا سيا فى منطقة قناة السويس ! »

ويقول تشرشل سنة ١٩٣٧ : « إنه من الوهم أن نتصور أن تصريح بلفور كان فروسية متحمسة ، أو صدقة مسرفة ! فإنه كان إجراء فى وقت الحاجة ، قصد به تحقيق الفوز التام للحلفاء ! وقد توقعنا من هذا الإجراء ، وحصلنا بالفعل على معونة ذات شأن ! »

وفى سنة ١٩٥٦ ثبت فى صورة لم يشهد التاريخ صورة فى مثل اتساع نطاقها — أن الجريمة إذا تركت لا يمكن إلا أن تلد جرائم حتى يحدث أحد أمرين : إما أن يتوب المجرم وينيب ، وإما أن تنتزع الجريمة من جذورها ، وتمحى آثارها ! . . . .

وميثاق الأمم المتحدة لم يصدر طفرة واحدة ، بل حضرت له الاجتماعات والتصريحات التى أشرت إليها فى أول هذه الكلمة ، وقد كان فاتحة هذه الاجتماعات والتصريحات هو تصريح الأطلسى الذى جرت المادة الثامنة منه : إنه يتعين على شعوب العالم جميعاً أن تنبذ لأسباب روحية ومادية معاً استعمال القوة ، وإنه لا يمكن صيانة السلم فى المستقبل إذا استمرت الشعوب

التى تهدد أو قد تهدد بالعدوان خارج حدودها » .

أما الميثاق نفسه فتجرى ديباجته :

نحن شعوب الأمم المتحدة :

وقد آلينا على أنفسنا :

أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحروب التى جلبت على الإنسانية مرتين فى خلال جيل واحد أحزاناً يعجز عنها الوصف » .

وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان . . . .

فالميثاق قد ألقى على عاتق الأمم المتحدة النظر فى الماضى والعمل للمستقبل .

ولقد رأينا كيف كان الماضى منذ قررت الصهيونية أن تختار لها فى الشرق الأوسط موقعاً إستراتيجياً من وجهة النظر الاستعمارية البحتة .

وقد كانت الأمم المتحدة ككل وليد غير مجرب — أضعف فى بداية حياتها من أن تثبت لضغط الأقوياء المسلحين المجربين وحيلهم وإرهابهم ، ولكن : هل يبنى المستقبل على الأخطاء التى تورطت فيها الأمم المتحدة ؟ .

إن الدولة الوحيدة التى خلقتها الأمم المتحدة هى إسرائيل ، وقد رددنا الأسباب التى أدت إلى إنشائها — إلى أصولها ؛ فهل تتفق هذه الأصول مع الأصول التى قامت عليها الأمم المتحدة ؟

هل قامت الأمم المتحدة ؛ لتغضى عن العنف ، وتتسامح معه ، وتتركه يتفاقم ويستفحل ؟

هل قامت الأمم المتحدة ؛ لتمنح الدول الاستخرابية (الاستعمارية) ضمانات ؟

هل قامت الأمم المتحدة ؛ لتبارك المناورات الانتخابية والرشوة وشراء الذمم ؟

هل قامت الأمم المتحدة ؛ لتطرد شعباً لحساب شعب ، ولتقر أن للدول الكبرى حق التصرف فى أرض الأمم الصغرى وشعوبها ؟

إن كثيرين ممن لا يضمرون الحب للأمم المتحدة — لا يريدون أن يواجهوا هذه المشكلة من زاويتها الحق فيقولون : إن العرب يصممون على ألا يهدءوا حتى يلقوا بإسرائيل إلى البحر ! وهذا تزييف للمشكلة ، وإتلاف لمظاهرها الإنسانية ؛ لأننا لو تصورنا أن العرب بادوا من الأرض — بقيت الأمم المتحدة مطالبة ، لو أرادت لنفسها الحياة — بأن تجيب عن السؤال الذى لم يجد بعد جوابه : هل جاءت لتؤكد مبادئها ، أو لتنزل عنها ، وتساوم عليها ؟ وهل جاءت لتستسلم للعنف ، ولتقر له مكاسبه وأرباحه أو جاءت لتحاربه وتقضى عليه ؟

فإذا جاءت للأولى فهى ستعيش ، وإن جاءت للأخرى فلا مفر لها من الموت القريب . . .

من مراجع هذا البحث :

What Price Israel ?. By Alfred Lilienthal.
Violent Truce. By Commander E.H. Hutchison.
Seven Fallen Pillars. By John Kimche.

الامم المتحدة : للدكتور زكى هاشم .
الصهيونية العالمية : للأستاذ عباس العقاد (سلسلة اخترنا لك)
القضية الفلسطينية : لأكرم زعيتر .

محمد فريد

هل عمل على إعداد ثورة مسلحة لتحرير مصر؟

بقلم الأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف

نشأ محمد فريد إبان عصر كان لمصر فيه مركز لا شبيه له اليوم ولا بالأمس بين دول الأرض جميعاً. ذلك أن مصر كانت بلداً مستقلا ... أو شبه مستقل ... لا يرتبط بالدولة العلية العثمانية إلا برباط واه دقيق؛ وإن كانت مصر محتلة بجيش بريطاني، فهو احتلال غير مشروع.

هذا ما قاله مصطفى كامل ومحمد فريد وصحبه، وإن كانوا يعلمون حق العلم: أن مصر من الناحية السياسية الواقعية مستعمرة ... أو شبه مستعمرة بريطانية، يحتلها عسكرياً الجند البريطانيون، وتسيطر على مقدراتها السياسية وغير السياسية حكومة لندن، وتتحكم حفنة من ممثليها الدبلوماسيين والعسكريين فى كل ما على أرض مصر من رجال ومال، يحكمونها جميعاً بالفعل والقول معاً، وبالفعل دون القول إذا لزم الأمر ... ومصر إلى جانب ذلك، أو رغماً عن ذلك، مستعمرة أو شبه مستعمرة تركية ... تابعة بالاسم لا بالفعل للإمبراطورية العثمانية ...، يحكمها حاكم من غير أهلها باسم السلطان العثمانى ...، غير أن الحاكم لا حول له ولا طول ... ومصر إلى جانب ذلك، أو رغماً عن ذلك، مستعمرة أو شبه مستعمرة تتناهبها عدة دول، متفقة أو مختلفة فى كل آن، وتتمتع كل منها بامتيازات سياسية وغير سياسية تخضع لها البلاد ... ومصر إلى جانب ذلك، أو رغماً عن ذلك، تشترك اسميًّا مع بريطانيا فى حكم السودان ...، وتنفرد به بريطانيا بوضعه فى إطار المستعمرات البريطانية، وتفرض على مصر أن تبذل من مالها ورجالها ما يكفل بقاء السودان فى ذلك الإطار البريطانى ...

ولم يكن مركز مصر السياسى هذا بأعجب من مركزها فى اقتصادياتها. فقد كانت مستعمرة أو شبه مستعمرة تتحكم فى مقدراتها الاقتصادية، جملة وتفصيلا بريطانيا أولا وآخراً ... ومع ذلك، أو رغماً عن ذلك، كانت مصر البقرة الحلوب للإمبراطورية العثمانية، التى تؤثر سلب المال نقداً وعداً على التحكم فى الاستثمار والاستغلال. ومع ذلك، أو رغماً عن ذلك، كانت مصر مرتعاً خصباً لكل استعمارى، بل ولكل أذناب المستعمرين يمرحون فيها ويغترفون من خيراتها دون حساب.

ولم يكن مركز مصر السياسى ولا مركزها الاقتصادى هذا بأعجب من مركزها الثقافى. فقد انحدرت مصر قسراً إلى هاوية الاستعمار العقلى. فالإنجليز كانوا يمدون شعب مصر بكل تافه من علم ومعرفة، وكانوا يمعنون فى القضاء على اللغة العربية بطرق ملتوية، ويعملون على إحلال لغتهم محل الفرنسية وفلول التركية. كذلك كانوا ينفثون سم المبشرين، الذين زادوهم قوة وبأساً، ليطيحوا بدين أهل البلاد ويشككوهم فى معتقداتهم. وعهدوا إلى تدنيس الحس والنفس، فتمادوا فى حض الناس على الرذيلة، وزينوا لهم قبيح العادات ودفعوهم إلى الترامى فى أحضان الفجور. وكانوا يثيبون من يستجيب لهم فى هذا كله أو بعضه أجزل الثواب، ويؤثرونهم بمتاع الحياة الدنيا ... والفرنسيون، وهم فرسان ميدان الاستعمار العقلى، كانوا يتبذلون ما شاءت لهم نفوسهم، ويطلقون

على شعب مصر فى كل آن وساعة طوفاناً من الانحلال الفكرى أسموه زوراً وبهتاناً وخداعاً : علماً وفناً وأدباً . ولم يكن لهم من وراء ذلك مأرب إلا ما اتفقوا عليه مع البريطانيين من نزع العربية من أفواه الناس ، واقتلاع العقيدة من قلوب المؤمنين ، ووأد الحرية فى نفوس المصريين أجمعين . . . وكانت جميع الدول الاستعمارية الأخرى تسير ، جهرة أو خفية ، على هذين المنوالين .

وجملة القول أن الاستعمار فى شتى صوره ، لا فى صورته البريطانية فحسب ، عمد عامداً متعمداً إلى أن يجعل مصر موطناً أبدياً للفقر والجهل والمرض والخنوع .

هكذا كانت مصر إبان عهد محمد فريد . وهذا كله والكثير غيره كان بعض ما يعلمه عن وطنه . كذلك كان يعلم عن خصائص مواطنيه : خالص معدنهم ، وشريف عنصرهم ، وأنهم يصبرون ويصابرون ، وإذا نزلت بهم المحن ، وداهمتهم الخطوب قويت عزيمتهم ، واشتد طعانهم وثبتوا فى الوغى . والحرب عندهم فى سبيل الحرية جهاد ؛ وقتل المعتدين عليهم طهر وتكبير وتسبيح ؛ والموت فى سبيل الوطن استشهاد ورضوان من الله .

* * *

كان هذا بعض ما تزود به محمد فريد حين أقبل هو وصحبه على وضع « خطة العمل » وهى خطة الحزب الوطنى « لطرد الإنجليز من مصر » بأكملها وتفاصيلها ، وسرعان ما تبلورت هذه الخطة المتشعبة المترامية الأطراف فى كلمتين اثنتين : « مصر للمصريين » .

« مصر للمصريين » ، هذا المبدأ الذى اعتنقه محمد فريد عن علم وإيمان ، يشتمل فى رأيه على كل شىء ، وإليه ينتهى كل شىء فى دنيا مصر .

ولا عجب أن يترعرع هذا المبدأ فى نفس محمد فريد ، لأنه كان يغذيه بالإخلاص له ، ويضحى بكل شىء فى سبيله ، ويعمل بكل وسيلة على نشره وتعميمه ، بل يتفانى فى تحقيقه بكل ما أوتى من قوة . ولم تكن القوة التى واتته على العمل لتحقيق هذا المبدأ النبيل سوى قوة الإيمان . . . الإيمان بالله الذى ينصف المظلوم من الظالم ، وقوة العدل والحق التى تجمع بين أطراف هذا المبدأ ؛ وقوة الشعب الذى استمد منه محمد فريد قوته ؛ وأخيراً العمل الصادق الذى ارتسمه لنفسه ورسمه لصحبه والمجاهدين من المصريين ليجعل « مصر للمصريين » .

وكان لمحمد فريد نظرة فى الجهاد تتفق وسماحة خلقه ونبل مقصده . ذلك أن للجهاد عنده مظاهر شتى : فالذى يجادل بالحسنى فى حق مصر ، ويدافع بيحيى من عقيدته عن مبدأ « مصر للمصريين » ، مجاهد فى صفوف المجاهدين . وقد أقيم « نادى المدارس العليا » ليكون منزلا مباركاً لإعداد أمثال هذا المجاهد الأمين . . ؛ والذى يكتب للناس ويخطب فيهم داعياً عن إيمان بوجوب الاستمساك بمبدأ « مصر للمصريين » ، مجاهد فى صفوف المجاهدين ، وقد أنشئت صحف الحزب ودوره ، فضلا عن المنابر العامة ، لتكون له ولأترابه منارات يدعون الناس من فوقها إلى الحق والخير والفلاح . . . ؛ والذى يعلم النشء ويربيهم تربية قومية صحيحة ويهذب نفوسهم ليكونوا نواة « مصر للمصريين » ، مجاهد فى صفوف المجاهدين ، كما شيدت المدارس الثانوية النهارية والليلية لتعليم أبناء الشعب ولتكون ميداناً لتلقينهم مبادئ هذا الجهاد ... والذى يعلم الفلاحين والعمال ماهية التعاون ، وأثره فى حياتهم المهنية ، بل وحياتهم وحياة مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ليمكن من نفوسهم مبدأ « مصر للمصريين » ، مجاهد فى صفوف المجاهدين ، وقد أسست هذه النقابات وتلك الجمعيات لتكون حلبة يتنافس فيها الروّاد الأول للتعاون وللحركة العمالية ، وانبثق منها الرعيل الأول من أولى الوعى الطبقى ، يضم عمالا وفلاحين ونابهين من المثقفين . . . ؛ والذى يجاهد فى سبيل وطنه ، ويبذل ما ملكت يداه عن طيب خاطر ، ويسارع فى التطوع لبذل مهجته لتكون « مصر للمصريين » ،

ينزله محمد فريد فى أرقى طبقة المجاهدين ، ويلزمه السير وفق « دستور غير مسطور » حتى يستطيع خدمة وطنه على الوجه الأكمل . . .

هذه كانت شريعة الجهاد : طبقات تعمل جهراً وعلانية ، وطبقات تعمل سراً وعلانية . ولكن محمد فريد كان لا ينى عن أن يردد على أسماع أبناء مصر فى داخل البلاد وفى خارجها ، ويسمع العالم طراً ؛ شريعة مصر فى الجهاد ، ويقف منها عند حد الكفاح بالوسائل المشروعة — أى التى كان يجيزها الاستعمار ، وهى الجهاد السلبى . أما الجهاد الإيجابى ؛ الجهاد الحق والثورة المسلحة « لطرد الإنجليز من مصر » فلم يكن من الفطنة فى شىء أن يعلن عنه ولا عن الإعداد له ، لا فى مصر ولا فى غير مصر . بل يجب ألا يشار إليه من قريب أو بعيد . .

وإذن ، كيف تيسر لهؤلاء الذين ارتضوا بذل المهج لاستخلاص استقلال مصر اتخاذ العدة لتحرير البلاد وجعل « مصر للمصريين » ؟

* * *

الرأى عند محمد فريد ؛ الرأى الذى عمل به ، وسعى إلى تحقيقه ، وكان دستوره غير المسطور : هو أن الثورة المسلحة التى تأخذ على عاتقها « طرد الإنجليز من مصر » يجب أن تتركز على دعائم أربع :

١ — توضيح أهداف الثورة ، والدعوة إليها .

٢ — كسب الرأى العام العالمى لمؤازرتها .

٣ — اشتراك طبقات الشعب كافة فى القيام بها .

٤ — إيجاد قواد من أبناء الشعب يحسنون قيادتها .

والحق أن استجلاء هدف الثورة المسلحة ، والدعوة لها لم تكن وقتئذ بالأمر الهين على من يريد القيام به . ذلك لأن سلطان الاستعمار كان بالمرصاد لكل من يتحدث إلى الناس ، بل كل من تحدثه نفسه عن مجرد معاداة البريطانيين ، إذ كانوا يعاقبون الناس على مجرد « نية » معاداة البريطانيين . وكان الاستعمار يدفع القائمين بالأمر سواء أكانوا مصريين أم أجانب إلى أن ينزلوا أشد أنواع القصاص لأتفه سبب يقترفه أحد من المصريين فى حق المستعمرين .

ولكن محمد فريد كان مع ذلك يحتال للأمر ، ويعمل على تهيئة النفوس لتلك الثورة المسلحة ، فقل أن كانت تخلو حلبة من حلبات « العمل بالطرق السلمية » لطرد الإنجليز من مصر ، ليس لمحمد فريد فيها من يحتال بأساليب شتى على تحقيق مأربه هذا . ففى « نادى المدارس العليا » كان الممحصون من رجال الحزب الوطنى يرقبون كل من يتردد على النادى ليتعرفوا فيه مبلغ الصدق عنده ؛ مبلغ الصدق فى وطنيته وأقواله وعواطفه وخلقه ، وأخيراً مبلغ الصدق فى قبوله التضحية — أياً كان نوع هذه التضحية . وكان من المسلم به أن كل طالب من هؤلاء صادق فى كل ذلك ، ولكن الذى كان يسعى إليه محمد فريد هو معرفة مدى الصدق فى كل أمر من هذا الأمور حتى يعد الطلاب لمهام أكبر من تلك التى يؤديها عضو « نادى المدارس العليا » بوصفه عضواً فيه . على أن هذا التمحيص لم يكن بقاصر على أعضاء النادى وحدهم ، بل كان التمحيص يجرى بنفس الدقة على المترددين من تلاميذ المدارس الثانوية . وكان هؤلاء الممحصون وغيرهم من عيون الحزب يندسون بين الطلبة مساء كل يوم ، ويتحدثون إليهم ويتبادلون الرأى وإياهم فى كل موضوع يمت بصلة إلى الوطن وتحريره .

والواقع أن نادى المدارس العليا لم يكن وحده هو المقر الذى اختاره محمد فريد ، ليستكشف من بين أعضائه والمترددين عليه أولئك الذين يؤهلهم بالغ صدقهم فى كل الأمور لخطوة أخرى فى الجهاد من أجل « طرد الإنجليز من مصر » ، بل كان يجرى فى مقر الحزب وفى دور صحفه ، وفى كل ندوة مثل هذا التمحيص على النمط الذى أسلفنا ذكره .

وكان محمد فريد قد أعد لهؤلاء المختارين من المثقفين خطوات لا تختلف فى مراحلها الأولى عن تلك التى اختار اتباعها مع المختارين من المدارس النهارية والمدارس الليلية، والنقابات الزراعية وجمعيات العمال ، الذين جرى عليهم مثل ذلك الامتحان غير المنظور . وكان المختارون من بين المثقفين إذا ما انتهوا من الإعداد الفكرى انتقلوا إلى الخطوة التالية ، لينصهر كل منهم فى شعبة من ثلاث :

١ ــ شعبة قادة الثورة الروحيين ودعاتها .
٢ ــ شعبة منظمى الثوار قبل قيامها .
٣ ــ شعبة قادة المقاتلين من الثوار فى حومة الوغى .

وكان الشاب الذى يقع عليه الاختيار ، فيلحق بعد إعداده الإعداد الفكرى الكامل بالشعبة الأولى ، لا يدرى شيئاً من أمر اختياره ، ولا يجد حلقة أو درساً ، كما لا يجد مدرسة أو مؤسسة قد التحق بها . ولكنه مع ذلك كان يزوّد بالمعارف والمعلومات عن مصر وتاريخها السياسى الحديث على الأخص ، وتاريخ نهضات الشعوب ، وسير أبطال ثوراتها ، وتاريخ الاستعمار ووسائله فى مصر والسودان خاصة ، وتاريخ الاستعمار العسكرى والسياسى والاقتصادى جملة . كما يتعلم كيف يحلل الحوادث السياسية التى مرت بمصر على ضوء فكرة التحرير ، فكرة « مصر للمصريين » . ولم يكن للشباب الجاد مطلب سوى الاقتداء بزعماء البلاد ، وزعماء النهضات فى مختلف الأقطار ، وزعماء الثوار فى كل مكان، والسعى للوصول إلى مثل ماوصلوا إليه.وكان التهافت على المعرفة والتحصيل والاستزادة من العلم هو الطريق الرئيسى إلى ذلك . لهذا كان يبتهج فرحاً إذا ما قدم إليه كتاب يعينه على السير فى ذلك المنهج الذى ارتسمه لنفسه ، بل يسارع إلى السؤال عن اسم كتاب ثان وثالث ليستوعبها جميعاً . فإذا ما منح فرصة لقراءتها وإعمال الفكر فيها ،أو قراءة بعضها نوقش فيها فى غير عمد ظاهر ليزداد تثبتاً من معلوماته الجديدة ، ويزداد القائم على تربيته السياسية إدراكاً لمبلغ تحصيله واتساع أفقه ومدى استعداده وكنه طموحه .

* * *

وكان المربون السياسيون للنشء لا يتقيدون ببرنامج معين ، بل كانوا يتعمدون أن يكون البرنامج فضفاضاً إلى أبعد حد ، كما كانوا المعول عليهم وحدهم فى تقدير متابعة الشاب لتلك الدراسة واستكمالها أو الاكتفاء بما حصل من درس . فإذا ما قدر وتابع الدراسة فاكتملت له على حد اعتقادهم ، نظر فى أى الشئون هو أصلح لها ، ليكون من دعاة الثورة ، أو من المؤهلين للانضمام إلى قادتها الروحيين ، أو للعمل فيما وراء ذلك من شئون ، وهذه عند محمد فريد أعلى مرتبة من جميع ما سلف . وإذا ما اتفق الرأى على أمر من هذا واجه أكثرهم به صلة بوقوع الاختيار عليه ، ليعدّ نفسه منذ الآن الإعداد الكامل على قدر المستطاع ، كيما يؤدى واجبه فى ميدان الجهاد .

ولعل تلك اللحظة التى كان يسمع فيها الشاب ما ناله من ثقة هى أسعد اللحظات عنده . والواقع أن محمد فريد لم يكن ليرى فى تلك المرحلة الأولى من التربية السياسية إلا مجرد التمهيد للسير فى طريق الكفاح وإنارة معالم المسالك التى لا بد للشاب من اقتحامها . غير أنه كان يؤمن فى الوقت ذاته بأن فريقاً من أولئك الذين اجتازوا هذه المرحلة سيقفون عند نهايتها . « نعم سيتوقفون قليلاً أو كثيراً ، ولكنهم لا يلبثون أن يسيروا فى الصفوف الأولى من القافلة متى جد الجد » . ولهذا لم يكن ليؤاخذهم فيما فعلوا قائلا : بأن « شمس مصر كفيلة بإتمام نضجهم ، ولو كانوا عنها بعيدين » .

* * *

هكذا كان إيمان محمد فريد ، إيمانه بأن لا بد أن يجىء اليوم الذى لا يتخلف فيه مصرى واحد عن الاشتراك فى تحرير بلاده ، اليوم الذى يقوم فيه المصريون قومة رجل واحد لطرد الإنجليز من مصر . نعم « طرد الإنجليز

من مصر » ، فقد كانت هذه رسالته ورسالة صحبه ، بل ورسالة المصريين جميعاً ، بعد أن رسخ فى أذهانهم وأفئدتهم أن لا سلام ... حتى تصبح « مصر للمصريين »

وكان محمد فريد يتعجل مجيء هذا اليوم ، بل ويراه قريباً ،وقد عجل بمجيئه حقاً . فما كان إعداده هؤلاء الشبان على النحو الذى ذكر من قبل إلا إعداداً لطور التمهيد « لطرد الإنجليز من مصر » — أى للثورة المسلحة ، التى يريد أن لا يخمد لها أوار ، حتى تحرر مصر من الاستعمار ، وتتمتع بالحرية والاستقلال . وكان قد جعل همه أن يجلو أهداف الثورة المسلحة فى أذهان هؤلاء الشبان المختارين ، الذين كانوا مدار تفكيره بالليل وبالنهار . فعمد هو والأوفياء من أولئك المربين السياسيين إلى إيضاح القول بأن مبدأ « مصر للمصريين » يقضى بمحاربة كل لون من ألوان الاستعمار ، سواء أكان هذا الاستعمار بريطانياً أم فرنسياً أم تركياً أم بلجيكياً أم إيطالياً أم غير هذا وذاك . وسواء أكان استعماراً عسكرياً أم استعماراً سياسياً أم استعماراً اقتصادياً أم استعماراً عقلياً — ظاهراً كان أم خفياً . كذلك يقضى مبدأ « مصر للمصريين » بمحاربة أذناب الاستعمار وعملائه سواء أكانوا مصريين أم أجانب عن مصر ، محاربة الجميع حرباً لا هوادة فيها ، حتى تتحرر البلاد تحريراً كاملاً غير منقوص .

* * *

واستشعر المستعمرون وأذنابهم وعملاؤهم أن محمد فريد جاد فى تهيئة ثورة مسلحة ،رغم أن معالم هذا الإعداد كانت خافية على أكثر الناس فى مصر . ذلك لأن الجميع كانوا يؤمنون بأن كفاح الحزب الوطنى فى سبيل استقلال البلاد وحريتها قاصر على انتهاج الطرق السلمية ، كما كان يعلن ويذيع .

وضاق المستعمرون ذرعاً بمحمد فريد بعد أن أعيتهم الحيل فى إخماد روح الثورة المتأججة فى نفوس الشبان ضد الاستعمار بعامة ، والاستعمار البريطانى بخاصة ، وهو الاستعمار الماثل دائماً أبداً أمام أعينهم فى كل شأن من شئون بلادهم . ولم يجد المستعمرون إلا فرية رخيصة أرادوا أن يلصقوها بمحمد فريد ، ولو عن طريق غير مباشر . فزعموا أن الحزب الوطنى لا يريد التخلص من الاستعمار البريطانى إلا ليرتمى فى أحضان الدولة العلية العثمانية ، أى فى أحضان الاستعمار التركى . وروج لهذه الفرية أذناب الاستعمار وعملاؤه . وكادت تنطلى تلك الأكذوبة المختلقة على صغار الأحلام . ولكن كيف يتناسى هؤلاء وأولئك أن الارتماء فى أحضان الاستعمار التركى لا يستقيم ومبدأ « مصر للمصريين ؟ » وعلى أية حال فإن محمد فريد لم يأبه لهذه الفرية ولم يعرها أقل اهتمام ، ذلك لأن التمسك بمبدأ « مصر للمصريين » يدحض فى ذاته تلك الفرية الخسيسة ، ويبطل ذلك القول الهراء،وهو يعلم أنه ليس وحده الذى يؤمن بهذا المبدأ الواضح كل الوضوح ، بل إن الشعب من ورائه يؤمن الإيمان كله بنفس هذا المبدأ . فلم يدع وقته لينصرف من الأهم إلى ما هو أدنى ،ولا أن ينصرف عنه الإعداد للثورة المسلحة بحال .

وإن هى إلا بضع سنين حتى كان الزمن والقدر خير معوان لمحمد فريد للقضاء على تلك الفرية التى اصطنعها الاستعمار . وكان ذلك فى قلب عاصمة الدولة العلية العثمانية . نعم فى « إستانبول » قلعة الاستعمار التركى قام محمد فريد ، مؤيداً من جل المصريين هناك ، يكافح الاستعمار التركى فى أولى سنى الحرب العالمية الأولى . أى فى وقت كان سيف الأحكام العرفية فيه أشد سيوف الطغيان التركى هوجاً يحش الرقاب بغير حساب . فى هذا الوقت بالذات حين اشتد خطر الاستعمار البريطانى على مصر واشتد معه خطر الاستعمار التركى على وطننا العزيز امتلأ محمد فريد قوة بطش فى كفاحه الاستعمار البريطانى والاستعمار التركى على السواء . ولهذه الأحداث بقية شرح قد تجيء فيما بعد .

* * *

إذن كان هدف تنشئة الشبان تنشئة صادقة أن يكونوا ذخر مصر فى استخلاص حريتها واستقلالها ، وأن يكونوا عمادها فى ثورتها المسلحة لطرد الغاصب عن البلاد. كان الهدف إرساء قواعد إيمان جديد فى قلوب شباب مصر ، الإيمان الراسخ بوجوب مكافحة الاستعمار ، لا بالطرق المشروعة فحسب ، بل بكل الوسائل وأولها وأعظمها الثورة المسلحة .

ثم كان أن هيأ محمد فريد للخلاصة المنتقاة من الشبان سبيل قطع عدة مراحل تؤهلهم ليكونوا على حظ وفير من الكفاية ، لاستخلاص الحرية لبلادهم من أيدى المستعمرين ، بعد أن أيقنوا أن ذلك لن يتيسر إلا بثورة ، يريدها محمد فريد ثورة مسلحة ناجحة . ولضمان نجاحها قضى بأن كل من قدر له أن يتصل من قريب أو بعيد بهذه الثورة المسلحة ، يجب عليه بادئ ذى بدء أن يستكمل المرحلتين الأوليين من مراحل التربية السياسية . فإذا ما أتمهما على نحو ما ذكر زج به فى معترك الحياة السياسية العملية ، ومنح الفرصة ليتدرب تدريباً عملياً ، وكان مجال العمل يتراوح بين الاجتماعات الخاصة والاجتماعات العامة ، وبين جمعيات العمال ونقابات الفلاحين ، وبين المدارس النهارية والمدارس الليلية ،وبين دار الحزب ودور صحفه . فإذا ما تبين نضجه وأهليته أعدّ إما لأن يقتحم الميدان الخارجى لكسب الرأى العام العالمى ، بعد أن عرف كيف يكسب الرأى العام المصرى ، وإما أن يعدّ إعداداً آخر خاصاً ، ليكون ضمن قادة الثورة الروحيين — لا دعاتها فقط ، أو ليكون ضمن منظمى الثوار قبل بدء اشتعال الثورة .

وكان محمد فريد يؤمن بأنه إذا ما دعا داعى للثورة أقبل المصريون من كل صوب يتسابقون إلى الانضمام إلى صفوفها . ولهذا كان مطمئناً إلى أن عدة جيش الثورة المسلحة ستكون كاملة وافية . ولكن الذى كان يؤرق محمد فريد بالليل ويملك عليه فكره أمران أساسيان لا ثالث لهما . أولهما : السبيل إلى توفير العتاد لذلك الجيش وثانيهما : طرائق تيسير إعداد قادة هذا الجيش ليتولوا العمل فى اللحظة التى تدق فيها ساعة الثورة . وكان يرى أن حل المسألة الأولى ، فضلا عن أنه مرتبط إلى حد ما بتطورات المشكلات الدولية فهو مرتبط أصلاً ، وإلى حد بعيد بحل المسألة الثانية . لهذا رأى محمد فريد أن يبدأ بها ، أى مسألة تيسير إعداد قادة لجيش الثورة المسلحة .

ومن الجلى أن الاستعمار البريطانى منذ أن وطئت أقدامه أرض مصر ، كان يعمل بكل وسيلة على إخماد روح الثورة ، وروح الوطنية فى نفوس الناس عامة . ولكنه كان أشد ما يكون اهتماماً فى ذلك الشأن بفئة خاصة وقد صمم منذ البداية على تنفيذ سياسته هذه تنفيذاً صارماً لا هوادة فيه ، تلك هى فئة ضباط الجيش المصرى ولهذا كان ضباط الجيش وكل ما يقوم به الجيش من عمل ، وكذلك نظام التدريس فى المدرسة الحربية المصرية وكل ما يقوم به هؤلاء الطلبة من تحصيل للعلم وأعمال تطبيقية له أو أى عمل فنى آخر ، كل ذلك كان خاضعاً لنظام دقيق من توجيه المستعمر ورقابته . ولم يكن الاستعمار البريطانى ليطيق بقاء واحد من الضباط المصريين فى الجيش ، أو ليطيق بقاء واحد من الطلبة فى المدرسة الحربية المصرية ، تنكشف للمستعمر ميوله ونزعته إلى مناوأة الاستعمار . وبخاصة بعد أن أحكم البريطانيون وضع برنامج دقيق يسير بموجبه عمل كل الضباط فى الجيش ، ويتلقى بموجبه كل طلبة المدرسة الحربية المصرية ألواناً من العلوم والفنون لا تسمن ولا تغنى من جوع . ولم يكن هذا البرنامج البريطانى فى الواقع سوى السلاسل غير المرئية التى يقيد بها الاستعمار شعب مصر الدائب المتحفز للثورة .

* * *

فلم يكن لمحمد فريد إذن بدّ من أن يبحث عن

مدرسة حربية فى غير مصر يتلقى فيها الطلبة المصريون أصول علوم الحرب وفنونها . ولم يك ذلك بالأمر الهين ؛ فالمدارس والكليات الحربية الجديدة بهذا الاسم لا وجود لها إلاّ فى البلاد الاستعمارية ذاتها. ولكن الدول الاستعمارية لا يمكن أن تفكر فى تهيئة الظروف للثائرين من أية مستعمرة ، ولو كانت غير تابعة لها .

ولحسن الحظ كان بين الدول الاستعمارية دولة مستضعفة هى الدولة العلية العثمانية ، التى كانت تربطنا بها آنئذ. أكثر من صلة . وكان من الثابت لدى المؤرخين ، وقد أرخ محمد فريد للدولة العلية العثمانية ، أن الشعوب التى ثارت على الإمبراطورية التركية قد تولى ، فيما سبق من قيادة الثورة فيها ، نفر من الضباط تخرجوا من المدارس الحربية التركية . وإذن فالفرصة سانحة . ومهد محمد فريد لذلك باتصالاته الشخصية بعدد من زعماء تركيا ممن كانوا يتولون الحكم فى إستانبول. وما إن أجيب إلى طلبه السماح للطلبة المصريين بأن يلتحقوا بمدارس الدولة العلية العثمانية وكلياتها ومن بينها المدارس الحربية وكلياتها ، على أن لا يقيدوا بعد تخرجهم عنها بوجوب العمل فى الجيش العثمانى ، حتى سرى الخبر إلى أولئك الذين وقع عليهم الاختيار ، من قبل لكى يعدوا إعداداً عسكريّاً لقيادة ثورة مصر المسلحة ضد الاستعمار البريطانى . وهكذا نزح إلى إستانبول حتى منتصف عام ١٩١٤ نفر من أولئك الطلبة الذين بادروا فالتحقوا بالمدارس الحربية التركية فى إستانبول وفى دمشق الشام . والحق أن العدوى سرت إلى غيرهم ممن لم يؤهلهم أحد لمثل هذه الدراسة . كذلك التحق هؤلاء وغيرهم فى مدارس وكليات تركية أخرى .

ولم يشأ محمد فريد أن يترك هؤلاء الطلبة فى غير رقابة منه عليهم . فأقام نفسه عليهم رقيباً ووليّاً ونصيراً ، وموجهاً لتفكيرهم وشعورهم الوطنى ، حتى يكفل بقاءهم فى مأمن من أية نزعة تتجاوب بها أجواء عاصمة الاستعمار التركى ، وحتى يجىء لهم مع مطلع كل يوم بوقود يلهب نفوسهم وأفئدتهم ضد كل استعمار ، وهذا هو سر بقاء محمد فريد أكثر أيام السنة مقيماً فى إستانبول بعد أن ضاق الاستعمار به ذرعاً فى مصر . وكان سر بقائه هناك يرجع إلى وحى من قلبه وعقله ، وحى لا يحثه فى كل آن على أن يستقصى أنباء ذلك الغرس فحسب ، بل يؤرقه طوال الأسبوع حتى ينعم فى يومى الخميس والجمعة برؤية ما غرسته يداه فى حقل الثورة المسلحة ، وليطمئن إلى إزهار النبت الجديد : الطلبة المصريين فى المدرسة الحربية التركية. وكانت الساعات التى يقضيها معهم تنسلخ فى ذكر تاريخ الثورات التحريرية للشعوب وتاريخ أبطالها ، وفى تبصيرهم بكل جديد من أمور بلادهم ، وبكل دخائل السياسة المصرية ، وبكل الدسائس والمؤامرات التى حاكها المستعمرون فى السر والعلانية للقضاء على وطننا .

وكأنى بمحمد فريد وهو يحاضرنا فى ذلك قد أرادنا أن لا نجرى وراء الحرب حبّاً فى الحرب ، كما أرادنا أن لا ننجرف إلى تأليه القتال لمجرد القتال . بل أرادنا على أن نقصر الحرب والقتال على تحقيق أسمى المثل العليا فى الحياة ؛ الدفاع عن الوطن ضد المستعمر .

وانقضت الأيام على مثل هذا المنوال ، وكانت الشهور تمر سراعاً ونحن لها مستحثون . حتى إذا ما اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى تبين لمحمد فريد أن الدولة العلية العثمانية ستنضم إن عاجلاً أو آجلاً إلى صفوف الألمان .

* * *

وأسرّ إلينا محمد فريد برأيه أن مصير مصر رهن بنتيجة هذه الحرب ، إذ كان يعتقد أن الصراع سيكون بين الدولة الاستعمارية العجوز : بريطانيا ، وبين الدولة الاستعمارية الفتية : ألمانيا . وقد يكون الشرق الأدنى بعامة أو قد تكون مصر على وجه خاص أهم ميادين القتال فى هذا الصراع بين المستعمرين . وذلك لما يعلمه من أن نزعات المسيطرين على شئون الإمبراطورية الألمانية أعمتهم

عن كل شيء سوى منافسة إنجلترا فى ميدان الاستعمار ، هؤلاء الذين كانوا يرون أن الشرق ، وقد تمثل لهم بجحافله وإمكانياته خطراً داهماً على الجنس الأوربى (والأصح أنه خطر على الاستعمار الأوربى) ، لا يمكن أن يترك وشأنه للتثقيف والتصنيع . بل كان هؤلاء الذين يسيطرون على مقدرات الإمبراطورية الألمانية لا يتورعون عن القول جهاراً بأن لا بد لألمانيا من نصيب أوفى فى مشاركة الدول الاستعمارية سيطرتها على شعوب الشرق .

ولم يكن محمد فريد ليرتضى أن نقيم كبير وزن للإمبراطورية العثمانية فى ذلك الصراع القائم بين بريطانيا وألمانيا . لا لأنها كانت دولة متخاذلة مستضعفة ، ولكن لأنها مع ذلك كانت يومئذ أقرب إلى أن تكون منطقة نفوذ للألمان منها إلى دولة ذات سيادة تتمتع بكامل استقلالها .

وكانت تلك الأحداث التى شهدنا تطوراتها فى إستانبول ساعة بعد ساعة إلى أن أعلنت الدولة العلية العثمانية الحرب على بريطانيا العظمى — تعصرنا عصراً . وكأنها أرادت أن تكون محكًّا لمحمد فريد لتجلو منه صادق معدن وطنيته ، ومدى قدرته على الكفاح ، وشجاعته فى ملاقاة الأعداء .

وما هو إلاّ يوم أو بعض يوم خلا فيه إلى نفسه ، وتوجه إلى ربه ، وتبصر فى كل تلك الأمور ، وفيما يمكن أن يحقق لمصر استقلالها وحريتها ، حتى طلع علينا برأى اصطفاه لنفسه ثم ما لبث أن أسرّه إلينا فرادى أو جماعات ، وهذا هو الرأى الذى أكاد أسمع رجع صداه حتى اليوم :

« إن طبيعتنا الثورية لا يمكن أن تركن إلى موقف سلبى إزاء هذا الصراع الاستعمارى ، الذى ستكتوى مصر حتما بناره . بل ستكون وأهلها عرضة لما يفرضه عليها المنتصر من قرار ، لا مفر له من أن ينفذه بالقوة ، مستعيناً بكل سلاح يستطيع استخدامه . وإذن فلا بد من اتخاذ موقف إيجابى ! »

— هذا حق ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟

ويقول محمد فريد : « ليس لنا من خيار بعد ، إذا آمنا بأن لا معدى من أن تكون « مصر للمصريين » وبعد أن أشهدنا الله على أن نقدم أرواحنا فداء لمصر حتى تستخلص حريتها واستقلالها . ليس لنا إلا أن نقاوم الاستعمار هنا ، ونكافحه هناك ، ونحاربه فى كل مكان .

وها نحن الآن ، وقد تجلت أمام أعيننا مطامع الأعداء الثلاثة : الاستعمار البريطانى ، والاستعمار الألمانى ، والاستعمار التركى ، لا محيص لنا من محاربتهم جميعاً فى وقت واحد . » — ولم نشفق على أنفسنا ، ولم نشفق عليه ، فقد كنا حملنا جميعاً رؤوسنا فوق أيدينا ، وطلبنا منه الإفصاح عن الخطة . . . فأسر إلينا بأن :

« الخيطة تقضى بأمور ثلاثة هى :

أولاً : أن نجدّد ، نحن أمام العالم طرًّا ، إعلان الحرب الشاملة على بريطانيا لطردها من مصر ، وأن نسلك كل طريق لبلوغ هذه الغاية .

ثانياً : إبلاغ ألمانيا أن مصر معتزمة محاربة البريطانيين ، ومصممة على أن تتمتع بالحرية الكاملة ، والاستقلال التام ، لتعود « مصر للمصريين » .

ثالثاً : إعلام الدولة العلية العثمانية بأن المصريين فى كل مكان سيشدون من أزرها ، إذا ما قطعت على نفسها عهداً بأن تسلم مصر لأبنائها حين يظفر الجيش العثمانى بطرد البريطانيين من أرض مصر » .

وتدافعنا بقلوب المؤمنين نؤيد محمد فريد فيما ذهب إليه وفيما ارتأى العمل به . وحين تدافعنا عليه طالبين مزيداً من إيضاح لكل نقطة من تلك الأمور جميعاً أرجأنا إلى الغد . . .

* * *

ولكن غد ذلك اليوم لم يكن لناظره قريباً . وقضينا يوماً نمحص فيه كل ما سمعناه ، ونتدارس كل مشكلة عرضت لنا ، ونتشاور فيما نحن قادمون عليه . وسرعان ما استقر رأينا — وكنا حفنة من طلبة المدرسة الحربية فى

إستانبول — على أن نطلب إليه أول ما نطلب أن يسعى لدى أنور باشا وزير الحربية التركية ليقبل منا التطوع فى الجيش الذى يعد للهجوم على مصر لطرد البريطانيين منها . وذلك رغم علمنا بأن القوانين العسكرية لا تبيح لطالب فى المدارس الحربية أن يتطوع فى الجيش ، بل عليه أن يستكمل الدراسة أولاً ، وعندئذ يلتحق تلقائيًّا ، بالوحدة التى يعين فيها . ولكن ما شأننا بهذه القوانين ؟ وهل كان مجيئنا إلى تركيا إلاّ استعداداً للمساهمة فى طرد البريطانيين من مصر ؟ وها هى الفرصة فيما نظن قد بدت سانحة .

وما إن سمع منا محمد فريد ذلك حتى بادر بالقول :

— « كنت أتوقع منكم ذلك ، بل كنت أتحرق شوقاً إلى سماعه » .

ثم أخذ يفصل الأمور تفصيلاً :

— « الآن أصارحكم بأنى قد أعلنت باسمكم أنتم المجاهدين فى سبيل مصر ، بل أعلنت باسم شعب مصر الثائر ضد الاستعمار ، الحرب على بريطانيا . كما أعلنت أننا سنسلك فى هذه الحرب « كل طريق » لبلوغ هدف المصريين جميعاً ، وهو التمتع بالحرية الكاملة والاستقلال التام . وقد سمع العالم قولى هذا وتناقله البرق ونشرته الصحف (ولم يكن هذا إلاّ الحرف الأول من مواد الدستور غير المسطور ، الذى وضعه محمد فريد لنفسه ولنا . وقد رأى أن لا ضرر ولا ضرار فى أن يكشف للعالم يومئذ عن شىء من ذلك الدستور)

ثم أخذ فى شرح المسائل التى ارتأى أن الحيطة تقضى باتباعها . وأوضح لنا كيف أن طريقنا قد اشتدت وعورة ، وأضحت شائكة عن ذى قبل بسبب تلك الأحداث الدولية الجسام . . . ولكن هذه الأخطار كانت كأنها الدافع الأمثل لمحمد فريد على السير قدماً فى تلك الطريق لبلوغ ما يصبو هو إليه ، وما يصبو إليه شعب مصر فى أن تصبح « مصر للمصريين » .

أما إشهاده العالم على تصميمنا هذا فكان الخطوة الأولى فى مواجهة تركيا ومواجهة ألمانيا بما اعتزمه هو واعتزمه شعب مصر من كفاح لنيل حريته ، وأن الحرب ستكون شاملة يستخدم فيها كل سلاح ، لا لطرد البريطانيين من مصر فحسب ، بل للقضاء على كل فكرة استعمارية تجول فى خاطر المهيمنين على شئون ألمانيا ، أو شئون تركيا نحو بلادنا .

ولم يكتف محمد فريد بهذا النداء الذى أذاعه على الملأ ، بل قدمه بوصفه رئيساً للحزب الوطنى المصرى ، إلى سفير إمبراطور الألمان لدى الباب العالى إذ ذاك . ثم سارع إلى البارزين من وزراء الدولة العلية العثمانية ليبلغهم أنه والمصريين أينما كانوا وجميع أفراد الشعب المصرى ، سيؤازرون حكومة الآستانة إذا ما قطعت على نفسها عهداً بأن تسلم مصر لأبنائها حين يظفر الجيش العثمانى بطرد البريطانيين من مصر . وتأكيداً لهذا أبلغ محمد فريد أنور باشا طلب تطوع غالبية المصريين المقيمين فى إستانبول ، وفى مقدمتهم طلبة المدرسة الحربية ، ليكونوا فى مقدمة الجيش الذى اعتزم طرد البريطانيين من مصر .

* * *

وبعد تسويف ولأى استجابت ألمانيا كما استجابت تركيا لمطالب محمد فريد ، وأيدته كل من الدولتين فيما إليهما أعلنه . . . وكان ذلك بدء صفحة جديدة تكتب فى تاريخ كفاح مصر ضد الاستعمار . وظننا نحن أن وراء ذلك خيراً كثيراً لدعم ثورتنا المسلحة التى يعد قائدنا لها عدتها . أما هو فلم يزد عن الابتهال إلى الله فى أن يحقق ظننا .

وبدأ للتو فى تنظيم ضروب مشاركة المصريين المقيمين فى تركيا أو الوافدين عليها من إنجلترا وفرنسا وغيرهما ، ليأخذ كل منهم مكانه فى ميدان الكفاح ضد الاستعمار البريطانى فى مصر . وما إن رسم لنفسه الخطط وآمن بنفعها وصلاحيتها لتحقيق الهدف الأعلى : « استقلال

مصر استقلالاً تاماً » حتى أطلع الوزراء البارزين فى حكومة إستانبول عليها .

والحق أنه لم يكن هناك خلاف كبير على تنظيم تلك المشاركة من ناحيتها العسكرية البحتة . والذى أعنيه إمكان تطوع المصريين من طلبة المدرسة الحربية فى تركيا وتطوع غيرهم من طلبة الطب المصريين فى إنجلترا وفرنسا وغيرها ، بل وتطوع عدد من أعضاء الحزب الوطنى وغيرهم ممن كانوا يقيمون يومئذ فى تركيا ، وضمهم إلى مختلف منظمات الجيش الذى عهد إليه بطرد البريطانيين من مصر — وذلك بعد تدريبهم تدريباً يؤهلهم للعمل الذى سيضطلعون به .

ولكن كان هناك أكثر من خلاف على أصول العمل لإثارة المصريين وإعدادهم للقيام بثورة مسلحة ضد جنود الاحتلال البريطانى فى الوقت الذى يهاجم فيه الجيش العثمانى الجيوش البريطانية فى منطقة قناة السويس .

غير أن الخلاف بين وجهة نظر محمد فريد ووجهة نظر الدولة العلية العثمانية على عدد من المسائل المتصلة بالسياسة العليا لتلك المشاركة أخذ يبدو مخيفاً من وراء ستار منذ الأسابيع الأولى لسنة ١٩١٥ . ولا يكاد الخلاف يومئذ يستبين حتى يعود ليستخفى . يومئذ قامت الشبهات أيضاً حول نوايا الأتراك تجاه مصر وتجاه الثوريين المصريين فى تركيا وغير تركيا ، شبهات إذا انضمت إلى بعض الوقائع حجبت ما قطعته تركيا على نفسها من وعد لرد مصر إلى أهلها إذا ما قدر للجيش العثمانى أن يطرد البريطانيين من مصر .

وفى تلك الأثناء أيضاً وقعت معركة قناة السويس ٤—٥ من فبراير ١٩١٥ . ويرجع الفضل إلى بعض المصريين فى انتشال الروح المعنوية للجنود العثمانيين ، قبيل الهجوم بساعة أو بعض ساعة — وكانت قد هبطت إلى الحضيض وتفانى المصريون المتطوعون فى ذلك الجيش فى أداء واجبهم نحو وطنهم ، واستشهد منهم من استشهد ، ورجع الذى عاد منهم إلى إستانبول بخبرة أشعلته التهاباً يدفعه إلى خدمة وطنه وفق ما قد يرسمه هو لنفسه ، لا وفقاً لما ينفذه كفرد فى جيش لبلد غير مصرى ، مهما أخذ ذلك البلد على نفسه من مواثيق وأيمان لنصرة مصر .

ووجدنا محمد فريد ثانية فى إستانبول يدعو إلى الرأى نفسه . وقد انبسطت أساريره عند ما سمع أن رأيه هذا يكاد يكون صدى لما فى نفوسنا . سمعه فى إحدى أمسيات شهر مايو لسنة ١٩١٥ ، وعجب كيف ننتهى إلى هذا الرأى . فأحيط علماً بتفاصيل تخاذل الجنود العثمانيين قبيل بدء معركة قناة السويس إزاء الإسماعيلية ، وكيف أن روح الجنود المعنوية كانت فى الدرك الأسفل ، وكيف أن القيادة الحربية العليا لم تكن فيما بدا لنا جادة فى وضع خطة محكمة لطرد البريطانيين من مصر ، فضلا عن تنفيذها .

وكيف أن القواد الأتراك والألمان على السواء لم يحسبوا عواقب تراجع الجيش التركى فى نفوس الشعب المصرى ، وكذا نرى الحسرات ترتسم على وجه محمد فريد ، وساورتنا الهموم . . .

وسرعان ما اختفت حسراته واندثرت همومنا حين حزم أمره وقال :

— « دعونا مما فات . فالموقف يتطلب مواجهة المستقبل وإنى أؤيدكم فيما ذهبتم إليه من وجوب العمل اعتماداً على أنفسنا فقط ، لا اعتماداً على مشاركة غيرنا لنا . بل لى أن أصارحكم ، وقد عرفت من الأمر أكثر مما تعرفون ، بأنى أدركت من قبل ، هذه الحال التى صرنا إليها . وأدركت حرج الموقف ومشقة الطريق وخطر المصارحة بما ننتوى عمله . ومع ذلك فقد نستطيع فى الأيام المقبلة أن نفعل شيئاً » .

بهذا الأمل وعدم الرضا بالهزيمة كان يحيا محمد فريد كما كان يحيى فى نفوسنا الآمال لنستخلص الحرية والاستقلال التام لمصر وطننا العزيز ، ولم ينس أن يؤكد لنا أن ذلك ليس ببعيد .

وسعت حيلة محمد فريد حمل وزراء الدولة العلية العثمانية وقتئذ على أن يتقبلوا منه نهوضهم بتهيئة كل أمر للثوار المصريين من طلبة المدرسة الحربية التركية ، بعد أن يرتدوا مسوح الأبرياء من كل ما هو عسكرى ، ليسافروا إلى مصر عن أى طريق يختارونه لكى يؤدوا ما يستطيعون أداءه من مهام يتطلبها الموقف بعد أن ضاق بهم ميدان العمل فى الجيش من أجل مصر .

* * *

بعث محمد فريد بهؤلاء الثوار من الشبان إلى مصر ، والأمل يحدوه فى أن يكون على أيديهم بعث روح الثورة المسلحة ضد الاستعمار البريطانى ، فتشتعل دون ماحاجة إلى معاونة الأتراك أو الألمان . ولكن إستانبول كانت يومئذ بؤرة للجاسوسية الدولية . وكانت مصر قد وضعت تحت الحماية البريطانية ، وتولى البريطانيون فيها ، فيما تولوه كل أمر يمس أمن البلاد . وأحكموا الرقابة عليها . وما كادت تصل باخرة تحمل نفراً من هؤلاء الثوار حتى يزج بهم فى حراسة الجنود البريطانيين إلى المعتقلات ليبقوا فيها ، حتى انتهت الحرب العالمية الأولى أو قاربت نهايتها .

وبقى محمد فريد فى إستانبول منذ أواخر سنة ١٩١٥ مع نخبة صغيرة من الوطنيين المخلصين يتحمل فى أناة وصبر وجلد نتائج مأساة الأتراك وكذب وعودهم له . ورأى كيف تعمدت الوزارة التركية تعيين وزير بحريتها قائداً عاماً لتلك الحملة على مصر ، لأنه كان أرعن وأشد الوزراء بطشاً ، ورأى كيف كان وزير البحرية التركية يطيح يومئذ برؤوس زعماء العرب ممن طالبوا باللامركزية . ورأى كيف كانوا يقربون إليهم « عباس حلمى الثانى » خديوى مصر الأخير ، الذى حارب الحركة الوطنية المصرية ومالأ الاستعمار البريطانى فى أكثر سنى حياته . ورأى كيف كان وزير بحرية تركيا يتفاخر بقوله : « إننى أعرف أغلب رجالات الحزب الوطنى المصرى مذ كنت أعيش فى المنفى . هؤلاء جميعاً ستعرف رقابهم المشانق التى ستنصب لهم فى ميدان الأوبرا حالما أدخل القاهرة . إنى أعرف عن يقين أن هؤلاء جميعاً يريدون أن يقتطفوا ثمار كفاحنا » . ورأى كيف كان برنامج المشاركة الذى وضعه ، وأمنت عليه الوزارة التركية قد ضرب به عرض الحائط .

رأى محمد فريد كيف كان كل هذا ، وغيره الكثير ، يجرى بين سمعه وبصره ولا يستطيع له رداً .

رأى كيف كان حقد الأتراك عليه يشتد فى كل مرة يرفض لهم فيه طلباً قد يمس ، ولو مساً رفيقاً ومن بعيد ، سيادة مصر أو استقلالها أو حريتها .

رأى ذلك كله فصارح الوزراء الأتراك به ، واحتج عليه جملة بعد أن كان قد احتج عليه تفصيلاً فى حينه . كذلك أفاض فى الاحتجاج على نكثهم العهود التى قطعوها على أنفسهم إزاء مصر ، وضربهم بميثاقه ، الذى ينظم المشاركة فى العمل لتحرير مصر ، عرض الحائط .. وراح إلى السفير الألمانى ، ولم تمنعه صداقته له من أن يسمعه مثل ذلك القول الذى جابه به الوزراء الأتراك . وزاد عليه ، أن الواقع وحقيقة الأمر تقضى بأن تشترك ألمانيا فى تحمل نتائج أعمال تركيا ضد الحركة التحررية المصرية — إذ كانت السياسة العسكرية التركية من وضع القواد الألمان . ثم رجع إلى بيته وقد ضاقت به الحيل بعد أن ضيق الأتراك عليه كل السبل .

وذات صباح جاءه من الأتراك من يسعى إليه خفية لينبئه بأن وزير الداخلية التركية قد أعد أمراً للقبض عليه تمهيداً للقصاص منه — وقد يكون ذلك القصاص الإعدام ، والذى حال دون تنفيذ ذلك حتى اليوم عدم استكمال موافقة بقية الوزراء على هذا الذى بيت له .

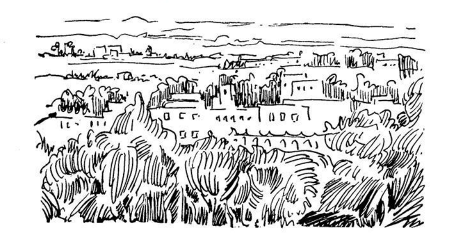
ورأى محمد فريد أن يتأكد من صدق الرواية فعرج على صديقه السفير الألمانى ، الذى أبقاه فى ضيافته إلى أن تأكد الخبر ، فأبرق لساعته إلى برلين يستشيرها فى

الأمر وقد خاف أن تثور مصر والعالم العربى بل والعالم الإسلامى ضد تركيا وضد ألمانيا إذا ما ذاع أن محمد فريد قد مس بسوء — ولا شك أن البريطانيين سوف يستغلون ذلك لمصلحتهم . وما هى إلا ساعات معدودات حتى كان محمد فريد وبصحبته سفير ألمانيا — وعلى مرأى ومسمع من رجال الحكومة التركية — مستقلاً القطار إلى برلين ، لينزل ضيفاً فيها على حكومتها ، له حرية التصرف فى كل ما يقول ويفعل فى سبيل محاربة الاستعمار البريطانى ، وله تلك الحرية كاملة فى اختيار سبل تحقيق أهدافه : الحرية الكاملة والاستقلال التام لمصر .

غير أن الأحوال السائدة آنئذ فى العالم ، وبخاصة تلك التى شهدتها الشهور الأخيرة من الحرب العالمية الأولى كانت قد حالت بين محمد فريد وبين الاتصال بمصر على الوجه الذى يتمناه . ورغم أن الثورة المصرية المسلحة التى قام بالإعداد لها لم تكن قد بعثت إلى الوجود بعد ، فإنه كان يراها قريبة ، ويؤمن بقرب انبثاقها من أرض الوطن . . . على الرغم مما كان يعلمه حق العلم بأن الحرب قد قضت على تلك الطبقة من الثائرين الشبان الذين كانوا قد أعدوا من قبل لتولى قيادة الثورة ، نعم قضت عليهم بالاستشهاد والتشريد والاعتقال والمراقبة !

والحق أن الوقت لم يتسع لمحمد فريد ليخرج طبقات من الثوار ، لتحل طبقة محل أخرى إذا ما عوقت الأولى عن العمل . ولم يكن تنظيم العمل الجماعى قد توطد بحيث تحل هيئة محل أخرى إذا ما أصيبت بما يحدّ من نشاطها . ومع ذلك فقد صبر محمد فريد وثابر ، ولاقى ما لاقى من اضطهاد وتعذيب وآلام فى سبيل إعداد الثورة المسلحة ، وتهيئة أسباب العمل على تنظيمها وإشعالها . وقد أنفق فى ذلك من جهده وصحته وماله حتى لم يبق من ذلك كله شىء . وكان بهذا قرير العين مؤمناً بأن الثورة المسلحة آتية لا ريب فيها .

وبعد ، فإننى أشهد أن محمد فريد دعا إلى طاعة ربه بخدمة أمته ، وقهر أعداءه جهاداً لوطنه . لا يثنيه عن ذلك اجتماع على توهينه ، أو التماس إلى إطفاء شعلة وطنيته ، رحمه الله وأنزله منازل المجاهدين الأبرار .



الفن المصرى

إدراك القانون

بقلم الأستاذ حامد سعيد

نلاحظ إذا تأملنا بعض الرسوم القديمة من عصر ما قبل الأسرات مثل « لوحة الملك نارمر » — أن الطابع المصرى لم يكن قد تميز بعد ؛ فمن الجائز أن تقبل هذه اللوحة بالذات كمثال من فن قريب من الفطرة جميل ، وليس من الضرورى أن يكون مصريا .

وإذا انتقلنا إلى أثر آخر مثل « لوحة الملك الثعبان » فإنا نجد أن الطابع المصرى صريح فيها ومتبلور وجميل .

وبالتأمل والمقارنة نجد أن الفارق بين اللوحتين « لوحة نارمر » و « لوحة الثعبان » هو غياب عامل هامٍّ من الأولى نسبيا ، وتوافره بدرجة كبيرة فى الأخرى ، وهذا العامل الهامٌّ هو ما نشير إليه بالجمال الهندسى ، أو الجمال الرياضى ، أو موسيقية النسب .

* * *

والرياضة هى تلخيص لمنطق الأشياء وصفاتها عن طريق العدد .

ويتجلى الإدراك الرياضى فى « الحس الموسيقى » ، وفى « الوعى العلمى » ، كما يبدو للعيان فى أعمال الفن التشكيلى .

وربما لا يوجد فى حضارة من الحضارات علم رياضى ذو قيمة ممتازة ويتوافر لها فى الوقت نفسه وعى رياضى مرهف يتجلى فى أسلوب من أساليب الفن .

ومصر من أقدم البلاد التى أدركت البداية فى علوم الرياضة ، وبلغت القمة فى الجمال الرياضى ، ومثلته قائماً تحفٌّ به سكينة رائعة فى أعمالها الفنية التشكيلية الكثيرة ؛ فقد حملت الفنون التشكيلية أكبر نصيب من فيض النفس المصرية فى دائرة الفنون .

وقد نما الوعى الرياضى فى هذا العصر فى الناحية العلمية بدرجة لايضاهيها نموٌّ رياضى علمى لأية حضارة أخرى . وربما فسر هذا بعض التفسير اهتمام الحضارة المعاصرة بالفن المصرى ؛ لأن النفس تتجه إلى الاهتمام بما له رنين فى أعماقها ، وفى النفس المعاصرة حنين إلى عالم الرياضة يتكشف فى ظواهر متعددة مختلفة فى العلم والفن والصناعة والحياة .

* * *

ولا شك أن « لوحة الملك نارمر » لوحة جميلة عظيمة التأثير فى النفس ، ولكنها تكاد تخلو نسبياً من تلك الصفة الخاصة التى تدخلها فى عالم الجمال الرياضى ، فى حين نرى الفن المصرى فى نتاجه من « لوحة الملك الثعبان » إلى الأهرام والكرنك والدير البحرى وما تحفل به هذه الآثار العظيمة وغيرها — يتحرك فى فلك الجمال الرياضى ؛ حتى إذا حلَّ العصر الإغريقى الرومانى أوشكت هذه السمة الهامة أن تزول مرة أخرى من النتاج الفنى فى مصر لتعاود الظهور إلى حدٍّ ما فى الفن القبطى ، ثم تتجلى فى أكمل صورها فى الفن الإسلامى. ولما بدت طلائع العصر الحديث انحسرت مرة أخرى ، وبات ظهورها فى الفن من أندر الظواهر ، وهى السمة الهامة القوية فى الممتاز من النتاج الفنى المصرى فى عصور القوة والازدهار .

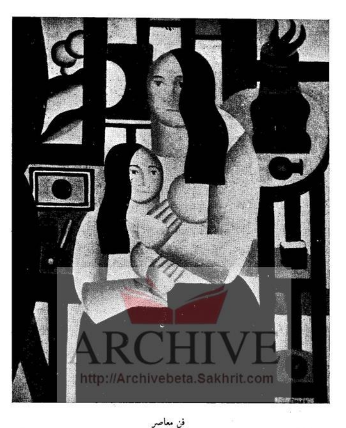
* * *

وإذا تناولنا بشىء قليل من الدرس « لوحة الملك الثعبان » أو أى مثال من نتاج مصر الفنى تتوافر فيه



لوحة الملك الثعبان ←

لوحة الملك نارمر ←



فن معاصر

الجانبين ، نحدد تارة ، ونشير تارة أخرى ؛ وينبغى ألا تفوتنا ثمرة النظرة الصامتة فى حينها .

إن الإحاطة بما يحتويه العمل الفنى لا تتيسر عن طريق الوصف ؛ لأن العمل الفنى نفسه هو الوصف الوحيد الممكن لما يحتويه .

والنظام فى صميم الأشياء والعالم أبداً مظهر القانون .

هذه هى عقيدة « العلم » و « الفن » و « الدين » فى أسمى حالاتها ، وما يبدو لنا من فوضى هو دليل الاختلاف بين الغرض الذى نحب وبين ما تسعى إليه الأشياء . وليس هذا الاعتقاد الكامن خلف « العلم » و « الدين » و « الفن » بقابل للإثبات الواضح لمن لا يتضح له هذا الاعتقاد . ووراء كل إثبات اعتقاد غير قابل للإثبات .

وفى هذه « اللحظة النفسية » التى أشرنا إليها ، لحظة الإدراك لوجود القانون وراء كل الأشياء — يكمن مصدر الإحساس بالسكينة الكبرى فى الفن الرفيع حيث يرتفع اطمئنان النفس فوق التقلبات ، فتتقابل الأضواء فى الوحدة الكبرى ، وتختفى المبالغة لوجود الكل .

هذه « اللحظة النفسية» العابرة فى شعورنا هى اللحظة الكبرى التى سجلها الفن المصرى فى أتم أعماله .

يومِيّاتُ سائح

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

جوٌّ عابس مكفهر ، أدنى شيء فيه إلى الابتسام هذا البرق الخاطف ، وأقرب ما فيه إلى الضحك رعد قاصف ، أو ريح عاصف . ما برحت السماء تمطر ، ثم تمطر ، فى الليل وفى النهار ، وفى البكرة والعشية ، حتى لم يبق فى الجو قطرة واحدة من الماء . وعند ذلك تنحنحت السماء وأخذت ترسل الثلج قطعاً صغيرة ناصعة البياض ، تتساقط باطراد كأنها لؤلؤ بارد ، فلم تلبث أن ملأت الشوارع والأزقة ، وكَوَّنت بساطاً سميكاً من الثلج ، لا بد لك أن تخطو فوقه باحتراس شديد وأنت تردد قول القطامى :

قدِّر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا زلقاً عن غرة زلجا

لقد كنت أتوهم قبل أن تحكم على ظروف الحياة بالاغتراب عن الوطن العزيز الأمين — أن أقصى ما يعانيه المرء من البرد هو درجة الصفر . . . أليست هى الدرجة التى يجمد عندها الماء ؟ فكيف لا تكون هذه هى الدرجة التى بلغت من البرد أرذله ، ومن الزمهرير أقصاه ؟ ذلك كان وهمى حتى قضت الأسفار بالعيش تحت الأصفار ، حيث ينخفض المقياس إلى ما تحت الصفر بدرجات عشر أو عشرين ؛ هنالك جعلت أشتهى درجة الصفر وأتمناها ، وأراها نعمة يسجد لها المسافر شكراً ، وأناجيها بقول الشريف الرضى :

يا رتبة الصِّفر ، إلا عدتِ ثانية
سقى زمانك هطّال من الديم !

وبعد فما الذى يدعو رجلا يتمتع بكل قواه العقلية ، أو بجزء لا بأس به منها — إلى أن يشد الرحال فى منتصف شهر شباط ، والبرد ما برح شديداً فى أوروبا وأمريكا الشمالية ؟ وماذا عسى أن أحقق فى مثل هذا الفصل البارد من الفوائد الخمسةِ التى قالوا عنها : « وسافر ففى الأسفار خمس فوائد » ؟

إن وجهتى مدينة نيويورك لأشهد فيها الدورة التاسعة للجنة « مكافحة التعصب والتفرقة وحماية الأقليات » . والمفروض فينا أننا لجنة من الخبراء ، عددنا اثنا عشر عضواً ، نجتمع مرة كل عام فى رحاب الأمم المتحدة وعلى نفقتها . وفى الأعوام الثلاثة الماضية كنا نجتمع فى يناير ، غير أن الانتخابات الأمريكية التى أعادت الرئيس أيزنهاور إلى قواعده سالماً أخرت أعمال الأمم المتحدة كلها ، ومنها لجنتنا العزيزة . وأرجو أن أقنع القارئ فى سياق هذا الحديث بأن هذه الرحلة كانت بالرغم عن البرد والصقيع لا تخلو من فائدة وإن لم تكن من الفوائد الخمس التى حدثنا عنها الشاعر .

حوار فى بنك

قبل السفر بيومين ذهبت إلى البنك ، لأشترى منه بعض العملة الأمريكية للنفقات فى أثناء الطريق أسوة بما هو متبع فى مثل هذه الظروف . . . فوضعت على وجهى أحسن ابتسامة أدخرها لمثل هذه المناسبات ، ويممت شطر جناح العملة الأجنبية ، فدار بينى وبين البنك الآتى :

— عم صباحاً أيها البنك العزيز .

— . . . . . (لم ينبس البنك بكلمة)

— جرت العادة أيها البنك الكريم حين أتغرب عن الأوطان فى طلب العلا أن تمنحنى بعض العملة الأمريكية ذات اللون الأخضر ؛ لأنفقها فى أثناء السفر ، بما قيمته عشرون جنيهاً مصر يا فقط لا غير ، تستقطعها أيها البنك الفاضل من حسابى الجارى ، كما تستقطع أيضاً ضريبة العشر لحساب الحكومة المصرية المبجلة .

— إن ما لدينا من العملات الأجنبية قليل .

— إنى أقدِّر هذا حق قدره ، ولولا الحاجة القاسية والظروف القاهرة و . . . . .

— وأين جواز سفرك ؟

— هاك الجواز أيها البنك العزيز !

فازداد البنك تقطيباً حين ناولته الجواز . . . وأظنه كان يتمنى لو أنى نسيته ؛ حتى يجد عذراً للرفض أو الإرجاء . فلما رأى الجواز بين يديه جعل يقلب صفحاته عكسا وطردا ، ويقول : « ولكن أين تأشيرة الخروج من مصر ؟ » فأريه إياها باحتشام وابتسام ! فيزداد غيظاً وتقطيباً ، ثم ينعم النظر فى الجواز بشدة كأنما يكشف عن أمر خطير ، ويقول : « ولكن هذه إشارة دخول فى سويسرة : فلماذا تريد عملة أمريكية إذا كنت ذاهباً إلى سويسرة ؟ » فأكدت له أننى ذاهب إلى أمريكا مارا بسويسرة ، وأطلعته برفق على تأشيرة الولايات المتحدة التى فى أمريكا الشمالية . وكانت معى خريطة طبعت حديثاً استحضرتها لأثبت له إذا اقتضى الأمر أن الولايات المتحدة لم تزل على سطح الكرة الأرضية ! ولكنى لم أجد داعياً بعد لإطلاعه عليها . . .

أخذ البنك بعد ذلك يحك رأسه بأصابع اليد اليمنى ، وهذا معناه أن الفرج قد اقترب ؛ ثم قال : « أيكفيك ما قيمته عشرة جنيهات ؟ . قلت له : « يكفينى جدا » والحمد لله الذى لا يحمد على عشرة جنيهات سواه .

وهكذا انطلقت من البنك العزيز وقد انتفخ الجيب بثمانية وعشرين من دولارات الولايات المتحدة ؛ لأنفقها ما بين القاهرة ونيويورك . . .

فى مدينة زوريخ

كانت مطيتى فى رحلتى طائرة سويسرية ، أو بعبارة أصح كانت طائرتين ؛ الأولى تحملنى إلى زوريخ وتتركنى هناك ليلتين حتى تجىء الطائرة الأخرى ، فتحملنى إلى نيويورك ؛ وربما يتساءل القارئ : كيف استطعت أن أعيش فى سويسرة يومين وليلتين ، وليس معى سوى عشرة جنيهات ؟ والرد على هذا أن شركات الطيران جميعاً تتكفل بجميع نفقات الإقامة طوال مدة الانتظار بين الطائرات بشرط ألا تزيد على يومين وليلتين . و « الشاطر » من الركاب يرسم خطة سيره بحيث يتخلف يوماً أو يومين فى مكان يود أن يزوره ، ويستريح إلى الإقامة فيه .

ولا شك أنى كنت شديد الرغبة فى رؤية زوريخ بعد طول غياب عنها . وإلى إمتاع البصر بأحيائها القديمة الجميلة ، ولكن لم تكن بى أقل رغبة فى المطر المنهمر ، والثلج المتساقط الذى أتحفتنا به . وقد علمت من صاحب الفندق أن الجو كان صحواً والشمس مشرقة والهواء معتدلا فى الأيام السابقة ؛ حتى إذا ما نزلنا فى رحابها تبدل الجو ، واكفهرت السماء ، وسبحان مغير الأحوال !

ومع ذلك فإنى انطلقت أسعى فى أرجاء المدينة بعد أن أتحفنى صاحب الفندق بمظلة تحمى الرأس من المطر إذا همى ، والثلج إذا هوى .

ويعلم القارئ أن زوريخ هى أكبر مدن سويسرة كلها ، وأن سكانها من السويسريين الألمان . وكثيراً ما أصغى إلى كلامهم فى لهجتهم السويسرية ، فلا أكاد أفهم من كلامهم شيئاً . ولقد صحبت الألمان وعاشرتهم زمناً حتى عرفت لغتهم معرفة حسنة ، ولكن السويسريين الألمان لهم لغتهم الخاصة حين يخاطب

بعضهم بعضاً ، وليس من السهل على من لم يعاشرهم زمناً طويلا أن يفهم عنهم .

وهذه الألمانية السويسرية لغة يتخاطب بها الناس فى شئونهم المختلفة ، ولكنها ليست لغة كتابة أو خطابة : فأعضاء المجالس البلدية أو النيابية يتكلمون فى مجالسهم بلغة ألمانيا إذا خطبوا أو تناقشوا ، فإذا خرجوا إلى الشارع تخاطبوا باللهجة السويسرية. ومحرر الجريدة يحبر مقاله بالألمانية الفصحى ، وإذا رأى ما يدعو للكلام مع زملائه من المحررين خاطبهم باللهجة السويسرية ، والفتيان فى المدارس لا يتعلمون سوى الألمانية — لغة ألمانيا — وهى لغة الدراسة والمحاضرات ، ولكن إذا دار حديث بين أستاذ وتلميذه بعد الدرس استخدمت فى ذلك اللغة الألمانية السويسرية . وإذا عاد التلميذ إلى بيته ونسى ، فخاطب أباه بالألمانية الفصحى زجره أبوه وقال له : ماذا تعنى بمخاطبتى بلغة ألمانيا ؟

وصفوة القول أن فى الإقليم الألمانى بسويسرة وسكانه يتجاوزون ثلاثة أخماس القطر كله — حالا تشابه ما لدينا فى مصر وغير مصر من الأقطار العربية ، حيث الفرق واضح بين لغة الكلام ولغة الكتابة . وقد أكد لى أحد المستشرقين السويسريين الذى يتقن العربية الفصحى والعامية أن الاختلاف بين العامية والفصحى عندنا يحاكى تماماً ما بين الألمانية واللهجة السويسرية من الاختلافات ؛ ولذلك فكل ما هنالك من فرق بيننا وبينهم أننا أثرنا حول هذا الموضوع ضجة ، وجعلنا منه « مشكلة » . وظهر بيننا من ينادى بالتحول إلى العامية ، فياليت هؤلاء القوم عاشوا فى سويسرة الألمانية وتدارسوا لغة الكلام فيها ولغة الخطابة والكتابة ؛ لعل هذا يرد إليهم قليلا مما ضاع من صوابهم ، ويشفيهم مما بهم من مركب النقص !

على متن الريح

ولم ألبث أن ركبت من زوريخ تلك المطية العظيمة التى تحملنى إلى نيويورك : وقد قيل لى : إنها طائرة جديدة من طراز فخم جديد. وقد كان كل شىء فيها يبدو جديداً ماعدا شكل المضيفة التى كانت لا تختلف فى شىء عما ألفنا رؤيته فى نظائرها سواء من حيث الطول أو العرض ، ودرجة بروز الأنف ، وانحدار القفا ، وتصفيف الشعر ، والابتسامة التى جاءت نتيجة مرانة طويلة ؛ ومن المعروف أن لدى شركات الطيران مصانع تخرج أولئك المضيفات من طراز واحد ، لا اختلاف بينهن .

غادرنا زوريخ والساعة التاسعة مساء على أن نصل إلى نيويورك فى التاسعة صباحاً ، يضاف إلى هذه الساعات الاثنتى عشرة — ست ساعات أخرى هى فرق ما بين القارتين : فيكون طريقنا طوله ثمانى عشرة ساعة ، منها ساعة ونصف الساعة نقضيها فى شنن .

وليست شنن هذه بلدة ، بل محطة للطيران فى النهاية الغربية من إيرلندة ، وهى النقطة التى يبدأ منها عبور المحيط الأطلسى ، والركاب يرتاحون دائماً للنزول فى شنن ساعة وبعض الساعة ؛ لأن الإيرلنديين أقاموا فى المطار سوقا حرة تباع فيها البضائع دون أن تجبى عليها ضريبة : فعشاق التدخين يشترون منها سجائر أمريكا بأقل مما يدفعون فى نيويورك ، وعشاق المشروبات يحتقبون هنا بضع زجاجات منها بثمن بخس ، وكذلك نشترى الحلى والساعات وآلات التصوير بالثمن الذى تباع به فى بلادها الأصلية ؛ فمن كان ذا جيب واسع ثقيل — استطاع أن يجد مجالا لاقتناء مايحتاج إليه ومالا يحتاج من تحف وذخائر ؛ والولوع بالشراء يخضع بلا شك لنوازع نفسية عجيبة . . فإن مجرد انخفاض ثمن السلعة يغرى القوم حتى بشراء مالا حاجة بهم إليه . أما أنا فقد تخصصت فى شراء المناديل المصنوعة من كتان إيرلندة المشهور . . وما مررت بشنن إلا اقتنيت منها قطعة أو قطعتين .

وانقضت الساعة بسرعة ، وعدنا إلى طائرتنا لكى

تحلق بنا فى سماء المحيط الأطلسى ، حيث نظل معلقين فى الفضاء بضع عشرة من الساعات ، ولم تكد الطائرة تصعد بنا والنوم يداعب الجفون حتى قيل لنا : إنه لا بد من الانتباه لتلقى الدرس الذى لا بد منه قبل عبور المحيط ، وهو : كيف يلبس كل منا حزام النجاة إذا جد الجد واضطرت الطائرة إلى الهبوط على سطح المحيط ؟ ويتألف هذا الدرس من قطعة تمثيلية قصيرة تقوم بها المضيفة ، فتريناً : كيف يوضع ثوب النجاة فوق الجسم ؟ وكيف تربط أطرافه؟ وكيف ينفخ حتى يغدو كالقربة؟ وبعد أن تنتهى هذه التمثيلية يعتذر لنا القهرمان عن هذا الإزعاج الذى تفرضه الاتفاقات الدولية، ثم تطفأ الأنوار، ويطلب منا أن ننام فى مقاعدنا ، وأن نمتنع عن التدخين وقت النوم . . .

فى نيويورك

كان وصولى إلى نيويورك صباح الأحد ، وعلى الرغم من ذلك فإنى لم أكد أدخل حجرة الاستقبال حتى تسلمت ورقة تنبئ باسم الفندق الذى قدر لى أن أنزل فيه ، وبعد أن قابلت موظفى قلم المهاجرة والصحة اتجهت إلى المكان الذى تفتش فيه الحقائب ، وكان موظفو الجمرك مشغولين لكثرة الوافدين ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى جاءنى أحدهم ، وقال : هل أنت فلان ؟ قلت : نعم ؛ فبادر بإلصاق ورقة صغيرة على كل حقيبة معى ، وقال : هل تبغى حمالا ؟ فقلت : « شكراً ، إن الحقائب خفيفة ! »

قال : تريد سيارة ؟ قلت : كلا ، سأذهب بإحدى السيارات العامة .

ولا بد للقارئ أن يدرك أن معنى هذا كله أن هيئة الأمم المتحدة قد أوصت بى خيراً ، كعادتها فى كل عام. ولذلك نلت تكريماً خاصاً ، ولم تفتش حقائبى . أما رفضى للسيارة والحمال — فقد كان بالطبع توخيا للاقتصاد ؛ وهذا خلق يلازمنى فى العم سام ، حيث لا بد لى أن أجعل كل دولار يؤدى عمل دولارين ، ولا بد من الاقتصاد حتى فى الطعام ؛ لكى يتوافر لدى من النقد الأمريكى ما أشترى به كتباً وهدايا للأمة المصرية . . . أما الطعام وما يتصل به فقد سبق لى أن أكلت فى مصر مقدماً ما يكفينى شهراً أو شهرين ! ناهيك بما يكسبنا الجوع من الرشاقة واللباقة !

* * *

وكان اليوم التالى موعد اجتماع لجنتنا ، فبكرت بالذهاب إلى مبنى الأمم المتحدة ، وجعلت أطوف بأرجائه ، فراعنى ما رأيته فيه ؛ لقد كانت لجنتنا فى الأعوام الماضية تعقد جلساتها بعد انتهاء دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة بأسبوعين أو ثلاثة ، فكانت الدار يسودها الهدوء والاطمئنان ، أما فى هذه المرة فقد امتلأ المكان صخباً وضجيجاً ، وصياحاً وازدحاماً : أفواج تجرى يميناً ، وأخرى تندفع إلى اليسار ، أبواب تغلق ، وأخرى تفتح ، ومئات الأقدام تدب فوق البلاط وفوق البسط المفروشة . فإذا التمست مكاناً تجلس فيه وجدت الكراسى والأرائك تكاد تنوء بمن عليها ! وإذا قصدت المطعم فى غير مواعيد الطعام ألفيتة مزدحماً بالمتسكعين من أعضاء الوفود ، وبالمتهافتين على الجلسات والمؤتمرات ممن لا يمتون إلى الوفود الرسمية بصلة .

وقفت أتأمل هذه الجموع الحاشدة ، وهى تحكى صورة مصغرة لسكان هذا الكوكب ؛ إذ تمر بك الشكول والألوان على اختلاف أصنافها وأنواعها ، والأزياء التى يصر أصحابها لحسن الحظ على التمسك بها هاهنا ؛ لأن مبنى الأمم المتحدة وطن صغير لجميع الشعوب ؛ فلا حرج عليهم أن يتمسكوا بأزيائهم وحللهم ، وكثيراً ما تقرع الآذان عبارات وكلمات فى لغات لم تألفها الآذان ، فلا يجد المرء غرابة فى هذا ؛ لأن هذه الحجرات ملك للعالم كله . يجتمع فيها الشرق والغرب ، ويلتقى فيها البعيد والقريب .

هذه هى الصورة الصحيحة للأمم المتحدة ، وإن

راعني منظرها أول وهلة . . . وما راعني إلا أني أشفقت على لجنتنا الصغيرة ألا يوليها أولو الأمر من العناية ما يمكنها من تأدية عملها . وقد صح بعض ما كنت أخشاه ؛ فاضطررنا لإلغاء جلسة بعد الظهر مرتين ؛ لأن المترجمين يشتغلون فى لجان أخرى . . . ولكن هذا الأمر لم يطل ، ولم نلبث أن رفعنا عقيرتنا بالشكوى زاعمين أن لجنتنا أهم اللجان وأخطرها ، وأنه لابد أن يخصص لها المترجمون وكتاب المحاضر قبل جميع اللجان ؛ وقد كان لهذا الاحتجاج أثره ؛ فجعلنا نعقد جلساتنا فى الصباح والمساء فى أى وقت نشاء .

فى كرسى الرياسة

يبدأ عملنا فى لجنتنا كل عام باختيار الرئيس والوكيل والمقرر ، وفى الأعوام الثلاثة الماضية لم نغير فى الأشخاص الذين اخترناهم ولم نبدل ، ولكن الرئيس تخلف عن اللجنة هذا العام ، فكان لابد من « طقم » جديد .

حضرت إلى اللجنة قبل الموعد المحدود لاجتماعها بدقائق ، وطلب منى ممثل السكرتير العام أن أرأس الجلسة بوصفى وكيل اللجنة فى الأعوام السابقة ، فقلت : إننا الآن بمثابة لجنة جديدة ، ورأيى أن يرأس الاجتماع ممثل السكرتير العام ؛ فأخذ يقلب فى أوراقه حتى عثر على المادة التى تحتم أن أتولى رآسة اللجنة إلى أن ينتخب الرئيس الجديد ، ثم طلب منى أن أتريث قليلا حتى يحضر جميع الأعضاء ، ثم عاد إلى بعد قليل ، وطلب إلى أن أفتتح الجلسة ، فافتتحتها بعد الموعد المحدود بربع ساعة قضاه الأعضاء فى التشاور والتهامس ، ولم يخاطبنى فى أثناء ذلك أحد بشىء .

ولم أكد أفتتح الجلسة حتى تكلم أحد الأعضاء فرشحنى لرياسة اللجنة ، ثم رُشح عضو فرنسى ليكون وكيلا لها ، وأستاذ من الفلبين ليكون مقرراً للجنة ، فلم أجد فى ذلك شيئاً من الغرابة ؛ لأن التوزيع الجغرافى يقتضى أن توزع هذه المناصب بين رجال من من مختلف الأقاليم ، ولم يدر بخلدى قط أنه كان هناك جدال حول اختيارى للرياسة ؛ لأنه قد سبق أن طلب إلى أن أقبل رياسة اللجنة فى العام السابق ؛ فلم أقبل ؛ لأنى لم أجد ما يبرر تغيير الرئيس .

ومع ذلك فقد علمت فيما بعد أنه قد دار جدال حول رآسة اللجنة ، وقيل فى أثناء ذلك الجدال : إنه لا ينبغى لمصرى أن يرأسها ! وقد جرى هذا الجدل قبل حضورى بأسبوع أو أسبوعين ، وكان يحمل رايته أشخاص من بعض الوفود الأوروبية ، ولم يكن لكلامهم تأثير يستحق الذكر لدى جل الأعضاء فى اللجنة .

ونشرت جريدة نيويورك تيمس النبأ فى اليوم التالى بعنوان « مصرى ينتخب » وذكرت أن أعضاء اللجنة قد اختاروا بالإجماع هذا العضو المصرى لرياستها ! غير أن جريدة أخرى تدعى « نيويورك بوست » ذهبت إلى أبعد من هذا ، وأتت بعبارة تبعث على التسلية ؛ فبعد أن تكلمت عن شئون الشرق الأوسط وأعمال الصهيونيين . قالت :

« ولكن لعل أكبر ما يبعث على السخرية من التطورات الخاصة بالشرق الأوسط أمر لم يحدث لا فى القاهرة ولا فى تل أبيب ، بل هنا فى الأمم المتحدة ؛ فقد تم هنا فى هدوء وسكون بعد أسابيع عدة من المفاوضات السرية انتخاب مصرى ! وهو محمد عوض وهو بالطبع من أنصار ناصر ؛ ليكون رئيساً للجنة الأمم المتحدة لمنع التفرقة والتعصب وحماية الأقليات !

« وكان منطق الأمور يحتم على الولايات المتحدة أن تجهر أمام الأقليات المضطهدة فى العالم أننا لا نستطيع أن نسمح لمصرى فى هذا الوقت العصيب أن يتقلد منصباً عالميا خطيراً كهذا ! »

هذا ما ذكره أحد كبار محررى هذه الصحيفة الصهيونية المعروفة ، وليس فيما قاله ما يثير الدهشة ، وإن كان باعثاً على الكثير من التسلية ! وقد أعجبنى من

الكاتب وصفه لرياسة اللجنة بأنها منصب عالمى خطير.. ولا شك أن فى هذا ما يشحذ الهمم ويشد عزائم الأعضاء حتى يقبلوا على عملهم بجد ونشاط . . وقد عجبت لقوله : إنه كانت هنالك مفاوضات سرية دامت أسابيع عدة ؛ ولا أدرى : من الذى قام بهذه المفاوضات ؟ وكل الذى أعلمه علم اليقين أن مصريا واحداً لم يشترك ، ولم يكن يهمه أنه يشترك فى مثل هذه المفاوضات ، كما أعلم علم اليقين أيضاً أن الكذب الصهيونى بحر لا أول له ولا آخر !

وقد علمت فيما بعد أن هذه الصحيفة لم تكن الوحيدة التى تألمت لانتخاب العضو المصرى رئيساً للجنة « منع الاضطهاد والتفرقة وحماية الأقليات » ؛ لأن الصهيونيين فى أمريكا وتأثيرهم شديد فى الصحافة — كانوا دائماً شديدى الاهتمام بهذه اللجنة ، يريدون منها دائماً أن تتخذ قرارات لمصلحتهم ، ويحاولون أن يجعلوها أداة لشد أزرهم وتأييدهم . ومع أن سلطانهم كبير فى الولايات المتحدة ولا سيما فى ولاية نيويورك ، فإن هذه اللجنة فى نظرهم مكانة خاصة فى الأمم المتحدة ، وهى ترفع قراراتها إلى لجنة حقوق الإنسان ، ثم إلى الجمعية العامة نفسها إذا لزم الأمر .

وقد أخذت الهيئات الصهيونية فى حملاتها الكاذبة تتهم مصر باضطهاد اليهود وإرغامهم على المهاجرة من مصر ، وازدادت هذه الحملات شدة فى فبراير ، وفى وقت انعقاد اللجنة ؛ لذلك كان اختيار مصرى لرياستها فى نظرهم ، وفى هذا الوقت نفسه — عملا باعثاً على الألم ، وبخاصة أن من بين أعضاء اللجنة ممثلا لكل من الولايات المتحدة وإنجلترة وفرنسا ، وأن واحداً منهم على الأقل يدين بالدين اليهودى .

وبعد فليس من التواضع أن أزعم أنى أزهد الناس فى رياسة اللجان ؛ لأن هذه الرياسة تلزمنى أن أحضر كل اجتماع ، وتلقى علىّ الكثير من التبعات بحيث يستحيل علىّ أن أبرح دار الأمم المتحدة إلا لكى أعتكف فى غرفتى بالفندق ، ولكنى فى هذه المرة لم أحاول التهرب من ذلك الترشيح ؛ لأنى كنت أعلم أن فيه بعض الألم لأولئك المرجفين وهذه هى الفائدة التى أردت تحقيقها من هذا السفر فى هذا الشتاء . وإن لم تكن من الفوائد الخمس التى ذكرها الشاعر .

فى يوم الأحد

فى يوم الأحد يتسع الوقت لكتابة بعض الرسائل و « اليوميات » والوثائق الجديدة الخاصة باللجنة ؛ فيعتكف المرء فى غرفته لينعم بهذه الطرائف البهية والتحف السنية . وهناك تحفة أخرى تتحفنا بها الصحف الأمريكية ؛ فهى تقدم لنا يوم الأحد عدداً خاصا يتألف عادة من عدة صحف فى « عدد » واحد . ومع أن من عادة الصحف الأمريكية أن تصدر كل يوم فى جزأين يبلغ مجموع صحفهما بين الأربعين والثمانين ترى عدد الأحد يمتاز بأنه أعظم وأضخم ويشتمل فى الحقيقة على عشر صحف مجموع صفحاتها يتجاوز أربعمائة صفحة ؛ أولها الصحيفة اليومية المألوفة ، ولكنها اليوم أكبر وأضخم ، وتبلغ صفحاتها ١٠٦ ، والثانية مخصصة للمسرح والسينما وأنواع الهوايات ، وتبلغ الستين صفحة ، والثالثة لشئون المال والأعمال ، والرابعة لشئون الرياضة ؛ والخامسة عرض موجز لأهم أنباء الأسبوع المنصرم ، ثم المجلة الأسبوعية الحافلة بمقالات شائقة ، ثم مجلة أخرى عن التأليف والكتب ، ثم صحف أخرى تتناول شئون العقارات والإعلانات المبوبة ، وهلم جرا . .

لا شك أن صحف أمريكا بعامة وصحف نيويورك بخاصة تفوق الصحف ضخامة ودسامة ، ولكنها وياللأسف يعوزها الصدق والإخلاص وقلما تنطق إلا عن الهوى !

ومع ذلك فقد أعجبتنى قطعة فى إحدى صحف المساء لأمريكى يسخر من الإنجليز جاء فيها :

« نشرت جريدتكم الغراء نبأ عن عضو من أعضاء

البرلمان البريطاني يدعى «مليش» يزعم أن الجندي البريطاني يعادل ثلاثة من جنود الولايات المتحدة الأمريكية ؛ ولا بد من كلمة نرد بها مستر مليش إلى صوابه :

إن الإنجليز هربوا، وولوا الأدبار فى فرنسا ، وفى نروج ، وبلاد اليونان ، وإقريطش . وألقى سلاحه واستسلم ٩٥,٠٠٠ منهم فى سنغافورة ! وهيهات لجيش أمريكى أن يبلغ مثل هذا الشأو البعيد !

« وقد سمعنا مراراً أن إنجلترة وقفت تحارب بمفردها . فياليت من يزعم هذا يخبرنى : متى كان ذلك ؟ وأين ؟ إن هتلر لم يرسل جنوداً إلى إنجلترة ، ولكنى واثق أنه لو أقدم على مثل هذا الأمر لاستطاع الجيش البريطانى الجرار أن يقوم بحركة تراجع إستراتيجية بارعة يرتد بها إلى البحر ! . . . »

ميزانية إسرائيل

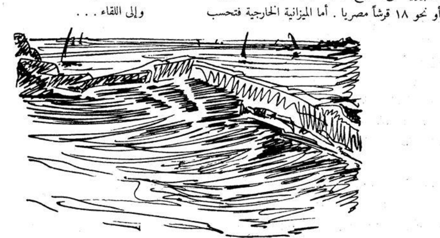
استفدت من مطالعة الصحف الأمريكية أن لإسرائيل ميزانيتين : واحدة داخلية ، والأخرى خارجية ، وكل منهما تبلغ نحو ٨٤٠,٠٠٠,٠٠٠ من الدولارات ، وكلتاهما متداخلة فى الأخرى بطريقة حسابية لولبية . والميزانية الأولى « الداخلية » حسابها بالليرات الصهيونية التى أصبح الجنيه منها يعادل نصف دولار ، أو نحو ١٨ قرشاً مصريا . أما الميزانية الخارجية فتحسب بالدولارات . وهذه الميزانية الخارجية تتألف من إيرادات معظمها يرد من الولايات المتحدة على شكل هبات أو ثمن سندات الدين الصهيونى ، والباقى يجىء من التعويضات الألمانية ، وثمن الصادرات ، ونحو ذلك . . .

ومن الغريب أن هذه الميزانية الخارجية يدخل معظمها فى الميزانية الداخلية ، ولكنها تحسب على حدة ؛ حتى يكون رصيد العملات الأجنبية ظاهرا واضحاً ، وحتى يكون هنالك مجال للتلاعب ! لأن جزءاً كبيراً من الميزانية الخارجية يذهب للدعاية فى الخارج ، ولشراء الذمم التافهة كذمم أعضاء الحزب الديمقراطى فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وللحزب الديمقراطى الأمريكى رئيس فى البرلمان يدعى جونسن ، له كريمة هيفاء رزقت خاطبا فى هذه الأيام ؛ فلم تكد تعلن الخطبة حتى عين هذا الخاطب الذى تخرج فى العام الماضى فقط من كلية التجارة والإدارة فى منصب رئيس خطير فى شركة كايزر للحديد ، وأصحابها من زعماء الصهيونيين ! . . .

ومع ذلك فإن قبر الصهيونيين وسحقهم ليس بالأمر البعيد المنال ، على أن نعمل ولا نتكلم ، وأن نتحد ولا نتفرق ، وأن نركز كل جهودنا لهذا الهدف ، لا تشغلنا عنه أهداف أخرى .

وإلى اللقاء . . .



حضارة الإسلام وأثرها في الحضارة الحديثة

بقلم الدكتور محمد عبد الله دراز

ليس بالمرء حاجة إلى أن يكون مؤرخاً واسع الاطلاع ، ملماً بدقائق الحوادث ، لكى يعرف أن نمو الإسلام وانتشاره ، ثم ثباته واستقراره حيثما حلّ ونزل ، كان حدثاً فذاً ، منقطع النظير فى تاريخ البشرية ، بل كان معجزة من معجزاته .

وليس بالمرء حاجة إلى أن يكون فيلسوفاً عميق الفكرة ، بعيد المقدمات ، لكى يستنتج من هذه الظاهرة العجيبة أن الإسلام لا بد أن يكون قد حوى من عناصر الحق والخير والجمال كل ما تتطلبه الفطر السليمة على اختلاف مشاربها وأساليبها فى الحياة ؛ وأن الحضارات التى نشأت فى ظله فاحتضنها وصانها ، أو التى اقتبسها مما حوله فنماها وأضاف إليها ، ووسمها بطابعه الخاص ؛ كانت لا بد محققة لكل ما تطمح إليه الأمم والشعوب من أسباب القوة والرغد .

* * *

بدأ الإسلام شعاعة من النور السماوى ، هبطت على قلب رجل فرد ، فى عالم كله ظلمات بعضها فوق بعض : ضلالات وأوهام فى العقائد ، انحراف وانحدار فى الأخلاق والعوائد ، فوضى فى المعاملات ، تفكك فى الأسرة ، اختلال فى التوازن بين طبقات المجتمع ؛ السلطان كله للقوة الباطشة ، أو للشهوة الجامحة ؛ ولا سلطان للقانون . . .

وتألبت كل عناصر الظلام ، فى جزيرة العرب ، ومن حول جزيرة العرب ، لتطفئ هذه الشعاعة الأولى من النور . . . ولكن هذه الشعاعة لزمت مكانها (مكة) وثبتت فى قوة وإصرار عشر سنين كاملة ، أمام هذه الزوابع والأعاصير . . . ثم أذن الله لها (بفضل الهجرة إلى المدينة فى سنة ٦٢٢ الميلادية) أن تشتد وتمتد ، وأن تنتشر وتستبحر ، فأخذت تزحف بدورها على جيوش الظلام لتبددها ؛ فلم تمض عشر سنوات بعد الهجرة حتى غمرت بنورها جزيرة العرب كلها . . .

ولم يفارق الدنيا صاحب هذا النور صلوات الله عليه (فى أول السنة الحادية عشرة من الهجرة) إلا بعد أن كان قد فتح لنوره طريقاً إلى خارج جزيرة العرب ، ليبدد ما حولها من الظلمات ، وليكف بأس القوى الشريرة التى تآمرت عليه فى الدولتين العتيقتين : دولتى الفرس والروم . ذلك أنه فى السنة التاسعة من الهجرة قاد بنفسه جيش المسلمين إلى (تبوك) مسارعة إلى صدّ الحملة التى كان الروم قد تأهبوا لها فى الشام ؛ فكانت الهزيمة الأدبية التى لحقت بجيش الروم يومئذ ، حيث لم يجرؤ أن يتقدم لملاقاة جيش المسلمين هنالك ، كانت هذه الهزيمة الأدبية إرهاصاً قريباً لهزيمة الدولتين عسكرياً ، وسقوطهما نهائياً ، فى أول عهد خلفائه الراشدين . . .

ثم تتابعت هزيمة الظلام ، وتدفق نور الإسلام على الأرض شرقاً وغرباً ، فكان ما فتحه المسلمون فى قرن واحد (٦٣٢ — ٧٣٢ م) أعظم وأضخم مما فتحته الدولة الرومانية فى سبعة قرون كاملة .

غمرت الموجة الأولى من الفتح الإسلامى بلاد العجم والعراق والشام ، ثم مصر وتونس ، ثم الجزائر ومراكش وصقلية وأسبانيا ؛ ثم تجاوزت جيوش المسلمين

جبال البرانس ، وأوغلت فى فرنسا حتى اقتربت من باريس . . . ولو شاء ربك لأسلمت أوروبا كلها ، بل لو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ؛ ولكن قضت حكمته العليا ألاّ يزال الناس مختلفين ؛ « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » . . . وهكذا توقفت الفتوح فى هذا الجانب من العالم منذ سنة ٧٣٢ م وعادت الجيوش من فرنسا لتستقر فى أسبانيا ، وليؤسس المسلمون فيها مملكة عظيمة ظل حكمهم فيها قائماً ثمانية قرون ؛ لم يشهد التاريخ فترة مثلها حضارة وازدهاراً ؛ على أنهم إن كانوا اليوم قد فارقوها مُلكاً وحكماً ، فإنهم لم يفارقوها أثراً ورسماً . . .

ولم تكد موجة الفتح تنحسر هذا الانحسار اليسير فى الجانب الغربى حتى بدأت موجة أقوى منها فى الجانب الشرقى ، امتدّ بها الفتح الإسلامى مشرّقاً إلى بلوخستان والهند والصين ، بل تجاوز القارة إلى الجزائر الأندونسية؛ كما أنه انعطف مغرّباً فدخل أوروبا من جنوبها الشرقى متجهاً نحو الغرب والشمال الغربى إلى النمسا وإلى قرب بحر البلطيق . . .

* * *

هذه الفتوح كلها يعترف المنصفون من المؤرخين الغربيين بأن الأساس الأول والأعظم فيها لم يكن هو الحرب ؛ فهم يقولون بصريح العبارة : إن المعارك الإسلامية الكبيرة كانت نادرة جدّاً ، وإن أكثر ما تمّ من الفتح الإسلامى إنما كان بفضل التجارة ، والدعوة السلمية ، والإقناع الحكيم ، والقدوة الحسنة .

وفى الحق لو كان دخول هذه الأمم فى حظيرة الإسلام تحت سلطان السيف لخرجوا منها منذ دخلت السيوف فى أغمادها ، ومنذ غفل المسلمون عن أسلحتهم وأمتعتهم ، فانعكست آية القوة المادية ، وأصبحت فى يد غيرهم ؛ ولكن الإسلام ، كما قال هرقل (عاهل الروم فى عصر النبوة) : متى خالطت بشاشته القلوب لا يرتد أحد عنه ساخطاً له . أو كما قال بعض المؤرخين [١] فى العصور الحديثة : إنه لا تعرف حادثة واحدة ارتد فيها مسلم عن دينه ردّة حقيقية ؛ بعد أن دخل فى الإسلام دخولا حقيقياً ؛ بينما حوادث الخروج من الأديان الأخرى إلى الإسلام أكثر من أن تحصى . . .

نقول : إن فى سرعة انتشار الإسلام هكذا فى عالم يبلغ خمس الكتلة البشرية على الأقل ، وبين أمم مختلفة فى ألسنتها وألوانها ونزعاتها وطبيعة أرضها ، وطبيعة جوها ، وأسلوب حياتها . . . وإن فى ثباته واستقراره هذا على الرغم من كل عوامل التدمير التى سلطت ولا تزال تسلط عليه فى داخل أرضه وفى خارجها . . . وإن فى قابليته لزيادة الانتشار على الدوام كلما رفعت الحواجز الصناعية من طريقه . . . وإن فى سرعة تقبل النفوس له كلما عرض عليها دون صراع ولا خداع . . . إن فى ذلك كله لتفنيداً بليغاً لزعم من زعم أن الإسلام خلق للصحراء ، وللأمم التى لم تجاوز طور الطفولة البشرية ؛ إن فى ذلك كله لآية بينة على مبلغ ما فى طبيعة الإسلام من إشباع لحاجات العقول والقلوب ، وتوفية لمطالب الأفراد والجماعات ، ومجاوبة للفطرة الإنسانية العميقة ، التى لا تختلف باختلاف الأقطار والعصور ، ولا باختلاف المظاهر وأساليب الحياة ، بل إن فى ذلك كله لآية على أن الذى فطر الإنسان هو الذى شرع له هذا الدين ، وفصّله على مقياس طبيعته ، وأن ذلك كان هو السرّ الأول فى بقائه وخلوده « إنّا نحن نزّلنا الذكْر وإنّا له لحافظون » « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون » .

* * *

ولقد اتسم الإسلام فى غضون تاريخه بسمتين أخريين ؛ كان لهما أكبر العون على استمراره واستقراره ،

(١) Porter: Discours Préliminaire sur la Religion des Mahométans.

ظاهرتان من أهم مقومات الحضارة الحقيقية ، لم يسع المحققين من علماء أوربا إلا الاعتراف بهما ، والتنويه بشأنهما : ظاهرة داخلية ، بين معتنقيه ؛ وظاهرة خارجية ، تجاه المخالفين له .

فأما الظاهرة التى أسبغها على أتباعه فيما بينهم : فتلك هى ظاهرة الأخوة الروحية ، التى جعل منها ظاهرة اجتماعية ، تسمو على كل الفوارق العنصرية ، وتمحو كل الحواجز الإقليمية ، وإن اختلفت إدارتها ورياستها العليا . فلقد أتى على الإسلام حين من الدهر ، فى مدى القرنين الرابع والخامس من الهجرة (العاشر والحادى عشر الميلاديين) كان يتولى الخلافة فيها ثلاثة خلفاء فى وقت واحد : خليفة عباسىّ فى العراق ، وخليفة أموى فى الأندلس ، وخليفة فاطمى فى مصر ؛ ومع ذلك كان المسلم الذى يتنقل فى سفره من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فى امتداد يقطعه الراكب فى عشرة أشهر على الأقل ، لا يجد حيثما حلّ إلا إخوة فى عقيدته ، إخوة فى عبادته ، إخوة فى شريعته ، نظراء فى أخلاقه وعوائده ؛ أو كما يقول المؤرخ الألمانى متز Mez فى كتابه (نهضة الإسلام Die Renaissance des Islams) كان المسلم يشعر أنه حيثما حلّ فهو فى قلب وطنه .

وأما الظاهرة الخارجية : فهى ظاهرة التسامح بإزاء الأديان الأخرى ، لا بإزاء اليهودية والنصرانية فحسب ، بل بإزاء المجوسية ، التى عاملها الإسلام معاملة الأديان السماوية . . . ولم يقتصر الأمر فى هذا التسامح على أنه ترك أصحاب هذه الديانات المختلفة يتمتعون بحرية عقائدهم وعباداتهم ولغاتهم [١] ؛ بل إن الخلفاء خوّلوا لكل رئيس دينىّ أن يقضى فى شؤون طائفته الخاصة التى لا تصطدم ومصالح الدولة . أضف إلى هذا أن عدداً كبيراً منهم كان أداة فعالة فى جهاز موظفى الدولة ؛ حتى إن منصب

(١) يقول المؤرخ متز : إن الأقباط لم ينسوا لغتهم القبطية إلا فى القرن الثالث الهجرى .

وزارة الحربية أسند إلى المسيحيين مرتين ، أثناء القرن الثالث الهجرى .

ولقد حاول المؤرخ الألمانى كريمر Kremer فى كتابه (حضارة الشرق فى عهد الخلفاء : Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen) أن يحلل طبيعة هذا التسامح الإسلامى ، ويتعرف أسبابه ، فنفى نفياً قاطعاً أن تكون له بواعث سياسية ، وأن يكون هدفه فى نظر أولى الأمر المسلمين هو تسكين قلوب الرعايا غير المسلمين حتى لا يثوروا على الحكم . . . قال كريمر : كلا ؛ فإن هذه الفضيلة لم تكن خاصة بالخلفاء والرؤساء وحدهم ، بل كانت سارية فى الشعب عامة ؛ ثم إنها لم تقتصر على عصر المسلمين القدامى فحسب ، بل شملت سائر العصور . . . وينتهى المؤرخ من تحليله إلى هذه النتيجة : وهى أن المسلم يفصل فصلاً تامًّا بين العقيدة ، التى يحترم حرّيتها عند الآخرين ، وبين المصالح الدنيوية التى تعتمد الكفاية والأمانة ، والتى لا تميز بين دين ودين فى سبيل التعاون [١] .

ولن يفوتنا أن نعدّ من بين هؤلاء المؤرخين المنصفين الأستاذ الفرنسى (جوتييه Gautier) فقد خصص فى كتابه (أخلاق المسلمين وعوائدهم : Mœurs et Coustumes des Musulmans) فقرات طويلة قارن فيها مقارنة رائعة بين هذا التسامح الدينى عند المسلمين بخاصّة والشرقيين بعامة ، وبين ما عند المسيحيين الغربيين من عصبية عنيفة توارثوها خلفاً عن سلف . وعلى سبيل التمثيل لهذه الحميّة الجاهلية يشير المؤلف إلى ما حدث فى جنوب فرنسا على يد البارون (سيمون دى مونفور) الذى توجه بإذن البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسيين ، ومعهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة (لانج دوك) لاستئصال الديانة المجوسية منها ، فأغرقوا الإقليم

(١) نقول : أليست هذه هى وصية القرآن الكريم : « وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » ، « لا إكراه فى الدين » ؟ .

كله فى أنهار من الدم والنار ، حتى أهلكوا من كان فيه من المجوس . . . ويستطرد المؤلف فيقول : إن هذا العنف لم يؤد إلى نتيجة حاسمة من وجهة نظر الكنيسة ؛ فقد نبتت هذه الفرقة المارقة مرة أخرى فى (بوهيميا) فحوربت وهزمت . ثم نبتت مرة ثالثة فى شمال ألمانيا باسم (الإصلاح الدينى : La Réforme) . وقد حوربت فى هذه المرة أيضاً بأساليب أشد عنفاً ، ودامت المعارك من أجلها ثلاثين عاماً . ولكنها لم تفلح فى إخضاعها . . . فلما استنفدت الحروب جهود الطرفين وأرادوا أن تضع الحرب أوزارها لم تطوّع لهم أنفسهم قبول فكرة التسامح الدينى فيما بينهم ، بل فضّلوا أن تقسم المسيحية قسمين متناكرين ، ليس بينهما تعايش سلمى فى دولة واحدة ؛ بل لكل دولة دينها ، بحيث لا يعيش فى كل أمة إلا مذهب واحد . . . يقول المؤلف : فأين هذا مما نشاهده فى داخل بلاد الإسلام قديماً وحديثاً ، حيث يحتضن الإسلام دائماً بين جناحيه من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى طوائف من غير المسلمين ، يهوداً ونصارى ومجوساً ؛ وطوائف من المسلمين المبتدعين ، شيعة وخوارج وإباضية . . . ولم يفكر العرب ولا المسلمون يوماً ما ، حتى فى أشد أوقات حميتهم الدينية ، أن يطفئوا بالدم ديناً منافساً لدينهم ؛ بل لم يفكر الخليفة يوماً ما فى أن يضطهد مسيحياً يعقوبياً أو مجوسياً مانوياً . . . إنه مهما تكن الأسباب والبواعث على هذا التسامح الدينى عند المسلمين ، فإنها فضيلة تستحق كل إعجاب وتقدير . . . وإنه لمن الخطأ فى القياس أن نقارن بين هذه الفضيلة عندهم وبين ما نسميه نحن أحياناً بالتسامح الدينى عندنا ؛ فإن هذا التسامح المزعوم ليس له أدنى قيمة خلقية ، بل ليس له وجود حقيقى ؛ لأنه يقوم على أساس التحلل الدينى وعدم المبالاة بشؤون العقيدة ؛ فلكى نقبل وجود ديانة أخرى فى بلادنا يجب أن تكون ديانتنا قد ماتت من قبل فى نفوسنا . أما المسلم فإنه يتسامح مع اعتزازه بدينه ، واستمساكه التام بعقيدته.

وكأننا بالأستاذ (جوتييه) حين أشاد بفضيلة التسامح الدينى عند المسلمين ، وجعلها قاعدة عامة عندهم ، توقع ما قد يجول بذهن القارئ من اعتراض على هذه القاعدة العامة بالأمثلة المشاهدة فى المستعمرات ، حيث إن المسلمين فى الجزائر وغيرها يمقتون المسيحيين جميعاً ، فرنسيين كانوا أم انجليز أم هولنديين أم غيرهم . فتصدّى لدفع هذا الاعتراض قائلا : إنهم لا يمقتون فينا مسيحيتنا ، وإنما يمقتون أوربيتنا ؛ فإن أوربا منذ قرن أو يزيد أصبحت خطراً يهدّد سلام الكرة الأرضية ؛ فالأوربى عندهم رمز للتدخل الذى يجرح كبرياءهم ، ويحطم استقلالهم ، ويفسد أسلوب معيشتهم . أما عقائدنا الدينية وآراؤنا الفلسفية ، المخالفة لعقائدهم وآرائهم ، فإن أمرها كان يهون عليهم لو بقيت محصورة فى دائرة الاختلاف النظرى . . . ولقد صدق !

* * *

هذان هما العنصران الأساسيان فى بناء الحضارة عند كل أمة رشيدة تطمح إلى البقاء والخلود : عنصر الوحدة الروحية والوطن المشترك بين أبنائها على اختلاف مذاهبهم وأقطارهم ؛ وعنصر التسامح والتعايش السلمى مع جيرانهم المخالفين لهم فى عقائدهم .

غير أن هذين العنصرين لا بد لهما من عنصر ثالث يمازجهما ويكملهما ، ويجبر ما قد يعتريهما من نقص ؛ ذلك أن رحمة الأخوة كثيراً ما ينفلت زمامها ، فتصل إلى حدّ التراخى والتهاون والإغضاء عن الإثم والفوضى والفساد الداخلى ؛ كما أن نزعة التسامح وحب السلام العالمى كثيراً ما يختل ميزانها ، فتنحدر إلى مستوى الضعف والاستسلام أمام العدوّ الخارجى . . .

لهذا وذاك جاء الإسلام منظماً لكلتى النزعتين ، محتفظاً بما فيهما من خير ونفع ، نابذاً ما فيهما من شذوذ وانحراف . . .

يتلخص هذا التنظيم الإسلامى فى أنه جهز أتباعه بجهازين : داخلى وخارجى ؛ وجعل كل واحد منهما يتألف من عنصرين : أدبىّ ومادّى .

فأما فى الداخل فقد جهزهم معنويًّا بجهاز الدعوة إلى الخير ، والتناهى عن المنكر ، والتناصح والتواصى بالحق ؛ دعوة وتناصحاً لا يمتاز فيهما كبير عن صغير ، ولا يقل فيهما مأمور عن أمير . . . ثم جهزهم ماديًّا بجهاز العقوبات والتأديبات التى يوجب توقيعها على كل من لم تنفعه الموعظة الحسنة ، بالغاً ما بلغ قدره وخطره ، دون أن تأخذنا به رأفة فى دين الله .

وأما فى الخارج فقد زوّد أتباعه معنويًّا بمبادئ العزة والحمية وإباء الضيم ؛ أشربها قلوبهم مع عقيدة التوحيد ، حتى « إذا قيل لهم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله » ثم جهزهم ماديًّا بقانون الجهاد الذى جعله عليهم فريضة محكمة ، يدافعون به عن كيانه وكيانهم ، ويرهبون به عدوّ الله وعدوّهم .

وهكذا كان الإسلام فى لينه بعيداً عن الضعف ؛ كما كان فى حربه بعيداً عن العنف ، وبذلك تجافى عن طرفى التفريط والإفراط اللذين انتهى إليهما الأمر فى كثير من الديانات ؛ نعم لقد جاء الإسلام بريئاً من طابع الخور والاستكانة التى اتسمت بها بعض الديانات الوعظية التبشيرية ، التى لا حول لها ولا قوة ، ولا سلطان لها على نظام المجتمع ؛ كما جاء بريئاً من طابع الغرور والكبرياء والعتوّ ، الذى اصطبغت به بعض الديانات المحرّفة ، التى توحى إلى أتباعها أن من عداهم ليسوا من فصيلة البشر ، وأن دماء غيرهم وأموالهم ليست لها حرمة ولا قدسية .

هكذا جاء فى وقت واحد مبرءاً من العناصر الخامدة الخائرة ، ومن العناصر الهادمة المدمرة ، مزوّداً بعناصر الصلاح والإصلاح ، وأسباب البقاء والإبقاء ، جامعاً بين القوة والنظام ، والرحمة والسلام .

الفنون الشعبية في مصر

بقلم المرحوم الأستاذ محمد ناجي

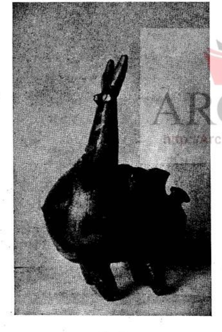
يقوم المجلس الأعلى لرعاية الفنون بتكريم الفنان الراحل « محمد ناجى ١٨٨٨ – ١٩٥٦ » وإقامة معرض لبعض آثاره بمتحف الفن الحديث بالقاهرة هذا الشهر .

وقد ألقى الفنان ناجى فى مؤتمر الفنون الشعبية بمدينة براغ سنة ١٩٢٨ كلمة قيمة بالفرنسية عن الفنون الشعبية ننشر ترجمتها فيما يلى :

قد يتساءل الناظر إلى التقلب الهائل فى الفنون المتعددة التى قامت فى مصر ، وكانت أرضها مهدها الدائم : هل بقى فى مصر ضرب من ضروب التعبير لا تزال له القدرة على الإفصاح عن مكنون الإحساس الشعبى ؟

والفن الشعبى فى مصر يستمد وحيه وإلهامه من مصادر متباينة ، بحسب اتجاهات كل طائفة من الطوائف وأصلها وعقائدها وتقاليدها ؛ فهو يستوحى الفن المصرى تارة ، والفن القبطى أو المسيحى تارة أخرى ، ويستوحى أخيراً الفن العربى أو الإسلامى .

وقد بلغت الفنون العامية التى لم تصل إلى درجة الكمال فى مصر القديمة من قوة التعبير الشعبى ما جعلها تتحدى القرون الطوال ، ذلك أنها ما زالت تعبر أبلغ تعبير عن قوى الإبداع والابتكار الكامنة فى الشعب ، تشهد بذلك الرسوم والنقوش البدائية التى تصور النوتية ، والطهاة ، والكتبة ، والخدم ، الذين تناط بهم حماية أجساد الموتى من السادة والنبلاء ، إذ تبعث فيهم الروح من جديد ساعة يحدق بموميائهم أى خطر ، فيهبون من مرقدهم ليردوا عنها الغوائل . ولذلك كان لا بد لهذه الأشكال التى ينتظر أن ترتد إليها الروح أن تكون صورة مطابقة لحياة الميت التى يحياها فى العالم الآخر ،



من الفن الشعبى

تلك الحياة التى لم تكن فى الواقع إلا استمراراً لحياته فى الدنيا يتمشى مع حياته الآخرة . وما من شك فى أن قصص الديانة المصرية القديمة وأساطيرها ، وحتى ما كان

منها غامضاً عسير الفهم — تعكس بجلاء ووضوح الطابع المحلى الأصيل . ولقد كان لمصر منذ أقدم العصور تأثير قوى على هذا الوادى الذى تغمره مياه النيل بانتظام؛ حتى إن الخرافات والأساطير فى تلك العصور ظلت تتناقل على لسان الديانات وتتوارث فيما بينها بطريقة لاشعورية . ولقد حدث فى مدينة الأقصر أن شيد الأهلون لأحد الأولياء مسجداً صغيراً ناصع البياض على الطراز الريفى ، وسط غابة من الأعمدة اتخذت شكل زهرة اللوتس ، مما أثار قلق علماء الآثار وجزعهم . وعلى الرغم من مكانة هذا الولى الذى أقيم المسجد من أجله ، وما يتمتع به من احترام الأهلين وتبجيلهم ؛ فقد بقيت فى هذا المسجد آثار العقائد الوثنية القديمة ، إذ لم يمض وقت طويل حتى صنع الأهلون لهذا الولى المسلم قارباً مقدساً ، يحتذون به سنّة أجدادهم القدماء الذين كانوا يدينون بالإله آمون ، وما نزال حتى اليوم نرى أتباع هذا الولى فى مدينة الأقصر ، يحملون هذا القارب أيام المواسم والأعياد ، ويدورون به فى أنحاء البلدة تحت وهج الشمس المحرقة ، يحيون بعملهم هذا التقاليد القديم الذى توارثوه منذ عهود سحيقة .

ويبدو أن أهل الصعيد ما زالوا متأثرين إلى حد كبير بالآثار بالإضافة إلى الاتجار فيها ؛ فحين يأخذ التعب مأخذه من فلاح الصعيد الذى ينقب الأرض وينبش القبر خفية سعياً وراء أحلامه فى العثور على الكنوز المدفونة ، يجد هذا الفلاح الراحة فى تأمل ما يعثر عليه من جعارين وقدور مرمرية ، وما تقع عليه يده أحياناً من تماثيل؛ وهو إذ يحاول أن يقلدها يبدى مهارة وحذقاً فائقين . أما فى مراكز المدن المتحضرة ، فإن الفن المصرى آخذ فى الاحتضار نتيجة لعدم دربة الصناع ، وافتقارهم إلى الحذق والدراية ؛ وقد انحط هذا الفن العظيم فى أيديهم وبلغ مبلغاً منكراً من التشويه ؛ كما أن جشع تجار الآثار المزيفة الذين يسخرون ممن ليست لهم دراية من السائحين ، ويغررون ببعض السذج من المواطنين ، قد هوى بهذا الفن إلى درك مؤسف من الضعف والوهن .

وبوجه عام يصعب على جمهرة الشعب تفهم روح الفن المصرى ، وتقصر مخيلتهم عن إدراك مقاييسه ، ولذلك كان هذا الفن غير صالح لأن يكون أداة للتعبير الشعبى بالصورة الفنية التى نعرفها ، هذا على الرغم مما له من ارتباط وثيق بالروح القومى .

أما فيما يختص بالفن القبطى ، فهو متأثر ولا شك بالفن الإغريقى وهو يقترب اقتراباً مضطرداً من الزخرفة ؛ لكن الفن الإغريقى أكثر اتجاهاً لنقل الطبيعة ، وينظر إلى الأشياء كما هى فى ظاهرها؛ بخلاف الفن القبطى فهو متأثر إلى حد كبير برمزية أوحى بها الدين ، ولذلك تراه لا يعتمد على الرؤية المباشرة ، بل يكيّفها ليجعلها تساير مقتضيات التناسق الهندسى ، فيحد بذلك من شأن الطبيعة المرئية وينزل بها إلى مجرد خطوط فوق مسطحات .

ولا نزال حتى اليوم نشهد الفن القبطى فى الأوانى والمباخر المعدنية ، كما نراه ممثلا فى تلك المصابيح التى تنثنى سيقانها كأفرع النباتات ، وتلك الدمى التى قضت العادات المتغلغلة فى نفوس الشعب منذ القدم بأن توضع إلى جانب الميت عند دفنه ، كما ظل هذا الفن ينتج أغطية المومياء ، والأوانى والقدور الخزفية المحلاة برسوم ونقوش « أرابسك » تمثل طيوراً وأسماكاً اتخذت صوراً لا رشاقة فيها ، تبين ماشاب هذا الفن من وهن ، وما أصابه من ضعف وإعياء .

وعلى الرغم من تأثر هذا الفن بالفن البيزنطى فإن مصادره محلية بحتة ، ووحيه من المسيحية المصرية يجعله أكثر صرامة ، وأقرب إلى الإنتاج الذهنى منه إلى الإنتاج العاطفى . فهو يقف على حافة الحياة يتردد بين البقاء والزوال ، وكأنه يشعر بدنو أجله ، فينسج لنفسه الطنافس المطرزة والأقمشة الموشاة ، ليتخذ منها أبهى الأكفان وأجملها .

* * *

أما الفن الإسلامى فإن صلتنا به تبدأ عند ما نتخطى عتبة الحياة العربية حيث نلمس آثاره فى حفلات الزواج والختان ، وفى الأعياد ، وفى المآتم والأسواق . ويتجلى هذا الفن فى ملابس الشعب ، وفى زينته ، وفى حليه ، وما يتخذه من عادة الوشم ؛ إنه فى كل مكان : فى الطرقات الزاخرة بالمتاجر والحوانيت ، وفى الدروب التى تمتلىء جنباتها بالباعة الجوالين ، وصناع الأوانى من النحاس ومن الفخار ؛ ويظهر بوضوح فى طريقة تنظيم المواكب فى مختلف المناسبات . وللثبات أمام غزوات الحياة الحديثة لاذ هذا الفن بالأحياء القديمة ، وقبع فى دروبها الضيقة ليجد السبيل إلى البقاء ، ويتقى ما يحدق به من أخطار تهدد وجوده بالفناء .

وإنك لترى حول المساجد أيام الاحتفالات والموالد ، الفن الشعبى وقد تجلى لك فى صفائه الأول ، إذ يتمثل فى صورة عرائس الحلوى . وما أروع مناظر هذه الأشكال التى تمثل أشكالاً وحيوانات رصت على مدرجات خشبية ، يرنو إليها الأطفال بأنظارهم ، وتصبو إليها قلوبهم .

وإنك لتجد فى المقهى الصغير الذى فى طرف أحد الأزقة صوراً تتسم بالطابعين الفارسى والسورى ، صوراً تروى قصص الفروسية وأساطيرها عند العرب ، تلك الأساطير التى تشبع أهواء الجمهور ونزواته . وفى هذه الأساطير المصورة لا تجد مجالا لمبارزات يطول مداها ، فسرعان ما يهوى السيف بلا تردد فيقطع رقاب الخصوم ، ويبترها فى أقل من لمح البصر ، والرمح لا يخطئ الهدف عند ما يصوبه صاحبه نحو عين عدوه .

وفى مجال آخر تجد أن « العين » أصبحت موضع عقائد خرافية توارثتها الأجيال ، وقد أضافت إليها التعازيم والتعاويذ « اليد » ، فصاغ منها الصاغة حلياً اتسم بطابع فنى خاص ، وأضحى من مستلزمات الزينة والتبرج عند نساء الشعب . ولذلك قام فى مصر فن صياغى له من الميزات ما يتفق مع رغبات نساء الريف البسيطة الساذجة أو يلبى مطالب نساء الشعب فى المدن والحضر . وهو فى الحال الأولى ثقيل غليظ ، وفى الحال الأخرى رشيق مزركش بالثقوب « فن الشفتشى » ، ينسدل فى قلائد انتظمت حبات من ذهب ، أو ينحنى على هيئة الأهلة . غير أن الذوق الذى يتجلى فى حب المادة التى يتألف منها الفن ، ذلك الذوق البدائى الذى رفعته نظرتنا إلى مقاييس الجمال فى العصر الحديث إلى المقام الأول — يبدو ماثلا دائماً نلمسه فى التواء الأساور الثعبانية ، والقلائد المحملة « بالصفا » ومن ذلك الخلاخل المصنوعة من الفضة أو الذهب التى يحلى بها النسوة سيقانهن .

وإذا أتيح لك أن يمر بك موكب عرس ، رأيت حاملى الجهاز وهم يسيرون الواحد بعد الآخر فى خيلاء ، رافعين على رءوسهم — كأسلاب الحرب — الصوانى والسلال ، والأوانى ، والوسائد الموشاة بخيوط فضية ، تسير فى أعقابهم عربات محملة بقطع الأثاث الثقيل ، فيخيل إلى الناظر أنه أمام لوحة تمثل مواكب تقديم القرابين فى الأزمنة الغابرة . وقد جرت عادات الشعب على أن يصحب حفلات الزفاف إقامة سرادقات كبيرة لاستقبال المدعوين ويتكون السرادق من « تروك » محلاة برسوم « أرابسك » تضفى على المكان جواً من البذخ والترف . وصناعة هذه « التروك » وقف على طائفة ميسورة من الصناع تستأثر بسرها ؛ وفى ظل هذه الرسوم « الأرابسك » الرائعة تعقد المنظمات السياسية اجتماعاتها ، ويعبر الخطباء عما يجيش فى صدورهم من أمانٍ وطنية ، كما تقام المآتم فيجلس المعزون يستمعون فى خشوع إلى المقرئ يتلو عليهم فى هدوء ووقار آيات من كتاب الله الكريم ، تبعث فى قلوبهم الإيمان ، وتجملها بالصبر والسلوان .

وترى حفلات الزفاف تحييها فرق موسيقية تتألف من عود ، وقانون ، وربابة ، وناى ، وتعرف بالتخت ، وهو الصورة الشعبية الأصيلة للموسيقى المصرية . وقد حاول

حديث الذرة فى الحرب والسلم

بقلم الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن

كأنما العلم لا قلب له !

وكأن الذرة مارد جبار أطلقه العلماء من قممقم مسحور يلبى نداء السحرة ، ويفعل الأعاجيب ! وقد تكاثرت القماقم ، وازدحم السحرة المحدثون فى معابدهم ، والعالم كله ينظر ويرى ويسمع عجبا : ينظر العالم إلى الانفجارات الذرية والأسلحة النووية والقنابل الإيدروجينية ، فيرى فيها شبح حرب مروعة مدمرة ساحقة ماحقة ليس لها لاحقة ، وقودها الناس والحجارة والمدنية والحضارة ، مقدماتها خسران ، ونواتجها فناء وتشويه وتحطيم للنفوس والأجساد : صورة بشعة مفزعة تعجز الأساطير الخرافية عن محاكاتها !

والذرة هذه التى تفزع ، تعود فتمد يدها الرحيمة إلى الأمراض المستعصية فلا تستعصى عليها ؛ وتمتد إلى ميدان الكهربا فتغير المدائن ، وتدير آلات الصناعة ؛ وتذهب إلى الحقل ، فترسم الطريق السوى إلى محصول وافر ونبت يانع وزهر ناضر وخير كثير ؛ وتنتقل إلى البحر ، فتسير فيه سفائن عامرة من عائمة وغائصة ، تسير أعواماً دون تزود بالوقود ، وتكشف للإنسان عن مزارع السمك الغنية ، وموارد الثروة المائية .

فالساحر يحرك المارد إلى الخير وإلى الشر معاً !

ومن يحكم الساحر : هواه أو عقله ؟ لقد عرفنا قدرة الساحر فأين حكمته ؟ والسحرة هم العلماء وهم آباء وأبناء وأفراد على قدر من المعرفة كبير ، ولهم قلوب وأفئدة وعقول منيرة مفكرة ، وبين أيديهم مسئولية ضخمة تجاه أنفسهم وتجاه البشرية ؛ فماذا هم فاعلون ؟

فلنذهب إليهم فى عقر دارهم ، ولنستمع إلى ما يقولون !

قلت لصاحبى : إليك بعض مقالهم والعهدة على من روى :

يقولون : إن إينشتين فى أوائل الحرب العالمية الأخيرة كتب خطاباً إلى روزفلت يدعوه فيه إلى الاهتمام بدراسة التفاعلات الذرية والعمل على الإفادة منها حربياً خشية أن يسبق إليها الألمان ؛ فاستمع روزفلت إلى ندائه ، فكانت القنبلة الذرية ، فلما وقعت الواقعة وانطلق المارد من عقاله قيل إن إينشتين قبيل وفاته ندم على ما فعل ، وأفضى إلى بعض ثقاته : إنه وإن كان فى النصر على النازية وتحطيمها مكسب للبشرية — يرى أن ما فعله الساسة بالأسلحة الذرية لا يجعله يطمئن على مستقبل البشرية .

ومنذ سنوات قليلة تهيأ العلماء لصناعة القنبلة الإيدروجينية ، ونوقش الأمر ، فانبرى أوبنهيمر يطلب التمهل والتريث وعدم دفع العالم إلى هوة سحيقة من الخوف والفزع ، ولكن تغلب الرأى المضاد مرة أخرى ، فتقدم (تيلر) المجرى الشريد ليصنع القنبلة ، وباركه رجال السياسة ، وقالوا : إن أعداءنا أشرار فجرة ، ونحن من الأطهار البررة ، والقوة فى يدنا للخير بلا مراء ، والقوة فى يدهم شر مستطير !

فما قولهم اليوم والقنابل والأسلحة النووية والإيدروجينية وافرة لدى الأشرار والأطهار ؟

أما نحن الذين لسنا من الأشرار ولا من الأطهار فكنا نطمع فى أنه إذا وقعت الواقعة وانطلقت الذرات

المتدافعة والإشعاعات الصاعقة فلن يصيبنا منها كبير ضرر ؛ لأن كلاً من المتحاربين سيصوبها للآخر عبر القطب الشمالى ، فيفنى منهما من يفنى ، ويبقى منهما من يبقى ، فنرى : أى منقلب ينقلبون ؟

ولكن خاب هذا الظن ؛ فقد بدأ الغرب فى نشر قواعده الذرية فى أوروبا الغربية والجنوبية والشرق الأدنى والأقصى لتحيط بالدب الروسى والتنين الصينى حلقة من نار ! وهذه القواعد تقوم فى أراضينا نحن الذين كنا نأوى إلى كهف العجز ، وندفن رءوسنا فى رمال الجهل ، ونمنى أنفسنا بالأمن خلف أسوار الآمال ! تلك القواعد ستنطلق منها القذائف الصاروخية ، وستوجه نحوها القنابل الذرية ، وستزحف منها الأساطيل ، وتهجم عليها الطائرات ، سنصبح إذن فى أرض المعارك ، وفى ميدان الصراع ؛ فأين المفر ؟

ويقولون : إن العالم الشاب (فوكس) كان أول من حسب قدر القنبلة الذرية ، وكان فى إنجلترا ، وخشى أن تتخلف روسيا عن أمريكا فى ميدان الذرة ، فتطوع عن عقيدة بتقديم أسرارها إلى عملاء السوفييت ، وقبض عليه ، وهو الآن يقضى مدة العقوبة فى السجن ثمن خطئه بسبب عقيدته !

وفى فرنسا كان فردريك جوليو كورى — ولا زال — أكبر علمائها ، وقد تولى بعد الحرب إنشاء لجنة الطاقة الذرية الفرنسية مستقلا عن الأمريكيين الذين كانوا يحبسون المعرفة الجديدة عن الجميع حتى عن حلفائهم البريطانيين ! وقد سخر (باروخ) كبير مستشارى ترومان من (جوليو) ، وقال له : « أيها الطفل الكبير ، إن الذرة شىء عزيز لاتقدر عليه فرنسا وحدها ! » غير أن جوليو نجح ، ولعله يسخر هو اليوم بدوره من باروخ! ولكن أين جوليو ؟ إنه قد طرد من الجنة التى أنشأها وغرسها بيديه ؛ لأن حكومة فرنسا لم تطمئن إلى ولائه ، فرجع إلى معمله فى الكوليج دى فرانس حيث قابلته منذ عام ، فقال : إن لديه فكرة للسلام لن يخاطر بذكرها فى حضرة آلهة الحرب !

وفى الهند زاد الوعى بخطر التجارب الذرية التى تجريها الدول الكبرى ، فطلب نهرو من كوكبة من أكبر علمائه أن يبحثوا حقيقة الأمر ، فنشروا كتاباً عن الأسلحة النووية وآثارها التدميرية فى الإنسان والحيوان . وفى شهر أغسطس الماضى سلمنى نهرو نسخة من ذلك الكتاب ، وكنا جمعاً من المشتغلين بأمور الطاقة الذرية فى مصر والهند وبورما وسيلان وإندونيسيا ، وقال : إنه أراد أصلا أن يعرف لنفسه حقيقة ما يقال عن انتشار الغبار الذرى تدريجيًّا بسبب الانفجارات التجريبية التى تقوم بها الدول الكبرى مما قد يؤثر تأثيراً ضارًّا على سكان الأرض جميعا . ولما طلب تقريراً بذلك من علماء الهند كان التقرير وافياً كاملا بحيث أصبح كتاباً يقرأ على الناس . ولعلنا نراه منشورًا بالعربية بدل كتب الدعاية الرخيصة المكشوفة .

أما اليابان فلا تحتاج إلى إعداد تقارير بشأن أضرار القنابل الذرية والإيدروجينية ؛ فقد خبرتها بنفسها وذاقت نار جحيمها منذ أكثر من عشر سنوات ؛ ولذلك فاليابان متحفزة كل التحفز لمقاومة التجارب الذرية ، وهى لا تنفك تقدم الاحتجاج إثر الاحتجاج ضد هذا الأمر . ويجتمع برلمانها ، ويدعو برلمانات العالم إلى وقف التجارب الأمريكية ، وقد وجهت أخيرًا قدرًا مناسباً من نشاطها الاحتجاجى لبريطانيا التى اعتزمت تفجير قنبلة فى جزائر كريستماس التى فى المحيط الهادى ، ومن قبل فى عام ١٩٥٤ كان الصيادون اليابانيون قد وقعوا تحت مهب ريح تحمل إشعاعات من تفجير قنبلة بيكينى الإيدروجينية الأولى ، فأصابتهم بأضرار ، وتلوث صيدهم من السمك ، وانتشر التلوث الإشعاعى إلى كل منزل ناله نصيب من ذلك السمك ، وإلى كل شخص تناول بعضاً منه . ومن سخرية الزمن أن مركب الصيد هذا كان اسمه (السفين السعيد) ولو أن وجه السعادة فيه يبدو مفقودا ؛ فلعل ذلك كان من قبيل تسمية الشىء بضده !

والمحيط الهادئ هو الميدان المفضل للتجارب الذرية الغربية لعظم مساحته وتناثر جزره وتأخر سكانه مما يسمح للضمير الغربى بطردهم وتشتيتهم من جزيرة إلى أخرى فى سبيل تقدمه ومصلحته العسكرية ! ولولا صيحات اليابان المتكررة من حين إلى حين ما شغل العالم هكذا بأمر التجارب الذرية فى المحيط الهادئ وشعبه المرجانية .

ويقال : إن اليابان وهى بمكرها المأثور تفيد فائدة عظيمة من نشاطها الاحتجاجى ، إذ تسكتها أمريكا من حين إلى آخر بهدية قيمة ومنحة جزيلة ، فتكون عطية مقبولة ، ومنة مشكورة ؛ ورب ضارة نافعة لمن عرف من أين تؤكل الكتف !

ولا يعلم الكثير عن التقدم الذرّى العسكرى فى روسيا ، ولكن مما لا شك فيه أنه حينما انتهت الحرب العالمية السافرة ، وبدأت الحرب الباردة (العالمية أيضا) لم تكن لدى روسيا قنابل ذرية ، غير أنها بعد سنوات تمكنت من صناعة القنبلة الذرية ، ثم بادرت الولايات المتحدة إلى صنع القنبلة الإيدروجينية ، وكانت هى الوحيدة التى تملكها فى العالم ، واستمر تفوقها الناشىء من وحدتها هذه فترة قصيرة ؛ إذ سرعان ما ظهر أن روسيا قد فجرت قنابل إيدروجينية ، ثم انتقل السباق إلى الصواريخ الموجهة التى تغنى المحاربين عن الذهاب إلى الميدان أو ركوب متن الهواء ؛ إذ يكتفون وهم فى مكاتبهم أو مخابئهم الجبلية بالضغط على الأزرار المطلقة للصواريخ التى تحمل القنابل الذرية إلى أعلى طبقات الهواء ثم تسقطها بعد دقائق قليلة فوق مراكز العدو ، فتدكها دكًّا ، وتشبعها سحقاً ومحقاً وحرقا !

أليست هذه صورة دقيقة للطير الأبابيل التى ترميهم بحجارة من سجيل فتتركهم كالعصف المأكول ؟ إن ربك لبالمرصاد ، وهو على كل شىء قدير .

ويقولون : إن السباق الذرى فى السنوات العشر الأخيرة لم يصل بعد إلى نهايته ، وإن الحرب الباردة تشتد ويخبو أوارها تبعاً لقرب المتسابقين أو بعدهما كل عن الآخر .

أو لم يحثك حديث الكلاب الثلاثة التى أودعها الروس جوف قذيفة صاروخية أطلقوها فى السماء ، ثم أمسكوا زمامها لاسلكيًّا حتى رجعوها سالمة ، فوجدوا الكلاب الثلاثة تمرح وتلعب بعد أن كانت بين السماء والأرض ؟ ومنذ أشهر يتأهب الأمريكيون لإطلاق القمر الصناعى المنتظر ، وحديثه له شأن بما نحن بصدده من تقدم فى صناعة الصواريخ التى يمكن إطلاقها بسرعة آلاف الأميال لتصل إلى هدف معلوم فتصيبه ، كأنما صوبت إليه تصويبا .

ومنذ أشهر أيضاً انطلق صاروخ أمريكى كبير — يسمونه عابر القارات — من مكمنه فى فلوريدا أو حولها ، وبدل أن يصل إلى غايته المقصودة أفلت من أصحابه وشقّ عصا الطاعة ، فشرد شروداً كبيراً ، وجمح جموحاً عظيماً ، وقيل : إنه سقط فى غابات الأمازون الكثيفة .

فهل نتوقع قريباً سيلا من الاحتجاجات (الصاروخية) من البرازيل ، ثم الترضية الأمريكية المعهودة التى لها رنين الدولار وبريق الذهب وفعل السحر ؟

* * *

إن أقوى دول العالم وهى الولايات المتحدة تخشى الهجوم الذرى الخاطف ، وتعدّ مخابئ تكلفها أربعين ألف مليون دولار ، ويتوقع مدير الدفاع المدنى فيها أن الهجمات الذرية ستقتل نصف السكان ، ويأمل بعد أن ينفذ برنامج الوقاية وأجهزة الإنذار أن يعلم الناس بالهجوم قبل سقوط القنابل بخمس دقائق فقط . ويقول : إنه إذا استخدمت الصواريخ العابرة القارات فلن تكون ثمة فائدة من الإنذار ولا سبيل إلى الفرار !

هكذا تعيش أمريكا فى فزع ورعب .

ونحن لم ننس بعد — الإنذار الروسى فى نوفمبر الذى

أوضح لبريطانيا أن دولة أقوى منها قد تسقط عليها القذائف الصاروخية إذا شاءت أن تمحوها من الوجود ! فأوقع هذا الإنذار الرعب فى قلبها ووقفها عند حدها .

إن الحديث ليطول فى كل هذه الأمور ، وما خفى كان أعظم .

فما المآل ؟ أإلى زوال ؟ وهل كتب علينا الخوف من المارد الذرى إلى الأبد سواء وقعت الواقعة أم لم تقع ؟ لا أظن ؛ فعوامل الاتزان كثيرة ؛ فلنقلب الصفحة ، ولننتظر قليلا حتى يغير العلماء من سحنتهم بعد أن أطلقوا البخور لشياطين الحرب إلى أن يرتدوا مسوح الصالحين ليبعثوا الأمن فى النفوس الوجلة والسكينة فى القلوب الراجفة !

* * *

جمهورية الدومينيك فى أمريكا الوسطى فقيرة جداً فى موارد الطاقة من فحم أو زيت ، وفقيرة أيضاً فى الطرق والمواصلات الحديثة ، ولكن فيما يبدو لديها ثروة معدنية عظيمة فى مناطق وعرة المسالك : جاء فى الأنباء أنها قد تعاقدت هى وشركة جلين مارتين الأمريكية على شراء (مفاعل ذرى متنقل) أى محطة كهربية تعمل بالذرة وزنها ٢٠ طناً يمكن أن تحملها الطائرات مفككة فى صناديق صغيرة ، ويمكن شحنها بالسيارات من مكان إلى آخر ، وهى تكفى إضاءة مدينة سكانها ١٠٠٠٠ نسمة ، والأغراض الصناعية والعمرانية التعدينية ، ويمكنها أن تستمر فى العمل سنة ونصف السنة دون تغيير أو تجديد فى وقودها ، وقوتها ١٠٠٠ كيلوات ، وثمنها نحو مليون دولار . وقد أقامت الحكومة الأمريكية محطات ذرية متنقلة فى برارى كندا القطبية وفى غيرها ، فلعل هذه المولدات الكهربية تفيد المناطق الصحراوية والنائية التى كان يصعب استغلالها اقتصادياً لعظم التكاليف لنقل الوقود والقوى المحركة إليها ، ومعظمها فى الدول المتخلفة اقتصاديا .

ومن المعلوم أن بناء المحطات الكهربية الذرية قد تقرر ، بل نفذ فعلا فى دول كثيرة ، وهذه المحطات وإن كانت أكثر تكاليف من المحطات العادية التى تعمل بالفحم أو الزيت — تؤدى إلى وفر فى الوقود المألوف ، وتعتبر فى مرحلة تجريبية سينشأ عنها إنقاص النفقات فى السنوات القليلة القادمة ، حتى تصبح المحطات الذرية مصدرا هاما للطاقة المحركة فى العالم كله .

وفى لندن مستشفى للسرطان حصل على قطعة من مادة (السيزيوم) حجمها لا يزيد على حجم قطعتين من السكر ، ولكنها ذات إشعاع قوى يبلغ ١٢٠٠ كورى (الكورى وحدة اختيرت تكريماً لمدام كورى العالمة الذرية الشهيرة ، وتقيس هذه الوحدة القدرة الإشعاعية) . ولعلنا نقدر عظم هذا الإشعاع إذا تبينا أن تلك القطعة الصغيرة يحيط بها ألف كيلو جرام من الرصاص ، لكى يحبس الإشعاع داخلها فلا ينفذ منها .

ويستخدم الأطباء هذا الإشعاع فى علاج الأورام الخبيثة علاجاً كان يتعذر من قبل بأية طريقة . والسيزيوم عنصر كيميائى ، مثل الحديد والنحاس والرصاص ، ولكنه نادر الوجود بعض الشىء فى الطبيعة ، ولم يكن له كبير شأن فى الحياة العملية من قبل ، ولكن شأنه ارتفع وقدره عظم فى السنوات الأخيرة ، وأصبح عنصراً شهيرا كأنه (نار على علم) ، وإن كانت نار الإشعاع وعلم المعرفة .

وينتج السيزيوم المشعُ هذا — وعلينا أن نتذكره لأنه أصبح مشهوراً — من مخلفات المحطات الذرية التى تحرق اليورانيوم فهو من النفايات والنواتج الذرية ، وكانت تشغل بال العلماء كيفية التخلص منه بطريقة لا تضر ؛ لأنه يتكون بكميات كبيرة فى المحطات الذرية ، وأخيراً رأوا من الأفضل أن يسجنوه فى قفص من الرصاص ويرسلوه إلى المستشفيات لعلاج المرضى ، وكان الله يحب المحسنين وخاصة الذين يصيدون عصفورين بحجر واحد !

وليس السيزيوم هو وحده النجم اللامع فى مملكة الذرة ؛ بل كان المجلى من قبله فى الميدان عنصر الكوبالت وقد نال شهرة واسعة لقدرته على اكتساب صفة الإشعاع والاحتفاظ به . وقد تخصصت كندا فى السنوات الأخيرة فى صناعة أجهزة للعلاج الطبى باستخدام الكوبالت الناتج من محطاتها الذرية . ومن المفارقات أن يسمى هذا الجهاز — قنبلة الكوبالت — وهو ليس بقنبلة ، وإنما سمى بذلك مجازاً ، وقد عرض أحد هذه الأجهزة فى المعرض الصناعى السوڤيتى الأخير فى القاهرة ، ولو أنه كان خلواً من الكوبالت المشع .

وقد أحدثت الذرة تطوراً عظيما فى صناعة التعدين ، فرفعت من شأن معادن ، وخفضت من شأن معادن أخرى ، وسبحان المعز المذل . ومن المعادن التى ارتقت فى العصر الذرى أيضاً معدن (الزركون) ، وميزته الأساسية أنه قليل الامتصاص للدقائق الصغيرة المعروفة باسم النيوترونات التى تتولد بأعداد هائلة فى التفاعلات الذرية ، وهى المصدر الأول للطاقة فيها ؛ فالحديد يمتص النيوترونات أكثر من الزركون بعشرة أضعاف ، والنيكل خمسين ضعفاً ، والنحاس بثلاثين ضعفاً ؛ ومعنى ذلك أنه فى بناء الأجهزة الذرية يحسن استخدام الزركون بدل الحديد ، وهو من جهة أخرى لا خطر له وحده ، ولذلك يسبك مع الحديد وغيره لإنتاج أنواع الصلب التى تطيق الحرارة الشديدة ، ولا تسلب التفاعل الذرى قوته بامتصاص نيوتروناته التى هى عصب الحياة فيه.

والزركون فى مصر فى الرمال السوداء فى رشيد ، وقد ارتفع ثمنه فى أسواق العالم ارتفاعاً كبيراً، أما الكادميوم فمبعث شهرته أنه شره جدا ، بل لعله أكثر العناصر شراهة فى امتصاص تلك النيوترونات . ولذلك تصنع منه قضبان التحكم فى الآلات الذرية ، وتكفى ثلاثة أو أربعة منها فى وقف أى تفاعل ذرى ، وعند ما تسحب تدريجاً من جوف الآلة ينشط التفاعل ، فإذا رجعت ثانية توقف التفاعل وهكذا . فالكادميوم هو صمام الأمن وممسك الأعنة فى الآلة الذرية ، ويمتص من النيوترونات ١٥٠٠٠ واحد كلما امتص الزركون واحداً فقط .

والتطور الذى يحدث فى قيمة المعادن — معناه هبوط ثروات مفاجئة على مناطق كانت فقيرة مثلما يكشف عن الزيت فى مكان ما ، فيسيل الذهب بين أيدى أصحابه ، كما يسيل فى الوقت نفسه لعاب الجشع والطمع عند المستغلين !

وقد خلقت الطاقة الذرية فى عشر سنوات (إمبراطوريات) مالية وتعدينية ضخمة قائمة على استخراج اليورانيوم والثوريوم والبريليوم والزركون والكادميوم وغيرهامن العناصر التى (لمع) اسمها حديثاً ، كأنها كواكب المسرح ونجوم السينما !

ولكن متى بدأ هذا الذى نقوله عن الذرة والحرب الذرية والمحطات الذرية والأشعة والسيزيوم ،وكلها ألفاظ غريبة ؟ إنها لغة جديدة ، يبدو أننا لا بد أن نتعلمها ، ونلتقطها من الصحف يوماً فيوماً حتى تصبح جزءاً من كياننا .

وقد شاع فى الاستخدام عبارة (قصة ذرية) بمعنى أنها قصيرة قوية واضحة ، ولعلنا نتوقع من رجال الأدب والفن فى العالم إنتاجاً (ذرياً) من شعر ونثر وتصوير وتمثيل ونحت ؛ فلا نقول بسرعة البرق ، ولكن نقول بسرعة الإلكترون ، ولا نقول كأن عينه ينبعث منها الشرر ، ولكن تخرج منها الأشعة الجيمية ، ولا نقول إن اسمه سيخلد بماء من ذهب على صفحة التاريخ ، بل نقول سيخلد بالماء الأثقل من الثقيل على رقيقة من البلتونيوم . ولا تسأل عن معنى ذلك الآن ! .

ومن المألوف أن تعتز الصحف بنشر نبذ مما جاء فيها منذ خمسين أو مائة عام . ومن الطريف دائماً أن يطالع المرء هذه النبذ ؛ لأنها ترجع به إلى صورة قديمة كانت الأحداث توضح معالمها يوماً بعد يوم على حين كانت تلك الصورة حينئذ فى عالم الغيب ؛ وتبعاً لهذا نشرت إحدى المجلات الخاصة بالطاقة الذرية بعض

الأنباء القديمة التي نشرت منذ ٥ سنوات — أي نعم — ٥ سنوات فقط تعتبر تاريخاً قديماً للطاقة الذرية لأن التقدم سريع جدا ؛ ولا غرو فهو تقدم ذرى بمعنى الكلمة .

والمؤرخون الذين يدرسون تاريخ الذرة — يرجعون إلى عام ١٩٣٨ ، ويقولون عنه الفجر الذرى ، ويبدأ التاريخ عندهم من سنة ١٩٣٤ ، والفتح من سنة ١٩٤٢ ، والرأى السائد بينهم أننا لا زلنا فى فجر العصر الذرى .

وعند ما يتحدثون عن سنة ١٩١٨ حينما أمكن تحويل أحد العناصر علمياً إلى عنصر آخر يبتسمون ويقولون : إن ذلك كان فى عصر ما قبل التاريخ ! أى ما قبل التاريخ الذرى .

* * *

يحدث هذا كله ، ونسمع به ونشاهده .

ويحدثنى صاحبي قائلا: الآن قد تبينت حقًّا أن العلم له عقل نيِّر ، وأن موكبه فى تقدم ، وشأنه يزداد خطراً ، ونتاجه ظاهر للعيان ، وكشوفه تترى ، وفتوحه تتتابع ، وقدرته عظيمة ، وهمته عالية ، وقبضته قوية ، وقدمه راسخة ، ورأسه مرفوع ، وهامته منصوبة ، وعينه فاحصة ، ونظرته صائبة ، وضربته قاصمة ، ورايته خفاقة . . . . ولكن . . . . كأنما العلم لا قلب له — ولا جمال ولا عدل ولا غناء فيه !

وكأننا معه نساق إلى حتفنا سوقاً ، ونسوق غيرنا معنا إن طوعاً وإن كرهاً .

وإننا لنفتقد معه الهدوء والسلام والاطمئنان والرحمة والحنان .

قلت له : أو ظننت أننى أحدثك عن الجانب الإنسانى للعلم ؟ لا ، بل كان حديثنا مستطرداً عن الذرة فى الحرب والسلم ، أما حديث القلب فاليوم مرجأ وإلى لقاء .



طرق التجارة العربية من عهد سبأ إلى صدر الإسلام

بقلم الدكتور حسن الباشا

منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد كانت بلاد اليمن بحكم موقعها الممتاز نقطة تبادل تجارى بين الحضارات العريقة التى نشأت فى وادى النيل وفى وادبى دجلة والفرات وفى حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة ، وبين الحضارات التى عاصرتها فى أوقات مختلفة فى الهند وفى جنوب شرق آسية وفى شرق إفريقية من جهة أخرى . ونظراً إلى صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر بالإضافة إلى سيطرة اليمن على مدخله الجنوبى ، وإلمام اليمنيين بالملاحة فى المحيط الهندى وفى البحار المحيطة ببلادهم ، استطاعت الدول اليمنية القديمة أن تحتكر التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، وأن توجهه لمصلحتها على طول طرق القوافل فى شبه جزيرة العرب .

وتخترق بلاد العرب ثلاث طرق رئيسة للقوافل تسيطر عليها الطبيعة الجغرافية ، التى حصرتها فى طرق محددة تمتد على طول الوديان الجرداء فى شبه الجزيرة ، وعلى طول التهائم وحواف الجبال المحاذية لسواحل البحار. وكانت سلع الشرق تنقل إلى حوض البحر الأبيض المتوسط وبالعكس على طول أحد هذه الطرق ، فكانت تفرغ من السفن فى جزيرة سقطرى أو فى الموانئ الجنوبية فى شبه الجزيرة مثل المُكلا فى حضرموت وعدن فى اليمن ، ثم تنقل من الساحل الجنوبى على ظهور الإبل إلى الغرب مارة بشَبْوة وتِمنَع ومأرب وصنعاء، ثم تتجه شمالا على طول الحافة الداخلية لجبال السراة فى محاذاة ساحل البحر الأحمر مخترقة تهامة والحجاز ، ومارة بمكة والمدينة إلى العلا وهكذا إلى بطرة ، حيث كانت تخرج طرق فرعية إلى تدمر وإلى الشام وإلى مصر ، ومن هذه الطرق الفرعية السكة التى أنشأها طريانوس قيصر من مأدبا إلى وادى موسى . ويعتبر هذا الطريق الممتد من أقصى جنوب شبه الجزيرة إلى أقصى شمالها أهم طرق القوافل العربية ، وكان الطريق التجارى الرئيسى بين إمبراطورية الإسكندر الأكبر وخلفائه وبين دول الشرق . وكان النبط يشرفون على الجزء الشمالى منه ، فكانوا يستقبلون التجارة القادمة من جنوب بلاد العرب ، ثم يقومون بنقلها إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط وإلى بلاد فارس ، وظلوا يقومون بهذه المهمة من القرن الأول قبل الميلاد حين قضى ترايان على مدينتهم بطرة فى سنة١٠٦م وضمها إلى الكورة العربية . ثم حل محلهم فى هذا العمل التدمريون إلى أن خرب أوريليانوس تدمر بعد أن أسر ملكتها زنوبيا أو زينب فى سنة ٢٧٣ م .

أما طريق القوافل الثانى فيمتد من أقصى شمال بلاد اليمن على طول وادى الدّواسر إلى وسط بلاد العرب ، حيث يتصل بطريق آخر خلال وادى الرّمة إلى جنوب العراق ، وكان هذا الطريق الوسيلة الرئيسة للاتصال بين اليمن ودول العراق فى القديم .

ويمتد الطريق الرئيسى الثالث من وسط شبه الجزيرة على طول وادى السرحان إلى جنوب شرق سورية ماراً بواحات الجوف فى الشمال .

ولقد لعبت الطبيعة الصحراوية فى شبه الجزيرة دوراً مهمـًا فى طريقة الإشراف على هذه الطرق ،إذ جعلتها تحت رحمة العرب الذين صاروا بفضل الصحراء

المسيطرين الوحيدين عليها ، وصار من المتعذر على الأجانب أن يخوضوها ؛ ذلك لأن الصحراء كالمحيطات لا يسلكها إلا من يملك وسائلها ، ويقدر على حياتها ، ويكون ملماً بأحوالها ومسالكها . ومن ثم باءت بالفشل جميع المحاولات الخارجية للسيطرة على طرق القوافل ، وانفرد العرب دون منافس بالإشراف على التبادل التجارى بين الشرق والغرب .

وبفضل احتكار اليمن لهذا التبادل التجارى الدولى ، فضلا عن ثروتها الطبيعية من البخور الذى كان سلعة تجارية عالميـــة رائجة فى الطقوس الدينية ، ضربت بسهم وافر فى الحضارة والمدنية . ويثبت ذلك الحفائر الأثرية على قلتها ، والنقوش اليمنية الفخمة التى أقبل العلماء على جمعها وقراءتها واستقرائها ، والكتب الدينية كالتوراة والقرآن ، وقصص الإخباريين المسلمين الذين راعتهم الحضارة اليمنية القديمة حتى إنهم نسبوها إلى الجن .

ولا شك أن ثراء بلاد اليمن ، وتعرضها للثقافات المختلفة بفضل موقعها الممتاز ، وإشرافها على التبادل التجارى الدولى مكنها من التقدم إلى درجة من الحضارة استطاعت بفضلها أن تسيطر على مصادر الثروة الطبيعية فأقامت السدود التى نظمت استغلال مياه السيول ، وحفرت القنوات ومجارى المياه ، وأصلحت وسائل الرى ، فتحول جزء كبير من الجبال والصحارى إلى أرض خصبة صالحة للزراعة . ولم يقف الأمر عند الرخاء المادى ، بل إن الثراء الاقتصادى صحبه تقدم سياسى ، فكانت بلاد اليمن من أقدم مناطق شبه الجزيرة العربية التى عرفت النظام الحكومى . وإذا كان من المتعذر فى الوقت الحاضر أن نتعرف على بداية الحضارة اليمنية فإنه قد ثبت بالأدلة العلمية أن بلاد اليمن كانت منذ نهاية الألف الثانى قبل الميلاد دولة مستقرة ذات سياسة داخلية وخارجية .

وبفضل إشراف اليمن على الطرق التجارية المنبثة فى شبه الجزيرة أخذت حضارتها تنتشر فى بلاد العرب ، ويرجح أن انتشار هذه الحضارة يرجع إلى الحاميات والمستعمرات اليمنية التى كانت تقوم على طول هذه الطرق ، والتى كانت تختلط بالقبائل العربية الأخرى المجاورة ؛ كما يرجح أن وجود القبائل التى تنتسب إلى أصل يمنى فى وسط شبه الجزيرة وشمالها ، والتى عرف بعضها مستوى راقياً نسبياً من التحضر يرجع إلى هذه الأسباب . ولقد عثر على نقوش عربية جنوبية قديمة وكتابات أخرى تتصل اتصالا وثيقاً بالخط المسند اليمنى فى أنحاء مختلفة من بلاد العرب ، مما يثبت انتشار الحضارة اليمنية . وقد سميت هذه الخطوط بحسب الأماكن التى وجدت فيها : ومنها الخط الصفوى الذى عثر عليه فى جبل الصفا بحوران ، والخط اللحيانى نسبة إلى بنى لحيان بالعلا والحجْر ، والخط الثمودى الذى كان يعتقد أنه يرجع إلى ثمود والذى عثر عليه فى جهات مختلفة من شبه الجزيرة . وإذا كانت بعض المحاولات الحديثة ترجع هذه الخطوط إلى أصول ساميّة شمالية ، فإنه لا يمكن ، بأية حال من الأحوال ، أن ينكر التأثير اليمنى الكبير الواضح فيها .

غير أن سيادة بلاد اليمن على طرق القوافل التى كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى تحضرها اكتنفها منافسات شديدة كانت ترمى إلى تحطيم الاحتكار اليمنى للتبادل التجارى بين الشرق والغرب . ولم تكن دول اليمن فى كثير من الأحيان بقادرة على أن تحل هذه المشكلة حلاً موفقاً ، بل إن فشلها فى القضاء على هذه المنافسات أدّى أخيراً إلى ضياع استقلالها .

وكانت المنافسة الخارجية تهدف إلى السيطرة على طرق التجارة بين حوض البحر الأبيض المتوسط وبين الشرق ، وكانت الوسيلة لتحقيق ذلك هى احتلال اليمن ، أو — إذا لم يتيسر ذلك — تحويل التجارة إلى طريق البحر الأحمر ، والقيام بالإشراف على نقلها من الهند إلى مصر .

والحق أن تنظيم نقل التجارة بين الشرق والغرب عن طريق مصر كان من المسائل التى نالت العناية منذ عصر قدماء المصريين. وكان المشروع المصرى يقوم على تسهيل نقل التجارات القادمة فى البحر الأحمر إلى البحر الأبيض. وقد تفتق ذهن المصريين عن حفر قناة تربط البحر الأحمر بالنيل ليتسنى نقل المتاجر عبر مصر فى طريق مائى، دون الاضطرار إلى تفريغها فى الموانئ المصرية على البحر الأحمر، حيث تنقل بالوسائل البرية، أى على ظهور الجمال، إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط، أو إلى بعض الموانئ على النيل لتشحن من جديد. غير أن هذه القناة أهمل شأنها فتعطلت الملاحة فيها، واستبدل بها طريق القوافل المصرية على ما فيه من مشقات؛ ومن ثم لم تكن المنافسة المصرية ذات خطر على طرق القوافل العربية فى عصر قدماء المصريين.

إلا أن الاحتكار العربى للتبادل التجارى بين الشرق والغرب استرعى نظر اليهود. وفى سفر الملوك تفاصيل بما قام به سليمان فى القرن العاشر قبل الميلاد من منافسة للطرق العربية. من ذلك أنه أحيا طريق البحر الأحمر، فبنى فيه أسطولا تجاريًّا جعل مقرّه فى عصيون جابر. وكان هذا الأسطول يبحر من ميناء أيلة الذى أصلحه سليمان إلى شواطئ بلاد اليمن حيث يشحن بمنتجات الهند واليمن والحبشة، ثم يعود بها إلى أيلة حيث تفرغ ومن ثم تحمل على ظهور الإبل إلى القدس. واستعان سليمان فى مشروعاته التجارية بأحيرام الفينيقى صاحب صور. ولقد أشارت التوراة والقرآن إلى صلة سليمان ببلاد اليمن عند التعرض لقصة ملكة سبأ.

وعند ما ظهر اليهود كقوة تجارية كان الفينيقيون لا يزالون يسيطرون على تجارة البحر الأبيض المتوسط، ولكن سرعان ما أخذ النفوذ الفينيقى فى الزوال ليحل محله النفوذ اليهودى؛ حتى إذا قضى الرومان على الفينيقيين والمقدونيين فى القرن الثانى قبل الميلاد انفرد اليهود بالسيطرة التجارية. ولكن الرومان لم يتركوا اليهود يثْرون على حساب إمبراطوريتهم الواسعة، فوجهوا عنايتهم نحو القضاء على نفوذهم. فى بداية القرن الأول الميلادى قضوا على مراكز التجارة العالمية اليهودية، وفى سنة ٧٠ م خربوا معابد القدس، وأرغموا اليهود على الجلاء والتفرق فى بلاد الأرض.

كان من الطبيعى أن يتجه كثير من اليهود فى هجرتهم بعد سنة ٧٠ م نحو الطرق التجارية العالمية ويستقروا على طولها، ومن أهم هذه الطرق طريق القوافل العربية وأفرعه المختلفة، ومن ثم استقروا أولا عند طرفه الشمالى فى بطرة التى كانت ذات أهمية كبيرة من حيث التبادل التجارى، كما استقروا فى الواحات الواقعة على طول طريق القوافل فأقاموا فى تيماء والعلا ويثرب، واتجهوا نحو اليمن ونحو أكسوم فى الحبشة. وهكذا أخذ اليهود يشاركون العرب فى السيطرة على طريق القوافل، بل أخذوا يسودون فى الواحات الواقعة على طوله، كما كان شأنهم فى يثرب قبيل الإسلام. ولا شك أن وجود اليهود فى بلاد اليمن، وفى الواحات الواقعة على طول الطرق التجارية التى تسيطر عليها كان باعثاً على الاضطراب والمنافسة بين العرب واليهود.

أما منافسة الغرب لبلاد اليمن حول طرق القوافل فقد تمثلت فى مناوأة اليونان والبطالمة ثم الرومان والبيزنطيين من بعدهم. ولقد كان لهذه المنافسة جوانب مختلفة. فمن جهة كان لها جانب سلمى، إذ كان قيام اليونان بالاتصال التجارى مع اليمن عاملا على استيطان كثير من اليونان فيها، مما كان من نتيجته الأثر الواضح للحضارة الهيلينية فى الدول اليمنية القديمة.

غير أن هذه المنافسة كان لها جوانب أخرى، ففى مصر عنى البطالمة بالإشراف على التبادل التجارى بينها وبين الهند، وعملوا للوصول إلى ذلك على تحقيق بعض المشروعات: فأعاد بطلميوس الثانى (٢٨٥ — سنة ٢٤٦ ق. م) حفر القناة التى كانت تربط بين النيل والبحر الأحمر، كما عنى بإنشاء خطوط

مواصلات بحرية مباشرة بين مصر والمحيط الهندى . وبالإضافة إلى ذلك كان من وسائل البطالمة الإلمام بأسرار الملاحة فى المحيط الهندى ، حتى يقوموا بأنفسهم بالاتصال المباشر مع المنتجين الهنود ؛ وقد تمكن هيبالوس اليونانى فى القرن الأول قبل الميلاد من أن يقوم بأول رحلة بحرية إلى الهند وقد اكتشف أثناءها أن الرياح الموسمية فى المحيط الهندى تغير اتجاهها صيفاً وشتاء .

وكان هذا الاكتشاف بمثابة ثورة فى الوسائل التجارية بالنسبة لليونان والرومان من بعدهم . وكان من عناية البطالمة بالتجارة الخارجية كذلك أن استخدموا بعض الجاليات اليمنية مثل الجاليات المعينية فى تقديم المعونة لهم فى هذا الصدد ، كما يتضح من الكتابات المعينية التى عثر عليها فى مصر وفى ديلوس ، والتى ترجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد . ولا شك فى أن عناية البطالمة بالتجارة العالمية بين الهند ومصر انطوت على منافسة خطيرة لطريق القوافل العربى ، كما ألحقت أضراراً بالغة بالتجارة العربية ، وأثرت تأثيراً سيئاً فى الوضع العام فى دول اليمن .

ولكن لم تلبث الأحوال أن استتبت فى بلاد اليمن من جديد ، إذ ورثت دولة سبأ معظم الدول العربية الجنوبية ، وأخذت فى الازدهار فعنيت بالمرافق العامة ، وأحسنت معاملة التجار ، وشجعت طريق القوافل مما عاد بالثراء على الدولة . وفى تلك الأثناء كانت دولة البطالمة فى آخر أيامها ، إذ استغرق حكامها فى الترف ، وأهملوا المصالح الحيوية بما فى ذلك الشئون التجارية . ولا شك فى أن هذه الظروف قد مهدت لزوال البطالمة ، ووقوع مصر فى قبضة الرومان بعد موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق . م .

كان فتح الرومان لمصر ذا أثر مباشر على اليمن ، فلم يلبث الرومان بعد احتلالهم مصر أن حاولوا احتلال اليمن : ففى سنة ٢٤ قبل الميلاد كلف أغسطس قيصر القائد إليوس جالوس ، واليه على مصر ، أن يقوم بغزو اليمن . وكان الغرض الرئيسى للرومان من ذلك هو الاستيلاء على طريق القوافل العربى ، واحتكار تجارة البخور وغيرها من محصولات جنوب بلاد العرب ، ومحصولات الهند والصين ، وتأمين طريق التجارة الرومانية فى البحر الأحمر وبحر العرب من غائلة قراصنة العرب الذين كانوا يهددونها من سواحل الحجاز واليمن . وبعد أن وصلت سفن الحملة ميناء لويكه كومه بدأ الرومان سيرهم براً فى محاذاة ساحل البحر الأحمر تحت إرشاد سُلَّىْ الوزير النبطى الذى ضلل الرومان ، وقادهم إلى طرق وعرة ، كان نتيجة سلوكها أن وصلت الحملة بلاد اليمن فى مدى ستة أشهر بعد أن قاست كثيراً من المشاق ، وتعرض أفرادها للجوع والعطش وفتك الأمراض . ويرجع استرابون الذى كان معاصراً للحملة سبب الفشل الذريع الذى منيت به الحملة إلى مناعة البلاد الطبيعية ، على أنه من المحتمل أن الرومان قد نجحوا فى الاستيلاء على عدن فى القرن الأول الميلادى .

ويبدو أن فشل الرومان فى السيطرة على طريق القوافل أدى إلى انتعاش بلاد اليمن ، فعملت على ازدهار التجارة ، وعنيت بطريق القوافل . وقد ظهر أثر ذلك فى عهد الدولة السبئية فى القرن الثانى الميلادى ، إذ تمتعت بلاد اليمن بالرخاء وبعثت فيها الحياة من جديد . وقد نجحت سبأ فى أواخر القرن الثالث الميلادى ، فى أن تتم بسط نفوذها على دول اليمن ، وبالتالى تسيطر على جميع المنافذ الجنوبية لطريق القوافل . ويصف الإخباريون العرب الملك شمرعش الذى اعتلى عرش سبأ فى أواخر القرن الثالث الميلادى وأوائل القرن الرابع بأنه كان فاتحاً عظيماً ، وجَّه جيوشه نحو فارس وبلاد الصغد وبلاد الروم . وإذا كان من المتعذر التحقق من هذه الفتوحات الواسعة ، إلا أنه من الواضح أنه كان محارباً نشيطاً ، فقد غزا حضرموت وضمها إلى ملكه ، وبذلك امتد نفوذ سبأ إلى الموانئ الواقعة فى شرق الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة ، كما يرجح أنه بسط سلطانه فوق المرتفعات

الجنوبية الغربية من بلاد اليمن كما يشير إلى ذلك تلقبه «بملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات» بعد أن كان الملوك يلقبون قبله بلقب « ملك سبأ وذو ريدان » فقط . ولا شك أن محاولات شمريهرعش مكنت سبأ من الإشراف على التجارة الهندية القادمة إلى موانئ حضرموت من جهة ، وعلى المرتفعات اليمنية التى تشرف على طريق القوافل الرئيسة من جهة أخرى .

ولكن سرعان ما ذبل ازدهارسبأ ، بالحروب الداخلية التى استعرت نيرانها فى القرن الثالث الميلادى وأوائل القرن الرابع ، ثم احتلال الأحباش لبلاد اليمن فيما بين سنتى ٣٤٥ ، ٣٧٨ م . وكان من أثر ذلك أن أخذ طريق القوافل فى التدهور ؛ وساعد على هذا التدهور الصراع الذى نشب بين دولتى الرومان والفرس ، ومحاولة كل من الدولتين أن تكون صاحبة النفوذ فى التجارة العربية ، حتى تتمكن من فرض الحصار الاقتصادى على الدولة المنافسة .

ولا شك فى أن الحملة التى قام بها امرؤ القيس ابن عمرو ملك الحيرة الموالى للفرس على نجران ، والتى وردت الإشارة إليها فى نقش النمارة (سنة ٣٢٨ م) تعتبر فصلا من الحروب الرومانية الفارسية ، التى استمرت من سنة ٢٩٦ إلى سنة ٢٩٨ م . ولقد تلقب امرؤ القيس فى النقش المذكور بلقب « فاتح نجران مدينة شامر » ، كما تلقب « بملك العرب كلهم » . ومن الواضح أن تلك الحملة كانت محاولة قام بها امرؤ القيس للسيطرة على القبائل العربية المقيمة بين حدود الهلال الخصيب ، والحدود الشمالية لبلاد اليمن ، وفى الوقت نفسه كانت محاولة للسيطرة على طرق القوافل العربية ، وللقضاء على الاحتكار اليمنى للتبادل التجارى بين الشرق والغرب . وقد تصدى لهجوم امرئ القيس على نجران ملكان أخوان كانا قد استطاعا أن يستوليا على مأرب من ملكها الشرعى شمريهرعش ، وأن يغتصبا لقبه : وهما إلْشَرَح يحضب ويأزل باين . ويبدو أنهما استعانا على صد هجوم امرئ القيس بتحالفهما مع ملك قبيلة كندة أى سيدها ؛ ويعتقد أنه فى ذلك الوقت هاجر جزء من قبيلة كندة نحو الشمال حيث قاموا بتأسيس مملكة كندة فى نجد ؛ ولقد ظلت مملكة كندة مخلصة لملوك اليمن الذين كانوا حريصين على أن يولوا عليها ملوكاً موالين لهم ؛ ولا يخفى ما فى ذلك من أهمية للنفوذ اليمنى على الطرق التجارية .

وبعد حملة امرئ القيس على نجران بنحو قرن من الزمان قام أبو كرب أسعد حوالى (٣٨٥ — ٤٢٠ م) مع ابنه حسان بهجوم مضاد نحو الشمال . وكان هذا الملك اليمنى أو « تُبَّع » يبغى من وراء حملته أن يبسط نفوذه على بلاد العرب ، وبالتالى أن يمكن للسيطرة اليمنية على التبادل التجارى على طول طرق القوافل العربية . ولكى يقرّ أبو كرب أسعد النفوذ اليمنى على الطرق التجارية حرص على أن يولى بعض أقاربه فى المراكز المهمة المسيطرة على هذه الطرق . ففى أثناء هذه الحملة عين أحد أبنائه أميراً على أهل يثرب ، ولكنهم لم يلبثوا أن قتلوه بعد مسير أبيه مما كان سبباً فى تأديبهم على يد الملك . وتمشياً مع هذه السياسة أقام أحد أقاربه ملكاً على كندة وهو حجر آكل المرار ؛ وكان ملوك كندة منذ تأسيسها من أسرة موالية للملكين الأخوين إلشرح يحضب ويأزل باين ، وكان الأخوان منافسين للملك شمريهرعش الذى ينتمى إليه الملك أبو كرب أسعد نفسه ، ومن ثم فقد حرص أبو كرب أسعد على أن يولى ملكاً جديداً موالياً لأسرته . وبعد استقرار الأحوال فى كندة تقدم نحو الحيرة واستولى عليها ، ثم توغل فى الأراضى الفارسية حيث لم يلق مقاومة تذكر من الفرس الذين كانوا فى حالة سيئة من الاضطراب والفوضى ، بعد وفاة الملك يزدجرد الأول فى سنة ٤٢٠ م . ولقد غنم أبو كرب أسعد من هذه الغزوة مغانم طائلة رجع بها إلى بلاده ، وفى أثناء عودته زار مكة حيث كسا الكعبة بفاخر الثياب . ويعتقد أن دخول أبى كرب أسعد

الأراضى الفارسية كان فى سنة ٤٢٠–٤٢١ م حين كان الفرس مشغولين فى الحرب مع الرومان، أوفى سنة ٤٢٥م أثناء تهديدهم بغزو قبائل الهون فى بكتريا مما أدى إلى احتشاد الجيوش الفارسية فى مرو .

وهكذا نجد الظروف الخارجية قد مكنت أبا كرب أسعد من غزو بلاد الفرس غزواً مؤقتاً . والحق أن هذه الظروف الخارجية ساعدت فى القرن الخامس على أن تهيأ لبلاد اليمن فترة من الهدوء والأمن أدت إلى ازدهارها، وإلى تفرغ التبابعة الذين كانوا يحكمون اليمن فى ذلك الوقت للعمل على إحياء طرق القوافل العربية ، والسيادة على التبادل التجارى بين الشرق والغرب . فمن جهة شغلت كل من الدولتين الفارسية والرومانية بهجمات الهون والجرمان على التعاقب، مما صرفهما مؤقتاً عن تحقيق مطامعهما فى التحكم فى التجارة العالمية ، وعن محاولة السيطرة على طرق القوافل العربية . ومن جهة أخرى يبدو أن السياسة الداخلية فى الحبشة كانت مضطربة بحيث لم يتيسر لحكومة مركزية أن توحد السلطة فى يدها ، أو أن تصبح منافساً خطيراً لبلاد اليمن المواجهة لها على الطرف الجنوبى من البحر الأحمر . وهكذا أمنت اليمن التهديد من الشمال ومن الجنوب ، وتمتعت بسلم وهدوء داخليين، ورخاء اقتصادى ، وازدهار ثقافى وحضارى ظهرت آثاره فى العمائر والتماثيل والآثار، لا سيما النقوش الفخمة التى أخذت تزداد تأنقاً مع مرور الزمان . وينهض دليلا على ذلك الأخبار التى تستشف من النقوش القديمة التى عثر عليها ، والأساطير التى رواها الإخباريون العرب عن التبابعة ، وسعة نفوذهم ، وانتشار فتوحاتهم .

ولكن لم تلبث بلاد اليمن فى القرن السادس الميلادى أن تهددت حضارتها بالتحلل والانهيار ، وأخذت تفقد سيادتها على طرق القوافل . ويرجع ذلك إلى أن الهدوء الذى كانت تتمتع به فى القرن الخامس الميلادى قد ذهب تبعاً لزوال الظروف الخارجية التى نتج عنها ، ذلك بأن الدولتين الكبيرتين الساسانية والبيزنطية كانتا قد تمكنتا من صد الخطر البربرى الذى كان يتهددهما ، وتفرغتا لمرحلة جديدة من مراحل الصراع المستمر بين الشرق والغرب ، ومن ثم تعرضت بلاد اليمن للمطامع التجارية الاحتكارية ، ومنافسة طرق التجارة العالمية من قبل الدولة البيزنطية . ومن جهة أخرى كانت مملكة أكسوم بالحبشة قد تخلصت هى الأخرى من اضطرابها الداخلى ، واتحدت تحت حكم شخصية قوية هو الملك الأصبح الذى طمع فى السيطرة على بلاد اليمن الغنية بثروتها الطبيعية ، وموقعها التجارى الممتاز ، كما أراد أن يؤمن طريق التجارة الحبشية من خطر القراصنة العرب .

ولقد تورطت بلاد اليمن فعلا فى الصراع الذى نشب بين الكتلتين الكبيرتين فى أوائل القرن السادس الميلادى ، ويستشف من النقوش اليمنية القديمة ، ومن الأخبار التاريخية أن التبابعة قد ساهموا فى الحروب الفارسية البيزنطية التى استمرت من سنة ٥٠٦ إلى سنة ٥٢٦ م ، إذ كان من الطبيعى أن تحاول كل من الكتلتين أن تكسب العرب إلى جانبها . ويشير بعض النقوش إلى أنه فى سنة ٥١٦م خاض الملك معديكرب يعفر « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها فى النجاد والتهائم » الحرب مع القبائل الموالية له ضد المنذر وقبائله الموالية للفرس ، ويلاحظ أن اليمن كانت إلى ذلك العهد موالية للبيزنطيين ضد الفرس غالباً .

ولكن بعد ذلك ظهر على المسرح عامل دينى دفع اليمن إلى أن تعيد النظر فى موقفها من الصراع الفارسى البيزنطى ، وأن تنحاز إلى جانب الفرس . ذلك بأنه كان من وسائل البيزنطيين لكسب العرب إلى جانبهم أن ينشروا المسيحية بينهم ، وتمشياً مع هذه السياسة يرجح أن بيزنطة شجعت المسيحية فى نجران ، بحيث صارت خطراً يهدد التبابعة من الشمال ، فضلا عن تهديدها لهم من الجنوب فى الحبشة . وكانت المسيحية منذ صارت الدين الرسمى للدولة البيزنطية تمثل النفوذ الأجنبى فى بلاد اليمن ، لا سيما بعد احتلال الحبشة لها من سنة ٣٤٥ إلى سنة ٣٧٨ م . ويعتقد

أن الخطر المسيحى هو الذى حدا بذى نواس آخر ملوك التبابعة وآخر الملوك المستقلين فى اليمن القديم إلى أن يعتنق اليهودية . وتذكر الأخبار أن ذا نواس أو يوسف أسأر — وهو الاسم الجديد الذى تسمى به بعد تهوده وهو الذى يرد فى النقوش — عقد معاهدة مع المنذر الثالث ملك الحيرة وحليف الفرس . والواقع أنه باعتناق ذى نواس لليهودية صار حليفاً طبيعياً للفرس ضد البيزنطيين ، ومن ثم ضاع أمل البيزنطيين فى احتكار التجارة العالمية بالوسائل السلمية ، وكان لا بد من التدخل بالقوة المسلحة لتحقيق المطامع الاستعمارية : فكان الغزو الحبشى البيزنطى لبلاد اليمن منذ سنة ٥٢٢ م ، وسقوط دولة التبابعة ، واحتلال اليمن على يد الأحباش نهائياً فى سنة ٥٢٥ م .

ويعتبر احتلال اليمن على يد الأحباش بادرة من بوادر انهيار الحضارة اليمنية العريقة . وليس من شك فى أن ما يجره الاحتلال عادة من مصائب للبلد المحتل ، وما يصحبه من سوء الإدارة ، وإهمال المرافق الحيوية ، وإفساد الأخلاق ، وانهيار الحياة الاقتصادية ، والاضطرابات الداخلية ؛ قد تعرضت له بلاد اليمن فى ذلك الوقت . فتشير النقوش والأخبار التاريخية إلى عدد من التصدعات أصابت سد مأرب ، وإلى حروب داخلية ، وفتن ومؤامرات ، وإلى هجرة القبائل اليمنية ، وإلى منافسات دينية . كلها كانت عوامل خطيرة أدت إلى انهيار الحضارة اليمنية انتهى بخراب سد مأرب خراباً تاماً فى عصر الاحتلال . ولم تستطع اليمن أن تتخلص من الاحتلال الحبشى إلا بمساعدة الفرس ، ولتقع من جديد فريسة للاحتلال الفارسى إلى أن يحررها الإسلام .

ولذا كان من الطبيعى أن تفقد اليمن سيادتها على طريق القوافل ، لا سيما أنه كان من المتعذر على الأحباش الأجانب الإشراف على هذه الطرق المحفوفة بالمخاطر ، ويبدو أنهم فضلوا عليها طريق البحر الأحمر رغم صعوبة الملاحة فيه . ولم تكن السيادة على هذه الطرق لتنتقل إلى دول الشمال التى لم تكن تتمتع فى ذلك الوقت بأهلية سياسية تفضل حالة اليمن : فدولة النبط كانت قد دخلت فى حوزة الرومان منذ أن قضى ترايان على استقلالها سنة ١٠٦ م ، كما كانت تدمر قد قضى عليها على يد أوريليانوس بعد أن أسر ملكتها الشهيرة زنوبيا فى سنة ٢٧٣ م . أما الدولتان المعاصرتان ، وهما : دولة المناذرة ودولة الغساسنة فقد أوشكتا فى ذلك الوقت أن تتخليا عن استقلالهما تماماً للفرس والبيزنطيين على التعاقب . ومن هنا كان لا بد من انتقال السيادة على طرق القوافل العربية إلى منطقة عربية أخرى . ولقد ساعدت الظروف مكة على أن تخلف اليمن فى تلك السيادة : فموقعها وسط طرق القوافل الرئيسة ، وتجارتها فى البحر الأحمر ، وأسواقها المهمة زودتها بالتجارب الاقتصادية ، وأشربتها روح المال والتجارة ، وجعلتها بيئة تجارية قروناً كثيرة ، وهيأت لها فرصة الاتصال بالحضارات العربية والخارجية فى الشمال وفى الجنوب . ولقد ورثت مكة ومنطقة الحجاز عامة روح الحضارة العربية التى ازدهرت فى الجنوب ، ثم انتقلت شمالا على طول طرق القوافل ، وكذلك تأثرت بثقافات الشمال . كما أن موقعها الحصين فى داخل شبه الجزيرة ساعدها على أن تكون بمنأى عن المطامع الخارجية ، وبذلك لم تخضع لأجنبى ، ولم يلوثها الاحتلال . وحين كانت بلاد اليمن ترزح تحت وطأة الأحباش ، وحين كانت دولتا المناذرة والغساسنة ومملكة كندة تترنح تحت ضغط الكتلتين الكبيرتين وتنافسهما ، كانت زعامة العرب قد آلت إلى مكة ، وتجمعت أصنامهم فى كعبتها ، وصار للغتها مركز ممتاز ، وأصبحت تتمتع برخاء اقتصادى وأمن أشار إليهما القرآن الكريم « أوَ لم نمكِّن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدُنَّا » .

وتشير الأخبار التاريخية إلى أن مكة كانت قد أصبحت فى القرن السادس الميلادى مدينة دولية يعيش فيها — إلى جانب أهلها من قريش — بعض عشائر عربية أخرى ، وأفراد من جنسيات أجنبية وديانات مختلفة ،

بعضهم من الأسرى والرقيق ، وبعضهم من أحرار التجار. ومما يؤيد ذلك الألفاظ التى استعارتها لغة قريش من اللغات الأجنبية ، والتى ورد بعضها فى القرآن الكريم ، وكذلك أسماء جماعة الأجانب الذين استجابوا للإسلام مثل سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى . وفضلا عن ذلك ظهرت فى مكة مظاهر تدل على أن أهلها قد وصلوا إلى درجة كبيرة من التحضر والروح الإنسانية ، والأخوة العالمية ؛ وليس أدل على ذلك من حلف الفضول الذى تكوّن من جماعة من قريش ، والذى كان يهدف إلى نصرة المظلوم بغضّ النظر عن جنسه ودينه ووطنه . ولقد اشترك محمد (ص) فى شبابه فى هذا الحلف ، وقال عنه بعد البعثة « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبّ أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت » .

ومن المظاهر الإنسانية فى مكة ما يرويه الإخباريون من أن أهل مكة كانوا يتنافسون فى إكرام حجاج البيت الحرام ، وكانوا يتعاونون على إطعامهم وضيافتهم ، وكانت ضيافة الحجاج تستغرق نحو ستة أيام ؛ فكان توزيع الطعام يبدأ من اليوم الذى يتجه فيه الحجيج إلى منى ، ويستمر إلى أن يغادروا مكة . ولا شك أن ظهور جماعة الحنفاء — أمثال زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ؛ الذين فطنوا إلى ما فى عبادة العرب وبعض عاداتهم من سفه ، والذين كان بعضهم على إلمام بالقراءة والكتابة — يعتبر من مظاهر التحرر الفكرى .

وفى الوقت الذى انهارت فيه حضارة الجنوب ، وفقدت اليمن أهميتها فى التبادل التجارى بين الشرق والغرب أخذت مكة تسيطر على طرق القوافل العربية ، وتحاول أن تحتكر الإشراف على نقل التجارة على طولها . ومن المرجح أن وراثة مكة لبلاد اليمن فى التبادل التجارى أخذت شكلا جدياً منذ بداية القرن السادس الميلادى ؛ ومن الأدلة على ذلك ، ما ذكره الإخباريون العرب من أن هاشم بن عبد مناف الذى ولد فى العقد السابع من القرن الخامس الميلادى هو أول من قام برحلة تجارية فى الشتاء إلى اليمن ، وبرحلة أخرى فى الصيف إلى الشام ، وبذلك كان أول من سنّ رحلة الشتاء والصيف . وفى ذلك الوقت صارت مكة خاصة والحجاز عامة أهم مركز للتبادل التجارى فى بلاد العرب ، وأصبحت المبادلات النقدية تتم فى مكة والأسواق التى تشرف عليها على نطاق واسع ، وذلك بالإضافة إلى الأعمال التجارية الأخرى كالبيع والشراء بالجملة ، والتسليف والرهن والتأمين على المتاجر والتصدير والاستيراد والمساهمة ، وكان بها سفراء يحافظون على مصالح دولهم التجارية . وفضلا عن ذلك عقدت قريش الأحلاف والمعاهدات التجارية لتؤمن قوافلها التجارية فى بلاد العرب ، وتيسر لتجارها العمل فى الدول الأخرى . ومن أمثلة ذلك أن هاشماً عقد مع بيزنطة والغساسنة معاهدة تسنى له بفضلها الاتجار فى سورية ، وعقد عبد شمس اتفاقاً تجارياً مع نجاشى الحبشة ، وسمح الفرس لنوفل والمطلب بالاتجار فى العراق وفارس ، كما عهدت بلاد اليمن بحماية مصالح قريش التجارية .

ولكن كما ورثت مكة من اليمن الإشراف على طرق القوافل العربية ، ورثت معها مشكلة المنافسة حول هذه الطرق . والواقع أن من أعنف مراحل المنافسة التى تعرضت لها مكة كانت من قوات الاحتلال الحبشية فى اليمن . ولقد صوّر الإخباريون العرب المنافسة الحبشية تصويراً دينياً : فذكروا أن أبرهة الحاكم الحبشى فى اليمن بنى بصنعاء كنيسة (القليس) تفنن فى زخرفتها وتجميلها . وكان أبرهة يهدف من ذلك إلى أن يصرف إليها حج العرب بدلا من الكعبة ؛ ولما أحس الأعراب بذلك غضب رجلان من كنانة (أو غيرها) فدنّسا الكنيسة تعبيراً عن غضبهما . فلما علم أبرهة بذلك صمم على أن ينتقم للقليس من كعبة مكة فجهز حملة كبيرة زوّدها بالفيلة ، وسار إلى مكة فى سنة ٥٧٠ م . وقد قوبل أبرهة أثناء سيره إلى مكة بمناوشات من جانب بعض

القبائل العربية ، فخرج عليه ذو نفر من أشراف اليمن الذى أسره أبرهة ، ثم تصدت له خثعم التى كانت تنزل فى الهضبة الممتدة من نجران إلى الطائف فاعترض طريقه نفيل بن حبيب الخثعمى فأسر أيضاً ، واختير لإرشاد الحملة إلى طريق مكة . وعند ما مرّ أبرهة بالطائف بعث معه ثقيف أبا رغال ليدله على الطريق ، فأنزله أبو رغال بالمغمّس ، بالقرب من مكة حيث مات فرجمت العرب قبره . واستولى أبرهة على أموال مكة ، وحاول التفاوض مع القرشيين الذين اعتصموا بالجبال ؛ ولكن أبرهة عجز عن دخول مكة بعد أن تعرض جيشه لشدائد خذلته عن تحقيق غرضه .

ويميل بعض العلماء إلى اعتبار هذه الحملة فصلا من فصول الحروب البيزنطية الفارسية الرابعة عشرة التى استعرت فيما بين سنة ٥٧١ وسنة ٥٨٠ م ، وأن أبرهة كان يرمى من ورائها إلى السيطرة على وسط بلاد العرب وشمالها ، وبذلك تتصل ممتلكاته بحدود حليفته الدولة البيزنطية فى الشام ، ومن ثم يتسنى للدولة البيزنطية أن تخنق الإمبراطورية الفارسية .

غير أن تركز الحملة ضد مكة خاصة التى تصدت للإشراف على طرق القوافل العربية بعد دخول الأحباش بلاد اليمن ، والتى انتهت إليها زعامة العرب ، وتمثلت فى كعبتها القومية العربية ، وهويت إليها أفئدة العرب يدفعنا إلى أن نعتبر هذه الحملة فصلا من المنافسة حول احتكار التبادل التجارى ، وحول السيطرة على طرق القوافل ، أخذ طابعاً دينيًّا يمثل الصراع بين المسيحية التى تمثل دين الاحتلال فى بلاد اليمن ، وبين القومية العربية . ومن هنا نلاحظ تعرض بعض القبائل العربية بما فيها بعض اليمنيين لحملة أبرهة . وبجانب ذلك الطابع الدينى فإن حملة أبرهة محاولة من جانب الأحباش للقضاء على قريش ، وعلى سيطرتها التجارية ؛ ومحاولة لاستعادة السيطرة التى كانت لليمن على طرق القوافل العربية .

ولقد كانت هزيمة أبرهة أمام مكة عاملاً مهمًّا فى ازدياد نفوذ مكة ، وفى اعتراف العرب بزعامة قريش ، وفى زيادة تغلغلها فى الإشراف على طرق القوافل ، وفى احتكار التبادل التجارى ، مما أدّى إلى ازدهار الحجاز بعامة ومكة بخاصة ، بحيث كانت مهداً صالحاً لظهور النبى (ص) فيها ومن بين أهلها .

وإلى جانب المنافسة الغربية التى يمثلها أبرهة ، تعرضت مكة لمنافسة من الجانب الشرقى ، لا سيما بعد سيطرة الفرس على بلاد اليمن فى سنة ٥٧٥ م واستيلائهم على الطرف الجنوبى لطريق القوافل الرئيسى ، بالإضافة إلى سيطرتهم على الحيرة فى الشمال ، وأصبح الخطر الفارسى يهدد نفوذ مكة . ولم ترضخ قريش لهذا التهديد بل قاومته بكل ما لديها من قوة ، ويمثل يوم الفجار الثانى طرفاً من المقاومة القرشية ، فى سبيل احتكار المبادلة التجارية حتى مع الحيرة نفسها .

ويعتبر يوم الفجار من الحروب العربية التى انتهكت فيها حرمة الأشهر الحرم ، ومن ثم أطلق عليه اسم يوم الفجار . وقد وقعت هذه الحرب بين قريش وكنانة من جهة وبين قيس عيلان من جهة أخرى فى العقد الأخير من القرن السادس الميلادى . وسببها حسبما يرويه الإخباريون : أن البراض بن قيس بن رافع الكنانى تنافس مع عروة بن عتبة الكلابى على حماية تجارة للنعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبغى توجيهها إلى سوق عكاظ ؛ ولما أسند النعمان هذه المهمة إلى عروة ابن عتبة غادر الحيرة بالقافلة التجارية ، وتبعه البرّاض وقتله ، واغتصب العير واستاقها إلى خيبر . ثم أنذر البرّاض حرب بن أمية كبير قريش بما فعل حتى يحذر قومه فى عكاظ خشية أن تأخذهم قيس عيلان على غرة . ولما كان البراض خليعاً فقد خشيت قريش — كما يزعم الإخباريون — أن قيس عيلان لن يكفيها دمه فى ثأرها لعروة ، ومن ثم فقد حاولوا التفاوض مع عامر بن مالك سيد قيس عيلان ؛ ولكن بعضاً من شباب قريش الذين كانوا فى عكاظ خرجوا مسرعين قاصدين مكة ، مما

عدته قيس عيلان غدراً فركبت فى طلبهم ، وأدركتهم عند نخلة حيث التقى الجمعان . وكانت وطأة قيس عيلان شديدة بحيث اضطرت قريشاً إلى الاحتماء بالحرم ، وهكذا أرجئت الحرب إلى العام التالى . وفى الموعد المحدد من العام التالى التقت قريش مع قيس عيلان فى عكاظ ، واستبسلت قريش فى الحرب حتى تغلبت على قيس عيلان . وأخيراً لجأ الفريقان إلى الصلح على أن يقاص بالدية للقتلى الزائدين .

وعلى الرغم من أنه من المتعذر التحقق من صحة جميع روايات هذه القصة ، فمن الواضح أن أصل هذه الحرب التى تعتبر من أشهر أيام العرب ، كان بسبب المنافسة على نقل التجارة . والواقع أن موقف قريش فى هذه الحرب يدعو إلى النظر ؛ ذلك بأن البراض الكنانى – كما يزعم الإخباريون – كان خليعاً ، ومن ثم فإن قريشاً فى هذه الحالة لم تكن مسئولة عن أعماله ، وهى فى الوقت نفسه غير ملزمة بحمايته . ولذا فإن حرصها على أن تقف إلى جانبه يوضح تأييدها لعمله ، واعتباره دفاعاً عن قضية تهمها بأسرها ، وهى مسألة احتكار التبادل التجارى . وربما كان ذلك من أسباب استبسال كبار التجار فى قريش فى هذه الحرب : فقد ذكر الإخباريون أن حرب بن أمية وسفيان وأبا العاصى قيدوا أنفسهم فى أماكنهم حتى لا يفروا ، وقد سموا يومئذ بالعنابس أى الأسود .

وإذا لاحظنا أن العير موضوع النزاع كانت للنعمان ابن المنذر ملك الحيرة وحليف الفرس لا يفوتنا ما كان فى هذا اليوم من عنصر التحدى والمنافسة الخارجية . وهكذا يمكن أن نلخص مغزى يوم الفجار الثانى بأنه فصل من الصراع ضد قريش حول احتكارها للتبادل التجارى فى بلاد العرب .

ولكن إذا كانت قريش قد نجت من حملة أبرهة ، واستطاعت أن تدافع عن مصالحها التجارية ضد المنذر وأن تمضى قدماً فى طريق سيادتها على التبادل التجارى بين الشمال والجنوب ، فإن مكة كان يهددها خطر داخلى ؛ فقد كانت حضارتها تهددها عوامل الانحلال التى تصاحب الحضارات فى كثير من الأحيان ، والتى كثيراً ما تؤدى إلى انهيارها . ذلك بأنه يبدو أن الثراء والرخاء الاقتصادى ، والإحساس بالزعامة على العرب أدت إلى ظهور آفات اجتماعية خطيرة تنم عن الترف والجشع والتعالى الجنسى . فانتشرت فى مكة مثلا عادة الإدمان على الخمر التى كانت سلعة رائجة جداً ، والإسراف فى لعب الميسر ، والخلاعة والمجون ، ووأد البنات ، وقتل الأولاد ، وإكراه الفتيات ، والمنافسات الجنسية والطبقية والعائلية ، ورغبت قريش عن حمل السلاح ومالت إلى الاستعانة بالمرتزقة من الأحابيش . ثم أخذ القرشيون يبدلون فى تقاليدهم الدينية ، تبديلا ينم عن التعالى والتفاخر بالجنس ، فأحلوا أنفسهم دون غيرهم من بعض مراسيم الحج كالوقوف بعرفات والإفاضة منها ، كما حرموا على غيرهم من العرب أن يأكلوا فى الحرم طعاماً أحضروه من خارج مكة ، وأجبروهم على الطواف حول الكعبة عراة ، إن لم يتيسر لهم الحصول على ملابس من أهل مكة ، ولم يعف النساء أنفسهن من هذه القيود ، فكانت المرأة تخلع عنها ثيابها عند الطواف إلا درعاً مفرَّجاً ، وربما كانت هذه العادات الاجتماعية السيئة هى التى عناها القرآن بالجاهلية الأولى .

وإلى جانب هذه الآفات الاجتماعية التى كانت تهدد مكة بالانهيار الذى أصاب اليمن من قبل ، كانت مكة بحاجة إلى تنظيم مستقر لتصمد للمنافسة الخارجية من قبل الدول الكبرى ، فقد كانت مهام الحكم مقسمة بين عدد من ساداتها لم يكونوا دائماً على وفاق ، ولذا كانت مكة فى حاجة إلى إصلاح شامل يرتفع بها إلى مستوى يعادل مستوى الدول الأخرى التى تنافسها . وجاء الإسلام ليسد هذا النقص ، ويعالج المشكلات الاجتماعية ، ويحفظ الروح العربية من الانحلال ، ويهيئ للقومية العربية فرصة التحرر والانطلاق .

وقفت مكة أول الأمر تنكر على النبى (ص)

دعوته لها إلى الإسلام، ونهيه لها عن الفحشاء والمنكر، وإرادته إنقاذها من الجاهلية . وكان مما أثار القرشيين على النبي (ص) خوفهم من ضياع نفوذهم ، أو الانتقاص من سيادتهم ،وتوجسهم من الحد من حرياتهم الشخصية؛ وكانوا فى الوقت نفسه يخشون أن ينظم الإسلام حياتهم تنظيماً لم تألفه روحهم المتأثرة بالبدوية ، أو أن يضع لهم أسساً لم تكن فى تقاليدهم ولم يعرفوها ، وبتعبير آخر كانوا يخشون أن يؤسس النبى (ص) دولة يكون هو رأسها .

وبعد أن يئس النبى (ص) من قريش هاجر إلى يثرب فى السنة الثالثة عشرة من بدء دعوته إلى الإسلام . وكانت يثرب مدينة يمنية التكوين والحياة : فهى واحة تقع على طريق القوافل الذى كانت تسيطر عليه مدى آلاف من السنين دول يمنية ، وكانت تقوم فيها فى تلك الأوقات حاميات يمنية لحراسة القوافل اليمنية . وكان يقطنها ، حين هاجر إليها النبى (ص) قبيلتان أجمع الإخباريون على أنهما من أصل يمنى ، وهما الأوس والخزرج وذلك إلى جانب جالية يهودية ذات نفوذ ومال . ومن هنا لم تكن تعاليم الإسلام وأنظمته غريبة على أهل المدينة الذين كانوا قد ورثوا روح الحضارة اليمنية بملوكها ودولها وقوانينها ، بل كانوا هم أنفسهم على وشك الرجوع إلى التقاليد التى اعتادها أسلافهم فى بلادهم الأصلية ، فكانوا — قبيل قدوم النبى (ص) إلى يثرب — قد اتفقوا فيما بينهم على تمليك عبد الله بن أبىّ بن سلول الخزرجى . ولعل ذلك تفسير معقول لمقدرتهم على تفهم روح الإسلام ، ونظمه المتحضرة ، ومسارعتهم إلى اعتناقه ، حين تخاذلت مكة مع تحضرها وسعة أفقها . وهو فى الوقت نفسه يبرر انتقال الإسلام فى المدينة إلى مرحلة الدولة بعد أن كان فى مكة فى مرحلة الدعوة . ولقد كان فى الرسول (ص) نفسه وفى أهل بيته أصل يمنى ،فجدُّه شيبة أو عبد المطلب كانت أمه سلمى بنت عمرو بن زيد الخزرجية ، وولد عبد المطلب فى يثرب ونشأ بها ، وقضى فيها صباه ، وقد ظلت صلته بها مستمرة بعد إقامته فى مكة فبعد وفاة المطلب أثناء رحلة له فى اليمن ، استعان عبد المطلب بأخواله بنى النجار من خزرج المدينة على عمه نوفل فأعانوه . وكما لجأ عبد المطلب إلى قوم أمه فى المدينة فوقفوا إلى جانبه ، هاجر النبى (ص) إلى المدينة واستنصرها على مكة فنصرته .

ومن هذه المدينة الواقعة على طريق القوافل الرئيسى بين مكة والشام الذى كانت قريش تحتكر التجارة فيه ، فرض النبى (ص) على مكة حصاراً اقتصاديًّا خانقاً ، فتحالف مع القبائل التى تجاورها وتقع فى طريق تجارتها ، وأخذ يرسل السرايا لمناوشة قوافل قريش التجارية ، وبسبب مناوشة من تلك المناوشات وقعت غزوة بدر بعد ثمانية عشر شهراً من الهجرة، ووجه النبى ضربة قاصمة إلى نفوذ مكة التجارى حين نجح فى ضم باذان الوالى الفارسى فى صنعاء إلى الإسلام فى السنة السادسة من الهجرة (سنة ٦٢٨م) : وبذلك هدد نفوذ مكة فى الطرف الجنوبى من طريق القوافل الرئيسى بعد أن ضيق الخناق عليها فى النصف الشمالى منه . ولا شك أن هذا الضغط الاقتصادى المنظم كان عاملاً مهمًّا فى تسليم مكة : فرضخت للصلح فى السنة السابعة من الهجرة حيث عقد صلح الحديبية الذى تسنى بمقتضاه للمسلمين أن يحجوا إلى مكة ، ثم لم تلبث أن سلمت نهائيًّا فى السنة التالية .

وبفتح مكة ورث الإسلام الاحتكار القرشى لرحلة الشتاء والصيف ،وانتهت إليه مهمة الإشراف على التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، والسيطرة على طرق القوافل العربية ، وورث مع ذلك كله عبء مجابهة المنافسات الداخلية والخارجية حول هذه الطرق . وقد وجه الإسلام عنايته نحو طريق القوافل الشمالى حيث كان عليه أن يؤمن المصالح التجارية ضد مناوأة اليهود فى الواحات الواقعة على طوله ، وضد فلول دولة الغساسنة ، وضد

القبائل العربية الشمالية الموالية للبيزنطيين ، وضد الخطر الذى يهدد التجارة العربية من أيلة ومن دومة الجندل .

وبعد أن قضى الإسلام على الخطر اليهودى فى الحجاز وجه عنايته نحو الحدود الشمالية . وتعتبر غزوة مؤتة التى قام به المسلمون قبيل فتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة حملة استكشافية على الحدود الشمالية . وقد وصلت الحملة إلى معان واصطدمت عند مؤتة بالبيزنطيين الذين كانوا متفوقين عليهم تفوقاً كبيراً . واستطاع خالد ابن الوليد أن يرتدّ بحملته بعد أن استشهد قواد ثلاثة كانوا قد عينهم النبى (ص) قبل خروج الجيش من المدينة. وقد أبدى النبى (ص) رضاه عن هذا الانسحاب ، مما يؤكد أن مهمة هذه الحملة كانت بمثابة تمهيد لغزوة تبوك فى السنة التالية التى بلغ عدد أفرادها نحو عشرة أضعاف أفراد غزوة مؤتة .

ولقد قاد النبى (ص) غزوة تبوك بنفسه ، واعتنى بتجهيزها ، كما سارع الأثرياء بالتبرع لإعدادها ، ولو أن بعض المسلمين لم يتحمسوا لها ، جهلا منهم — من غير شك — بأهميتها . ولقد وصفهم القرآن لذلك بضيق الأفق ، ونعتهم بأنهم يهلكون أنفسهم بهذا التخاذل : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون » . وكان البيزنطيون قد أحسوا الخطر الجديد فأعدوا عدّتهم مستعينين — كعادتهم — بالقبائل العربية الموالية لهم من لخم وجذام وغسان وعاملة . وعلى الرغم من أنه لم تحدث حرب جدية بين الطرفين ، ولم يتوغل الجيش الإسلامى فى الأراضى البيزنطية ، فإن الإسلام حقق بهذه الحملة انتصارات باهرة . ذلك أنه عمل على تأمين الطرف الشمالى لطريق القوافل . ومما له مغزاه فى هذا الصدد أنه بفضل هذه الحملة ضم الإسلام أيلة إلى منطقة نفوذه ، وقد أباح النبى (ص) ليحنه بن رؤبة صاحبها الاتجار فى بلاد العرب ، ويشير الأمان الذى أخذه صاحب أيلة إلى التبادل التجارى بين الشام واليمن الذى كانت أيلة تساهم فيه بحكم موقعها على رأس خليج العقبة من جهة ، وفى الطرف الشمالى لطريق القوافل العربية من جهة أخرى . وقد جاء فى هذا الأمان ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من برٍّ أو بحر » . وفى هذه الحملة أيضاً أمن المسلمون الحدود الشمالية عند دومة الجندل فقد بعث إليها النبى (ص) خالد بن الوليد الذى استطاع أن يأتى بواليها أكيدر دومة ابن عبد الملك إلى المدينة، حيث تعهد بحماية الحدود الشمالية ضد الجيوش البيزنطية .

وبعد غزوة تبوك استتبت الأمور للإسلام فى داخل بلاد العرب ، وأسرع العرب إلى الانضواء تحت لوائه ، والدخول فيه ؛ وقد عرف العام التاسع بعد الهجرة بعام الوفود ؛ إذ أقبلت على المدينة وفود القبائل العربية من أنحاء بلاد العرب ، تعلن الخضوع للإسلام .

وفى هذا العام لقى الإسلام نصراً كبيراً فى بلاد اليمن وحضروت ، فأقبلت وفود قبائلهما ومدنهما تعلن إسلامها أو تسليمها ، كما بعث محمد (ص) البعوث لتثقيفها ولنشر الإسلام بينها . وهكذا أمن الإسلام الطرف الجنوبى من طريق القوافل .

وبعد أن اطمأن النبى (ص) إلى العرب اتجه نحو القضاء على المنافسة البيزنطية، وأعدّ العدّة لكسر شوكة البيزنطيين الذين أخذوا يرابطون فى جنوب الشام . وفى أوائل السنة الحادية عشرة بعد الهجرة ، أعد النبى (ص) حملة لغزو الحدود الجنوبية للشام ، وأسند قيادتها إلى أسامة ابن مولاه زيد بن حارثة ، الذى كان أول قائد استشهد فى غزوة مؤتة . وعلى الرغم من أن النبى (ص)

مرض المرض الأخير ، إلا أنه أصر على إعداد الحملة وخروجها . ومما يشير إلى أهمية هذه الحملة كذلك أنه على الرغم مما تعرضت له الدولة الإسلامية بعد وفاة النبي (ص) من خطر الردّة ، لم يتأخر الخليفة الأول أبو بكر الصديق عن إنفاذها . وقد توجه أسامة إلى البلقاء حيث قام ببعض المناوشات .

ولم يلبث أبو بكر بعد أن أخضع الخارجين من العرب على النظام الإسلامى ، وبعد أن أعاد وحدة العرب تحت حكم الدولة الإسلامية . لم يلبث هو وعمر من بعده منذ السنة الثانية عشرة بعد الهجرة أن أنفذا الجيوش العربية إلى أرض الدولتين الكبيرتين المناوئتين . تلك الجيوش التى استطاعت — بفضل الروح الجديد الذى بعثه الإسلام فى نفوس العرب — أن تسيطر على بلاد الشام ومصر ، وأن تقضى على الدولة الساسانية الفارسية ؛ ومن ثم لم يتم للإسلام احتكار التبادل التجارى بين الغرب والشرق عبر طرق القوافل العربية فحسب ، بل تسنى له أيضاً السيطرة على الطرق العالمية الأخرى فى البحر الأحمر وفى البلاد الفارسية .

مراجع البحث

من العلماء الذين لهم فضل كبير فى جمع النقوش اليمنية القديمة وقراءتها العالم المصرى الدكتور خليل يحيى نامى الأستاذ بكلية الآداب ، جامعة القاهرة .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ .

جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام .

الدكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام .

ابن خلدون : العبر .

الدكتور ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربى . تعريب الدكتور ابراهيم الكيلانى

ابن هشام : السيرة .

Albright (F.P.), The Excavation of the Temple of the Moon at Mârib (Yemen). BSOR. December 1952.

Albright (W.F.), A Note on Early Sabaean Chronology. BSOR. October 1956.

Beeston (A.F.L.), Epigraphic South Arabian Calendars and Dating. London 1956.

Brockelmann (C.), History of the Islamic Peoples.

Caskel (W.), Entdeckungen in Arabien. AFLNWG. 30, 1954.

Fakhri (A.), An Archaeological Journey to Yemen.

Hitti (Ph. K.), History of the Arabs.

Lammens (H.), Le Berceau de l'Islam.

Lammens (H.), La Mecque à la veille de l'Hégire.

Lewis (B.), The Arabs in History.

Page (T.E.), The Geography of Strabo.

Phillips (W.), Qataban and Sheba.

Pirenne (J.), La Grèce et Saba.

Pirenne (J.), L'Inscription "Ryckmans 535" et La Chronologie Sud-Arabe. Le Muséon, Tome LXIX. Lovain 1956.

Rathjens (C.), Sabaeica.

Van Beek (G.W.), A Radiocarbon Date for Early South Arabia. BSOR. October 1956.

الرقص الشعبي في الاتحاد السوفيتي

بقلم الدكتور محمد مندور

نشرت فى شهر فبراير الماضى بجريدة « الشعب » مقالا بعنوان « موسييف بين ملتقى التيارات » تحدثت فيه عن فكرة إنشاء فرقة للباليه الشعبى فى مصر ، واتجاه الرأى إلى الاستعانة بخبرة السيد « موسييف » رئيس الفرقة التى كانت تعرض عندئذ فى دار الأوبرا المصرية ألواناً من الرقص الشعبى فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى ؛ وذكرت كيف أن السيد موسييف سيجد نفسه فى ملتقى التيارات المنحدرة من ماضينا الطويل : فهناك التيار الفرعونى الذى خلف لنا أجدادنا رقصاته على جدران المعابد والقبور ، وهناك التيار العربى الذى تصطبغ به مصر الحديثة . وتساءلت عن الاتجاه الذى قد يرى فيه الفنان السوفيتى خصائص شعبنا وروحه المميزة ، واستبعدت إمكان الأخذ بأحد الاتجاهين وإهمال الآخر ؛ وذلك لأننا وإن كنا قد أصبحنا عرباً لا نستطيع أن نتنكر لماضينا الفرعونى ، ولا أن نهجره أو نتخلى عنه للآخرين الذين لا يزالون يستوحونه أحياناً كثيرة فى فنونهم المختلفة كفن العمارة ، وفن تصميم الأزياء . ولما كان من غير الممكن ولا المعقول المزج بين العالمين العربى والفرعونى لبعد الشقة بينهما ، واختلاف كل منهما عن الآخر اختلافاً كبيراً فى الروح والعادات ، والمعتقدات ونمط الحياة ، فضلا على مظاهرها الخارجية ذات الأهمية فى الكثير من الفنون ، وبخاصة الرقص ، حيث تلعب الملابس و (الديكورات) دوراً هاماً — فإننى قد رجحت أن السيد موسييف لا بد أن يوصى باستيحاء الرقصات الشعبية من مصر الفراعنة ومن مصر العربية المعاصرة على السواء ، على أن يفصل بين النوعين ، وأن يقوم كل بذاته ، وأن يعتبر الجميع معبراً عن روحنا الشعبى باعتبارنا الورثة الشرعيين للفراعنة والعرب معاً .

وفى اجتماع للجنة إدارة هذه المجلة تفضل الفنان المثقف المرهف الأستاذ « حامد سعيد » باسترعاء نظر اللجنة إلى مقالى باعتبار أنه يثير مشكلة خطيرة لا تقتصر على الرقص وحده ، بل تمتد إلى جميع الفنون التى نريد أن نظهر فيها أصالتنا وطابعنا المميز ، وضرب سيادته لذلك مثلا واضحاً بفن العمارة قائلا : إن لدينا الفن الفرعونى ، كما لدينا الفن العربى ، ولكل منهما طابعه الذى لا يمكن أن يخطئه البصر ، ومع ذلك يندر أن نرى فى مدننا أو قرانا أبنية خاصة أو عامة مشيدة على أحد الطرازين ، على حين نرى الطابع الغالب على مبانينا هو الطابع الغربى بتطوراته الحديثة التى تخلو — أو تكاد — من أية خاصية فنية ؛ وما ذلك إلا لأن مهندسينا يتلقون دروسهم عن الغرب ، ويستخدمون مراجع الغرب . وطالب سيادته بضرورة إنشاء أكاديمية مصرية لفن المعمار تعنى بدراسة الفنين العربى والفرعونى وأصولهما ؛ حتى ينتشر الوعى بهذين الفنين الكبيرين اللذين يجب أن نكون أحرص الناس على خلودهما وتجددهما باعتبارنا الورثة الأمناء عليهما .

ولما كان هناك من بين زملائنا أعضاء لجنة المجلة وغيرهم من هو أدرى منى بفن العمارة ، وأقدر على الحديث فيه — فإننى أتركه لحضراتهم لأعود إلى الحديث عن فرقة الباليه الشعبى المصرى المنتظرة ، وموقفها بين ملتقى

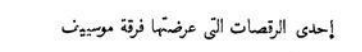
التيارات التى أشرت إليها .

ولما كانت اللجنة الموقرة قد كلفتنى أن أسعى إلى السيد موسييف لأستوضحه — بصفته خبيراً — الرأى فيما أثرته من مسائل فى مقالى بجريدة الشعب فقد انتهزت فرصة ذهابى إلى « دار الأوپرا » فى مساء ١٤ من فبراير الماضى لمشاهدة فرقة « الباليه الشعبى السوڤيتى » ؛ لكى أرجو السيد موسييف أن يحدد لى مكاناً وزماناً ألقاه فيهما لأسأله فيما أريد سؤاله عنه خاصًّا بفرقة الباليه الشعبى المصرى وفن الرقص بوجه عام ؛ ورحب الفنان الكبير بهذا الرجاء ، والتقينا فعلا فى الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة ١٥ من فبراير فى غرفته بفندق «الكونتنتال» ، فوجدته قد أعد لى مجموعة من الصور الشمسية الرائعة لعدة مشاهد من رقصات فرقته التى شاهدتها بدار الأوپرا لأختار منها ما أشاء .

وبالرغم من أن الاتفاق معه على أن ندرس فكرة إنشاء الفرقة المصرية للباليه ورسم خطتها كان لا يزال فى دور المحادثات التمهيدية — أحسست أن الرجل مهتم أكبر الاهتمام بهذا الموضوع ، ورأيت أمامه عدد فبراير من « مجلة السياحة المصرية » وقد جد فى البحث عنه حتى حصل عليه ؛ لأن فيه مقالا قيما للدكتور « هانز هيكمان » مزوداً بالصور الشمسية عن « تأثير الرقص الفرعونى فى الرقص الحديث » .

وسألت السيد موسييف : هل كون فكرة واضحة عن الطريقة التى يمكن أن ننشىء بها فرقة للباليه الشعبى المصرى ، وعن الرقصات التى يمكن أن تقدمها هذه الفرقة ؟ ومن أين يمكن أن تستوحى ؟ أمن الفراعنة ورسومهم ، أم من ريف مصر ومدنها المعاصرة العربية الطابع ؟

فأجابنى بأن مصر بلاد غنية بماضيها وبالحضارات التى تتابعت عليها ، وأن الأمر يحتاج إلى دراسة مفصلة ، وأنه إذا كان قد شاهد فى المتاحف والكتب وعلى بعض الآثار عدداً من لوحات الرقص الفرعونى الجميل — يود أن يقوم بجولات واسعة فى الريف المصرى ليشهد ما فيه من رقصات شعبية قد يكون بعضها من مخلفات مصر الفرعونية ، وبخاصة إذا ذكرنا أن ديانة الفراعنة التى يتصل بها الرقص اتصالا وثيقاً قد كانت تضم إلى جوار العناصر الكونية عناصر أخرى أرضية وثيقة الصلة بالزراعة وبالخصب والنماء على نحو ما هو واضح فى أسطورة « إيزيس وأوزوريس » مثلا ، ولا بد أن هذه العناصر الزراعية قد استمرت بعد أن زالت الديانات الفرعونية ، وحلت محلها ديانات أخرى . والرقصات التى يمكن رسمها كرقصات مصرية سيكون منها ما هو فرعونى قديم . وهو يرى أن هناك موضوعات رائعة لمثل هذا الرقص الفرعونى يمكن أن تستوحى من آرائهم ومعتقداتهم فى النجوم والأفلاك بنوع خاص ، كما أنه ستكون هناك رقصات عربية خالصة كرقصات الفروسية ، فضلا عن الرقصات الريفية التى يمكن ترجيح استمرارها من عهد الفراعنة حتى اليوم ، وذلك بدليل أن الريف المصرى لا يزال يزاول أنواعاً من النشاط الزراعى على نحو ما كان يزاوله المصريون القدماء ؛ فمن الممكن مثلا أن يكون هناك رقص للحصاد ، ورقص لمتح المياه ، ورقص . . . ، وأن تعتبر هاته الرقصات ممثلة لمصر القديمة ومصر الجديدة على السواء . وهنا سألته عن الملابس التى سيختارها لمثل هذه الرقصات ، وهل ستكون ملابس فرعونية أو ملابس عربية ؟ فأجابنى : إنه وإن كان يعتقد أن الملابس الفرعونية — كما نشاهد فى الرسوم — أكثر ملاءمة لحركات الرقص من الملابس العربية الفضفاضة — يرى أن تقرير نوع الملابس يجب أن يترك لتحدده حركات كل رقصة وملاءمتها لتلك الحركات ، ثم أضاف ما يمكن أن يعتبر تقريراً لمبدأ فنى عام ، قال : إن من الواجب أن تدرس الأساليب كافة ، ولكن دون أن يستعبدنا أى واحد منها إذا أردنا أن نبتكر شيئاً جديداً .



إحدى الرقصات التى عرضتها فرقة موسييف



رقصة من فرقة موسييف

وسألته عن الموسيقى التى ستصاحب الرقصات ، فأجاب : إنه من الواجب أن تكون موسيقى شرقية ؛ لأن الموسيقى هى التى تميز روح الشرق ؛ وأضاف قوله : وإن كان هذا لا يمنع الإفادة من الموسيقى العالمية المتطورة ، ولا سيما إذا ذكرنا أن هناك مايقرب من ثمانية عشر مقاماً من مقامات الموسيقى الشرقية التسعين تتفق مع سلم الموسيقى العالمية ، وأما عن موسيقى الفراعنة فإننا وإن كنا لا نعرفها؛ لأنه لم تصل إلينا تسجيلات منها — نعرف عدداً من الآلات الموسيقية التى كان الفراعنة يستخدمونها ، ومن الواجب بعث هـــذه الآلات واستخدامها من جديد ، وأما الموسيقى التى ستعزفها الآلات فمن الممكن أن يستوحيها الفنان الموهوب من حركات الرقص التى سيراها بحيث تصدر موسيقاه عن الروح نفسها ، وتوحى بالمعانى نفسها .

وسألته عن الطريقة العملية التى سيوصى بها لإنشاء فرقة الباليه الشعبية المصرية ، فأجاب : إنه قد أتيح له أن يشاهد فى مصر رقصة باليه باسم « رقصة النيل » بالمعهد العالى للرياضة البدنية ، وقد أحس أنها لا تزال فى حاجة إلى تجويد وتطوير يرتفع بها من الفن البدائى إلى الفن الناضج ، وكذلك الأمر فى فكرة إنشاء فرقة للباليه شعبية : فمن الواجب أن يبدأ العمل فى إعداد أفرادها منذ سن العاشرة ، وأن يستمر تدريبهم على حركات الرقص الكلاسيكية مدة ثلاث سنوات على الأقل ، يستطيعون بعدها البدء فى أداء بعض الأدوار ، كما أنه لا بد لهؤلاء الطلبة من أن يتلقوا — إلى جوار التدريب الكلاسيكى — تدريباً آخر على بعض الحركات الخاصة بالرقص الشعبى بألوانه المختلفة . وإذا كنا نتعجل الزمن ولا نريد أن يطول بنا الانتظار — فمن الممكن البدء فوراً بتكوين فرقة من الهواة المدربين بعض التدريب ، على أن تكون سنهم بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، ومثل هذه الفرقة يمكن أن تبدأ عملها أمام الجماهير بعد عامين فقط . ثم أضاف قائلا : وعلى أية حال فالفنون الرفيعة لا ترتجل ، وهى تحتاج دائماً إلى وقت طويل حتى تنضج ، ولولا أن فرقتنا التى بمصر الآن خلفها فى هذا الفن تقاليد ترجع إلى مائتى عام على الأقل ما استطاعت أن تحظى بما حظيت به من إعجابكم وإعجاب العالم كله .

والواقع أن فن الرقص كغيره من الفنون لا يمكن أن يقوم بغير عوامله الأولية ؛ وكما أن الأديب لا يستطيع أن يخلق شيئاً قبل أن يعرف أصول القراءة والكتابة ، وكما أن الموسيقى لا يستطيع أن يخلق أو ينقد لحناً قبل أن يعرف أصول الموسيقى ، ويتدرب على الآلة العازفة — فإن الراقص أيضاً لا يستطيع أن يؤدى رقصة شعبية قبل أن يتدرب على حركات الرقص فى ذاتها ، وهى الحركات التى ينبنى منها الرقص الكلاسيكى ، ومن هنا تظهر سذاجة بعض من يظنون أنه من الممكن أن يحضر بعض شباب الريف مثلا ليلعبوا على المسرح لعبة التحطيب ، ثم ندعى أن هذه اللعبة رقصة شعبية ؛ فالأمر يحتاج إلى مرانة طويلة على حركات الرقص فى ذاتها أولا ، ثم إلى تطوير هذه الألعاب الشعبية بحيث تصبح رقصاً حقاً قادراً على التعبير ، موحياً إيحاء قوياً واضحاً بتلك المعارك الوهمية التى تعبر عنها لعبة التحطيب .

* * *

هذا . . وإذا كنت قد أخذت الكثير من حديثى مع السيد موسييف اللطيف المهذب فإننى قد تمتعت وأفدت الكثير من مشاهدة الرقصات التى قدمتها فرقته فى دار الأوبرا المصرية ، وقد لاحظت أن من بين هذه الرقصات الرائعة ما لا يمكن أن نعتبره خاصاً بشعب دون غيره ، كرقصة « كرة القدم » ؛ فهذه الرقصة يمكن أن تعتبر رقصة جميع الشعوب التى تعرف هذه اللعبة . ومع ذلك فليس هناك ما يمنع من اعتبارها إحدى رقصات الشعب الروسى ، كما لاحظت رقصة منغولية لم يستوحها موسييف من حياة المغول المعاصرة ، بل استوحاها من

رسوم شاهدها على بعض معابدهم ، وبالرغم من أنها رسوم موغلة فى القدم — فإنها تحمل روح الشعب المغولى المعاصر ، وتعبر عنها تعبيراً صادقاً على نحو ما يمكن أن تعبر رقصة فرعونية عن شعبنا المصرى وارث الفراعنة وسليلهم ، بل لاحظت أن جميع الرقصات التى قدمتها الفرقة السوفيتية الشعبية كانت تلقى من جمهورنا الذى امتلأت به دار الأوبرا المصرية استجابة حارة عميقة ؛ مما يقطع بأن هذه الرقصات وإن تكن شعبية ، أى متصلة بحياة شعوب بعينها — تعتبر إنسانية عامة يستطيع أى شعب أن يستجيب لها ، وأن يطرب لقدرتها على التعبير والإيحاء وخلق ذلك الجو الشعرى الذى يخرج بالإنسان عن حدود ذاته الضيقة ومحيطه المحصور إلى آفاق الإنسانية المطلقة ، وإلى معانى الجمال المجنح ، وإلى الطرب لتلك القدرة الفذة على التعبير بالحركة والوضع ، والنغم واللون ، والجو المملوء بعبير الفن ونشوة الروح .

* * *

وهكذا خرجت من مشاهدة الرقص السوفيتى الشعبى ومن حديثى مع مدير الفرقة السيد موسييف بالنتيجة نفسها ، وهى أننا نستطيع أن نصدر فى رقصنا الشعبى وفى غيره من فنوننا الأصيلة المرتجاة عن تراثنا الفرعونى وتراثنا العربى معاً ، وعن حاضرنا الذى يجمع بين التراثين وأن نحتفظ لكل تراث بطابعه المميز ، وأن نعتبر الجميع ملكاً لنا ، وتعبيراً عن حياتنا ، نطرب له ونستجيب ، كما يمكن أن يطرب له وأن يستجيب غيرنا من الشعوب على نحو ما استجبنا نحن لفنون الشعوب السوفيتية التى تجمعنا وإياها تلك الرابطة العامة المشتركة : رابطة الإنسانية ، ثم رابطة التعطش إلى الجمال وإلى وسائل التعبير عن الحياة ، وتطوير هذه الوسائل وفقاً لما حققته الإنسانية المتطورة فى مجالات الفنون المختلفة .



عبقرية الشعر الجاهلي

بقلم الدكتور محمد صبري

شعرٌ خرج من بيئة الصحراء ، من قلب الطبيعة الحرة التي لا تعرف القيود والحواجز ؛ من تكتلات بشرية وحجرية : مدائن وحيطان وسقوف تحجب الأفق ، وزحمة من السكان والآلات والمصانع تتنفس فيها فتفسد أجواءها .

لذلك كان الشعر الجاهلي من أصفى الشعر وأعلاه نَفَساً ، كان شعر الوحي والإلهام ، شأنه في ذلك شأن الشعر القديم في عهد هوميروس . ومعنى ذلك أنك لن تجد في الشعر الحديث ، وبالأخص في الشعر الغنائي ؛ هذا الصفاء مع علوّ النفَس ، مهما أوتي الشاعر من قدرة وعبقرية .

نحن لا نزعم أن الشعر الذي يصنعه بشر ، أيًّا كانت قوته في الارتجال والتغريد بما سجا عليه الطبع ؛ خالٍ من الصنعة ، ولكن هناك فرقاً بين الشعر القريب إلى الفطرة النقية ، الذي لم تغلب فيه الصنعة على الطبع كالشعر الجاهلي ، وبين الشعر الذي تغلب عليه الصنعة كالشعر المتأخر . وقد عبّر المتنبي عن هذا المعنى بقوله :

حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ
وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوبِ

والتطرية هنا هي الصناعة ، والتكلف والتزيين والتزويق التي هي من مستلزمات العيشة الناعمة ، وروح الاجتماع في البيئة الحديثة .

ولا يزال الشعر الغنائي الجاهلي أعلى شعر غنائي في العالم . وكان المرحوم إسماعيل صبري يقول : إنه يمتاز على الشعر الغربي بمقطعاته ، بالبيتين أو الثلاثة أو الخمسة أو الستة التي تفجؤك روعتها ، حين تهزّ أجنحتها ، وتطير في سماء العاطفة والوجدان .

ولا شك أن المقطوعة القصيرة أكثر قوة وتماسكاً في ارتفاعها من القصيدة . والشاعر الإفرنجي يعرف كيف يبني القصيدة ويخلق منها وحدة يشدّ بعضها بعضاً . ذلك لأن روح التنسيق والترتيب متأصلة في حياة الغربي الفكرية وفي كيانه الاجتماعي ، في حين أن الأعرابي منفرد متفرد ، يرتجل الشعر كما يرتجل الممالك . ولكنه لا يبني القصيدة ولا يؤسس الملك إذا نظم أو فتح . وقد تكون الروح الفردية من خصائص الشعر الغنائي ، ومن أسباب قوته . ولكنها في القصيدة تؤدّي إلى فصم الوحدة العامة ، ومن هنا كان البيت مستقلاً عن البيت في الشعر العربي ، وكان المطلع أهم بيت في القصيدة ، ومن هنا كانت المعلقات غير محكمة البناء أو غير مبنية إطلاقاً ، لأن كل معلقة ليست سوى مجموعة قطع من الشعر في أغراض مختلفة لارابطة بينها ، وقد يكون التشبيه مثلا مجرد وسيلة يحتال بها الشاعر للانتقال إلى موضوع آخر ، كتشبيه الفرَس أو الناقة في سرعتها بحمار الوحش أو بالظّليم ، أو بالثور الذي يسهب الشاعر في تصويره والتغني به ، باعتباره موضوعاً مستقلاً بذاته ، لا تربطه بما تقدم إلا صلة ضئيلة ؛ لا وجود لها في الواقع .

ولكننا إذا نظرنا إلى المعلقات كشعر غنائي وجداني ، نظرنا إلى عيوبها من حيث البناء والتركيب نظرة أخرى ، فإن الروح الغنائية تنتظم القطع المختلفة في كل معلقة

وتؤلف بين أفانينها ، وتنهض بها أسراباً تغرد فى أجواز الفضاء .

والشعر الجاهلى جميعه يكاد يكون شعراً غنائياً . والشعر الغنائى عند الإفرنج كان يتغنى به قديماً ، ثم سمى به كل شعر صادر عن العاطفة الصادقة والوجدان ، ينطلق من حنايا القلب إلى حنايا الطبيعة ، بين أرضها المتبرجة وسمائها الزاهية ، شجيّ ونغماً وحنيناً .

وإنّا لنجد فى كتاب الأغانى والحماسة ودواوين العرب شعراً غنائيًّا من خالص الشعر يمتاز ، كما قلنا ، بصفائه على كل شعر فى العالم .

وهناك ميزة أخرى للشعر الجاهلى ؛ هى ظهور حاسة الطبيعة والحاسة الفنية بشكل واضح فيه . وإنه لعجيب أن الأعرابى الجلف الذى يعيش فى الخشونة كان لا يقل عن الغربى فى قوة حاسته (الطبيعية) وحاسته الفنية مع أن عبادة الطبيعة والفن والتصوير والنحت وما إليهما هى من مظاهر الحضارة الحديثة . وأكبر من ذلك أن تصوير الحيوان فى الشعر الجاهلى ، وهو أكبر دليل على قوة الحساسية الفنية عند العرب ، لا نظير له فى الشعر الغربى ، وقد نجد له بعض الشبه فى التصوير الزيتى والنحت عند الإفرنج ، كما بينت ذلك فى (الشوامخ) .

ولعل منشأ هذه القوة الخارقة عند الأعرابى ؛ هو تلك السليقة النادرة التى يمتاز بها ، وقد وصف شاعر قديم نفسه بأنه « سليقىٌّ يقول فيعرب» . وهذه السليقة يمدها ذكاء بارق ، وحسٌّ صافٍ ، كالمرآة تنعكس فيه ظلال الكون وأضواؤه . .

ولا شك أن انعدام الحاسة الفنية عندنا ، وعند المتأخرين بصفة عامة ، هو الذى باعد بيننا وبين الشعر الجاهلى ، وجعل الشراح جميعاً ، وشيوخ النحو يئدونه تحت شروحهم العافنة المظلمة . .

وقد سمت عاطفة الأعرابى وحَدَبه على الحيوان وحبه له بالشعر إلى أعلى مراقيه ، وكان ذلك مظهراً من أجل مظاهر الحضارة عند البدوى .

جاء فى كتب اللغة : قانى له الشىء دام ، وقال يصف فرساً :

« قانى له فى الصيف ظل بارد »

شطر واحد من الشعر الغنائى ، ولكنه شطر من دولة الجمال والجلال ، وقطعة من كنوز العرب الضائعة .

وقد أصبحنا اليوم لا نألف الخيل ولا الجمال كما كان يألفها العرب ، ولكن هل معنى ذلك ؛ أن الشعر الذى يصور الخيل والجمال أصبح قديماً ؟ وهل الغناء والموسيقى والعاطفة التى تنبعث من بيان العرب ، وجوهر عبقريتهم الوضّاء تتقادم وتصبح خرساء مهما تقادمت الأعصر ؟

لقد تغنى الأعرابى بالبرق والسحاب والسيل ، والرياح وصباها ودبورها ، والشجر والظل والضوء ، والرمال والنجود والوهاد والوديان ، وحيوانها من ذى الجناحين وذى الأربع ، تغنى بالطبيعة التى يعيش فى كنفها ، كما تغنى بحب سلمى وهند وأسماء ، ووقف واستوقف فى ديارها وبكاها :

ألا يا صَبَا نجدٍ متى هجت من نجدِ
لقد زادنى مسراكِ وجداً على وجدِ

وقول الآخر :

هاتِ يا برق! قُلْ حديثك عن نجْـ
ـدٍ ، فحيَّا الإله عنِّىَ نجدا
قلْ ، وإن كان ماً تحدّث زوراً
فلقد تبرد الأكاذيبُ وجـدا

وقد وصف امرؤ القيس الليل « وليل كموج البحر.. » ووصف السيل فى معلقته ، فصورَّ لنا جلال الطبيعة .

وقال لبيد :

وجـلا السيول عن الطلول كأنها
زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

وقال عنترة يصف روضة هطلت عليها السحاب ،

واجتمع فيها الماء والنبت والطير :

سَحّاً وتسكاباً فكل عشيّة
يجرى عليها الماء لم يتصرّم
وخلا الذباب بها فليس ببارح
غَرِداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحكّ ذراعه بذراعه
قدحَ المكبّ على الزناد الأجذم

وهذا أدقُّ تصوير للنشوة التي تتملك الطير في الماء الغدق ، وانطلاق الحركات العذبة من مختلف الأوضاع ؛ من أرجلها ومناقيرها وأجنحتها ، وتتابع تطريبها وترنيمها وغناها . لقد صوّر عنترة عيداً من أعياد الطبيعة ، كما صوّر غيره مآتمها ومآسيها في بؤس الحيوان والإنسان .

والواقع أن عنترة نفسه وشعراء الجاهلية جميعاً قد ظهر حَدَبهم على الحيوان ، كما قلنا ، وقد نفذ بصرهم من جمال شكله وتركيبه وألوانه البهيجة وحركاته إلى عواطفه الحيوانية التي يشارك فيها الإنسان وكل كائن حيّ . لذلك كان الشعر الغنائي القديم حزين الوتر .

انظر إلى قول عنترة في معلقته عن جواده :

يدعون عنترَ والرماح كأنها
أشطان بئرٍ في لَبان الأدهم
مازلت أرميهم بغرّة وجهه
ولبانه حتى تسربل بالدم

فقوله « بغرّة وجهه » من أفصح التعبير عن عاطفة الشاعر ، وهو يذكرنا بقول امرئ القيس عن قطيع البقر وقد فاجأه الصائد ، وأخذ يطاعنها برمحه :

وظلّ لصيران الصريم غماغمٌ
يداعسها بالسَّمهرى المعلَّب
فهاوٍ على حُرّ الجبين ومُتّقٍ
بمدراته كأنه ذلْق مشعب

فقوله : وهاو على حر الجبين — كقول عنترة :

ما زلت أرميهم بغرة وجهه

كلا الشاعرين تجيش فيه العاطفة الحيوانية ، والحيوان كالإنسان يشقى كما يشقى . . .

وقد كان تصوير الذئاب والقطا في لامية العرب هو الذي وضع هذه القصيدة في مصاف المعلقات . والعجيب أن شروحها لا تعدُّ ولا تحصى ، ولكنها جميعاً لم تعن بإظهار ضخامتها وروعتها .

وقال صخر الغيّ الهذلي يرثي أخاه ، فذكر الأقدار التي تصيب كل حيّ :

ولله فتخاء الجناحين لِقْـــوَة
توسِّد فرخيها لحوم الأرانب
فخاتت غزالا جاثماً بصُرت به
لدى سَلَمات عند أدماء سارب
فمرَّت على رَيْد فأعنتَ بعضها
فخرَّت على الرجلين أخيب خائب

يقول : إن العقاب (فتخاء الجناحين لقوة) تصيد الأرانب لتطعم فرخيها — قال الجاحظ : لا يعيش لها إلا فرخان — انقضت على غزال جاثم بصرت به وقد سربت أمه (أدماء) في موضعها ، ودخلت فيه ، فمرت العقاب في انقضاضها على حرف ناتئ من الجبل (ريد) فانكسر جناحها ، وتعلق منها ولم ينقطع كأنه في سرعة تقلبه : إذا نهضت في الجو مخراق لاعب .

ثم عرج الشاعر بعد ذلك إلى فرخي العقاب اللذين طال انتظارهما :

وقد تُرك الفرخان في جوف وكرها
ببلدة لا مولى ، ولا عند كاسب
فُرَيخان ينضاعان للفجر كلما
أحسّا دَوِيَّ الريح أو صوت ناعب
فلم يرها الفرخان بعد مسائها
ولم يهدأ في عشها من تجاوب

تلك مأساة من مآسي الحيوان ، وبعبارة أدق من

مآسى الحياة المتزاحمة فى كل صفحة وفى كل سطر من كتاب الوجود . فى هذه المأساة شكا الشاعر من قسوة الأقدار فإن هذه العُقاب ، قد أصيبت بكسر فى جناحها وهى تطارد غزالا فلم يرها فرخاها اللذان لا كاسب لهما ... فبقيا فى الوكر يتجاوبان حتى سكنا..

والواقع أن صخر الغى كامرئ القيس والشعراء الذين جروا على نهجه ؛ كان يرى أن الطبيعة قد بنيت على الظلم ، وأن العُقاب لا مناص لها من اختطاف أولاد الأرانب ليعيش صغارها ، وترزق قوتاً « كما يرزق العيال » .

وقد ذكر صخر الغى فى القصيدة المتقدمة وعلا عاش وأسن فى أرض رملية أو جبلية بعيدة حيث كان يظن نفسه بمأمن من عوادى الدهر وغوائله ، حتى أتيح له صائد يعول أباه.. وكان هذا الأب شيخاً تحنت عظامه ، وأزرى به الجوع .

والشاعر هنا يرق لحال الصائد والوعل معاً ؛ فالأول طالب قوت ، والثانى فريسة القدر الذى لا يرحم :

أعينىَّ لا يبقى على الدهر فادرٌ
بتيهورة تحت الطخاف العصائبِ

تملّى بها طولَ الحياة فقرنه
له حيَّد أشرافها كالرواجب[1]

يبيت إذا ما آنس الليل كانساً
مبيت الكبير ذى الكساء المحارب

مبيت الكبير يشتكى غير مُعْتَب
شفيف عقوق من بنيه الأقارب

تدلّى عليه من بشام وأيكة
نشاةَ فروعٍ مرثعنٍّ الذوائب[2]

(١) أبو عمرو حيد دوائر فى القرن وعقد ، وهى حروف شواخص . ورجبت ثبتت . فالرواجب الثوابت ، فى شرح أبى عمرو ، لا معنى لها . وقد جاء فى القاموس رجب العود خرج منفرداً فالرواجب هنا العيدان المنفردة .

(٢) نشاة فروع ، كما قالوا : ما أحسن مانشا ؟ ومرثعن : مسترخى . الذوائب : يريد أعالى الأغصان .

بها كان طفلا ثم أسدس واستوى
فأصبح لِهْمًا فى لهوم ٍ قراهب

يُروَّع من صوت الغراب فينتحى
مسامَ الصخور فهو أهرب هارب

يقول : لا يبقى على الدهر وعلٌ مسنٌّ (فادر) يعيش منفرداً فى رملة (تيهورة) تحت الغيوم (الطخاف) المتراكبة (عصائب) . وقد تمتع الوعل بهذا الموضع الخصب طول الحياة (تملى بها . .) وكان فى أمن ودعة . وقد أصبح فى قرنه عقد شواخص . . يقول : إذا أقبل الليل يبيت الوعل المسن الضخم فى كناسه ، كما يبيت الكبير المحارب وعليه كساؤه . وهو حين يأوى إلى الشجرات الباسقات تكسوه وتستره فروعها المهدلة. وهو يعيش وحيداً كالذى عقه بنوه فلا يهمهم رضاه . . وقد أصبح يروع من كل صوت يسمعه خوفاً من المنايا ، ويهرب كلما فزع إلى الصخور يمر بينها سريعاً . .

ولكن لم ينفعه تحرزه :

أتيح له يوماً وقد طال عمره
جريمة شيخ قد تحنب ساغب[1]

يحامى عليه فى الشتاء إذا شتا
وفى الصيف يبغيه الجنا كالمناحب[2]

فلما رآه قال : لله من رأى
من العُصم شاة قبله فى العواقب[3]

(١) جريمة شيخ أى كاسب شيخ ، وجريمة القوم كاسبهم . أى صائد يكسب لأبيه . تحنب احدودب . ساغب جائع .

(٢) يحامى عليه أى عنه . الجنا الثمر . والمناحب المجاهد .

(٣) الأعصم من الظباء والوعول : ما فى ذراعيه أو فى أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر . والشاة جاء فى القاموس هى من الغنم للذكر والأنثى، أو يكون من الضأن والمعزى والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش،وربما كنى بها عن المرأة كقوله :

ياشاة ما قنص لمن حلت له

والعواقب مآخير الزمان . يتعجب من رؤيته صيداً عظيما كهذا فى مثل هذه السن .

لو ان كريمى صيد هذا أعاشه
إلى أن يغيث الناس بعض الكواكب [١]
أحاط به حتى رماه وقد دنا
بأسمر مفتوق من النبل صائب
فنادى أخــاه ثم طار بشفرة
إليه اجتزار الفعفعىّ المناهب [٢]

تكلم الشاعر عن حياة الوعل ، وحياة الصائد الذى يتكسب لأبيه ، يحمى شيخوخته فى الشتاء ، ويجنى له أطايب الثمر فى الصيف . . . تفاصيل وحقائق مستمدة كلها من صميم الحياة . وقد قلنا من قبل إن شعراء الجاهلية ، وعلى رأسهم امرؤ القيس ، أول من حدد أماكن الأحباب (بسقط اللوى . بين الدخول . فحومل فتوضح . فالمقراة . .) وهذا التحديد للأماكن التى نحبها ، ونقف فيها طويلا بين النؤى والأحجار ومواطن الذكرى . نقول : كل هذه التفاصيل المستمدة من صميم الحياة هى مادة (الرواية الحديثة) ، وهى مصدر تلك القوة الجذابة الهائلة ، التى تجعل النفوس الظماء تتهافت عليها .

وقد ذكر امرؤ القيس رامياً من بنى ثُعَل :

مُطعَم للصيد ليس له
غيرهـــا كسب على كبره

يقول : إن الصائد لا كسب له غير الصيد الذى يتعيش منه ، فكلا الصائد والصيد موضع حدبه ، ولا مفرّ من الخضوع لقانون الطبيعة الأزلى .

وإنى أقرر هنا أن امرأ القيس كشاعر من شعراء الحقيقة ، فى علوّ نفسه وقوة بيانه التى تضىء بها جنبات الشعر كما تضىء الماسة لا يقل عن جوته وشكسبير . ولكن شكسبير أو جوته يدرس فى جامعات الغرب ويتناول الكتّاب ، جيلاً بعد جيل ، حياته وشعره ولغته . أما امرؤ القيس فلا تزال كنوزه دفينة ، لا نعرف له إلا جمال المطلع فى (قفا نبك) وجمال الاستعارة فى (وبيضة خدر) ، وقد كتب مصطفى الرافعى صفحات عن هذه الاستعارة . . .

على أن امرأ القيس قد بلغ من ولوعه بالحقيقة أنه لم يقتصر على تحديد أماكن الأحباب والأماكن التى يمرون بها فى ارتحالهم وانتقالهم ، بل حدد أماكن كلاب الصيد والثيران والحمر الوحشية ، وأسهب فى تصوير حياتها بدقة ، حتى النخيل حدد أماكنه وأسماء أصحابه :

أو المكرعات من نخيل (ابن يامن)
دُوَين الصفا اللائى يلين المشقّرا

كما نقول اليوم « أرض الشيخ عبد الله عند أبو كبير . . » مثلا . وفى قوله :

كأنى ورحلى فوق أحقب قارح
بشربة أو طاوٍ بعرنان موجس [١]
فصبّحه عند الشروق غدية
كلاب (ابن مر) أو كلاب (ابن سندس) [٢]

ذكر امرؤ القيس أماكن الثيران الوحشية : شربة وعرنان ، وذكر أسماء أصحاب الكلاب : ابن مُرّ وابن سندس . وهو فى تصويره يذهب ببصره النافذ إلى ما وراء الشكل والتركيب ، إلى العاطفة التى تختلج فى قلب الحيوان ، وتؤثر فى حياته وحركاته :

كأنى ورحلى والقراب ونمرقى
إذا شبّ للمَرْو الصغار وبيصُ [٣]

---

(١) كريمه شيخه ، يقول : لوصيد له هذا الوعل لعاش الرجل حتى تغيث الناس بعض الأنواء ويعود الخصب .

(٢) الشفرة السكين . اجتزار لما يجتزر يقطع . الفعفعى الخفيف . المناهب المبادر كأنه قد أخذ عبطاً .

(١) الرحل القتب . والأحقب الحمار الوحشى الأبيض الحقوين . القارح المتناهى القوة . طاو أى ثور يطوى البلاد قوة ونشاطاً .

(٢) غدية تصغير غدوة أول النهار وهى الساعة التى تفاجىء فيها كلاب الصيد الحمر الوحشية .

(٣) النمرق السرج . شب وبيص اتقدت نار . المرو الحجارة ، إشارة إلى وقت الظهيرة واتقاد الأرض فيسرع الحيوان فى جريه .

على نِقْنِقٍ هَيْقٍ له ولعرسه
بمنعرج الوعساء بيض رصيص (١)

إذا راح للأدحيّ أوباً يفنها
تحاذر من إدراكه وتحيص (٢)

يقول : إن فرسه فى سرعة عدوه كالظليم الذى ترك هو وعرسه حضانة البيض فى منعرج الوعساء ، ثم تذكرا البيض فانطلقا عائدين يعدوان بشدة ، وكان هو يطردها ويدفعها وكانت هى تحاذر أن يدركها . ولا ريب أن عاطفة الأبوة أو الأمومة عند الحيوان كانت تسوقه إلى أن يطوى الأرض طياً فى أوبته ، تماماً كما يفعل المسافر الذى يعجل بالأوبة عند حنينه إلى أولاده الصغار.

وقد كرر امرؤ القيس هذا المعنى فى قصيدة أخرى ، وأشار إلى المشاق التى يكابدها الظليم ، وركوبه هول الأسفار المطوحة :

كأنى ورحلى والقراب ونمرقى
على يرفئىٍّ ذى زوائد نقنقِ (٣)

تروّح من أرض لأرض نَطيِّة
لذكرة قيض حول بيض مفلّقِ (٤)

يجول بآفاق البلاد مغرباً
وتسحقه ريح الصبا كل مسحقِ (٥)

(١) النقنق الظليم وهو ذكر النعام . هيق طويل دقيق . منعرج الوعساء رابية من رمل . رصيص بعضه إلى جانب بعض

(٢) الأدحى مبيض النعام فى الرمل،قال الجوهرى « لأنها تدحوه برجلها ثم تبيض فيه » . الأوب العودة . يفن يطرد . تحيص تحيد وتهرب حتى لا يدركها .

(٣) اليرفئى الظليم . الزوائد من الأسنان ما يلى الأنياب يريد أنه فتى . والنقنق من أسماء الظليم .

(٤) تروح سار فى الرواح أى العشى . نطية بعيدة . القيض القشرة العليا اليابسة على البيضة ، وقيل هى التى خرج ما فيها من فرخ أو ماء . يريد أن أفراخه خرجت من البيض فهى فى أشد الحاجة إلى التعهد والاحتضان .

(٥) تسحقه تدقه أشد الدق ، يقال سحقت الريح الأرض قشرت وجهها بشدة هبوبها وعفت على آثارها ، إشارة إلى الرياح الشديدة والأمطار وكل ما يكرث الحيوان من الطبيعة وطوائح الحياة .

وفى هذه القصيدة وصف رائع للصيد فصّل فيه شاعرنا الحقائق تفصيلا ، قال :

وقد أغتدى قبل العُطاس بهيكل
شديد مُشكّ الجنب فعْمُ المنطّقِ (١)

بعثنا ربيئاً قبل ذاك مخمّلا
كذئب الغَضا يمشى الضّراء ويتقى (٢)

فظلّ كمثل الخِشف يرفع رأسه
وسائره مثل التراب المدقّقِ (٣)

وجاء خفيّاً يسفِنُ الأرض بطنُـه
ترى التُّرب منه لاصقاً كل ملصق (٤)

وقال : ألا هذا صوار وعانة
وخيْطُ نعام يرتعى متفرّقِ (٥)

فقمنا بأشلاء اللّجام ولم نقُد
إلى غصن بان ناخر لم يحرّقِ (٦)

(١) العطاس الصبح . بهيكل بجواد كأنه هيكل مبنى ، قال البحترى يصف فرسا :

كالهيكل المبنى إلا أنه فى الحسن جاء كصورة فى هيكل

مشك الجنب مفرز الجنب . فعم المنطق ممتلئ مكان النطاق وهو الحزام .

(٢) الربىء الطليعة . مخملا لم نجدها فى القاموس ولعله يقصد مستتراً بالخميلة والخميلة كل موضع كثر فيه الشجر . الغضا شجر عظيم من الأثل . وذئب الغضا مثل فى الخبث والاغتيال . يمشى الضراء يمشى متخفياً فيما يواريه من الشجر .

(٣) الخشف ولد الظبى . يرفع رأسه وسائر جسمه لاصق بالأرض كالتراب .

(٤) يسفن يقشر الأرض لشدة لصوقه بها .

(٥) الصوار قطيع البقر . وعانة جماعة أتن وحشية . والخيط الجماعة من النعام والجراد . يرتعى يرعى .

(٦) أشلاء اللجام سيوره ، يريد قمنا بإلجام الفرس . قاد نقيض ساق . وعن الخليل القود أن يكون الرجل أمام الدابة آخذاً بقيادها والسوق أن يكون خلفها . ناخر من نخر العود تفتت . ولم يحرق لم أجد لها معنى ، والحريق ما حرق من النبات من حر أو برد أو ريح أو غير ذلك من الآفات . وظاهر أن المعنى أنه يضع اللجام فى عنق طويل أملس يشبه غصن البان . وعلى ذلك يكون هناك خطأ فى الرواية . ولعل صحة البيت (إلى غصن بان ناخر كالمحرق) أو (إلى غصن بان ناخر أو محرق) .

نُزاوِله حتى حملنا غلامنـــا
على ظهر ساط كالصَّليف المعرّق (١)
رأى أرنباً فانقضَّ يهوى أمامه
إليها وجلاّها بطرفٍ ملقلق (٢)
فقلت له : صوِّب ولا تجهدنه
فيُذلق من أعلى القطاة فتزلق (٣)
فأدبرن كالجزع المفصَّل بينه
بجيد الغلام ذى القميص المطوّق (٤)
فادركهن ثانياً من عنانـــه
كغيث العشىّ الأقهب المتودّق (٥)
فصاد لنا عيراً وثوراً وخاضباً
عداء ولم ينضح بماء فيعرق (٦)

كل هذه التفاصيل الرائعة نجدها أو نجد أمثالها فى قصيدة (موت الذئب) للشاعر الفرنسى الفرد دى فينى وفى رواية هرمان ودو روتيه لأكبر شاعر فى ألمانيا وأوربا فى القرن التاسع عشر ، جوته . وقد أرصد « استَبْـفر » فى كتابه (دراسات عن جوته)فصلا لرواية هرمان ودوروتيه أثبت فيه أن جوته أول شاعر حديث استمد شعره الغنائى والوجدانى روعته وبهاءه من حقائق الحياة ، وقد أثبتنا نحن فى فصل عن (امرئ القيس وجوته) أوجه الشبه العظيمة بين الشاعرين .

والواقع أن امرأ القيس لم يمهد للرواية الحديثة فحسب ، بذكره الحقائق المستمدة من صميم الحياة ، ولكنه عبر بأسلوب الرواية فقص علينا مغامرات الوحش والجوارح والقناص ؛ ففى القصيدة التى أشرنا إليها من قبل :

قد أشهد الغارة الشعواء تحملنى
جرداء معروقة اللحيين سرحوب

قصَّ علينا الصراع بين الذئب والعقاب ، وفى معلقته قص علينا مغامراته المختلفة فى الحب فذكر لنا يوماً بدارة جلجل ، ويوم دخوله الخدر (خدر عنيزة) ، ويوم تمتعه (ببيضة خدر لا يرام خباؤها) . فامرؤ القيس هو رافع لواء الشعر القديم بحق ، وهو الذى جعل للشعر الجاهلى طابعه ومميزاته . .

وكلنا يعرف طرديات أبى نواس ، وتصويره الدقيق لكلاب الصيد . ولكن هذا التصوير على براعته ينقصه جو الحياة ، وهو أشبه بالتصوير الشمسى (الفوتغرافى) منه بالتصوير الذى ترسمه ريشة الفنان من وحى العين والطبيعة ، ويتجلى فيه جمال الظل والضوء واللون . وقل مثل ذلك فى بكاء الديار والنسيب والفخر والهجاء وغير ذلك من (الأبواب) التى طرقها الشعراء الإسلاميون والمولدون ، وأين الطبع من التطبع ؟

إن حياة الحيوان فى الصحراء وسهولها ووديانها وجبالها وشجرها كانت مختلطة بحياة العرب محيطة بها . وكان الكثيرون يعيشون من الصيد . ولم يكن المال عند أهل البادية ورقاً أو فضة أو ذهباً إنما كان إبلا ، لذلك كان يسمى المال الراعى ، وكانت الجمال الحمر أشرف الأموال . ولما ذهب رهط من أشراف قوم المهلهل إلى مُرّة بعد قتل كليب ، أخى المهلهل ، عرض عليهم

---

(١) نزاوله نعالجه ونحاوله حتى يركب الغلام لأن الفرس حين يحس بالصيد يضطرب ويهيج . فرس ساط يرفع ذنبه وقت حضره (سرعة العدو) . والصليف المعرق العود المبرى .

(٢) جلى ببصره رمى به كما ينظر الصقر إلى الصيد . ملقلق لا يقر بمكانه .

(٣) صوب أرسله فى الجرى . ولا تجهدنه ولا تجهده فى الجرى فيلقيك عن ظهره .

(٤) فأدبرن كالجزع المفصل أى كالخرز الذى فصل بينه فى القلادة .

(٥) فأدركهن ثانياً من عنانه يعنى أن الفرس أدرك الصيد فى حال عفوة لا فى حال جهده . الأقهب الأبيض . المتودق ذو الودق يقال ودق المطر قطر .

(٦) العداء الموالاة والمتابعة بين الاثنين يصرع أحدهما على إثر الآخر ، وأنشد لامرىء القيس :
فعادى عداء بين ثور ونعجة   دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل
يقال عادى بين عشرة من الصيد أى والى بينها قتلا ورمياً . ولم يعرق أى لم يجهده الجرى والعداء . والعير الحمار الوحشى . والخاضب الظليم .

مُرَّة إما أن يأخذوا أحد أبنائه الباقين ويقتلوه بصاحبهم، وإما أن يدفع لهم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر دية لقتيلهم.

وقد جاء في السير أن كليباً هذا كان ذا زهو شديد لما هو فيه من العز وانقياد القبائل له. وكان يجير على الدهر فلا تخفر ذمته، ويقول: وحش أرض كذا في جواري فلا يهاج؛ وكان يحمى الصيد فيقول: صيد ناحية كذا في جواري فلا يصيب أحد منه شيئاً.

والفرق كبير بين حياة الحضر التي لا يألفها إلا الحيوان الأنيس، ولا يعيش فيها الوحش إلا سجيناً في حدائق الحيوان، وبين حياة البداوة الحرة الواسعة التي جاور فيها الوحش الإنسان، وكان للجمل والفرس فيها شأن عظيم في السلم والحرب قبل اختراع المركبات الآلية الحديثة.

نقول: كان الحيوان الأنيس صديق الإنسان، وكان الأعرابي يعيش بين غنائها وهديلها وصدحها وبغامها وخوارها وصهيلها ورغائها وزئيرها وعوائها.. بين أسرابها وهجماتها وعاناتها وصيرانها وربارِبها وقطعانها.. بين الأحقب والأبلق والأسحم والمحجَّل والأغبس والأغبر والأحمر والأبقع...

ولعل أقرب تصوير إفرنجي إلى تصوير الشعر الجاهلي تصوير بول بوتير الهولندي، وهو أكبر مصور حيواني في القرن السابع عشر، وربما في جميع العصور، وقد ظهرت عاطفته القوية في تصوير البقر والخيل في المرعى. وله مجموعة (الأفراس الخمس) وهي صور مطبوعة من رسم يده ونقشها، كنا نملك مجموعة أصلية منها، وهي من أندر الصور المطبوعة في العالم. إحدى هذه الصور تمثل فرساً واقفاً وحده في مرج واسع والسماء فوقه ملبدة بالسحب السوداء. وصورة أخرى تمثل فرساً ميتاً ضاجعاً على ربوة والذئب حائم حوله.. وقد اقترب منه فرس آخر، وظل يمد رأسه وبصره إليه حزيناً كئيباً.

وكان باري أكبر مثَّال حيواني فرنسي في القرن التاسع عشر متخصصاً في النقش في البرونز وصب تماثيل منه. وكثيراً ما صور الحيوان الضعيف حين يمسك به السبع الأقوى.. وهي اللحظة الدراماطيقية التي تبدو فيها الضراعة عاجزة ذاهلة أمام قوى الشر والبغي في الطبيعة.

وقد اشتهر (كوربيه) في القرن التاسع عشر بتصوير الأيائل: في إحدى لوحاته صور أيِّلاً جريحاً في غابة في سفح الجبل وقد دنا الإمساء، وكان رافعاً يده اليمنى عاجزاً عن عبور نهر صغير يتدفق من عل. وفي الناحية الأخرى فوق ربوة عالية في ألفاف الغاب يقف صغار الأيِّل في انتظار أبيها الذي لن يعود...

واشتهر في القرن السابع عشر المصور الحيواني اسنيدرز ومن لوحاته «النسر والدجاجة» و«صيد الأيِّل» و«صيد الذئب» وكذلك هو نديكوتر الهولندي ومن لوحاته «معركة بين الطاووس والذئب» و«صراع بين الديكة» و«جارحة في حظيرة الدواجن» و«عقابان في حظيرة الدواجن» إلخ.

ولعل في دراسة هذه الناحية من التصوير الإفرنجي تعويداً لأدبائنا على تذوق الشعر الجاهلي الذي يحتل الحيوان فيه مكاناً كبيراً. كما أنه لا بد من دراسة الحيوان في المصادر العربية والإفرنجية معاً. فقد كان العرب على علم بحياة الحيوان من خيل وجمال وحمر وثيران وحشية وأوعال وعقبان وغيرها...

وإني أضرب هنا مثلا واحداً: في معلقة لبيد شبَّه ناقته ونشاطها في السير بأتان يتبعها حمار:

أو ملمع وسقت لأحقب لاحه
طرْدُ الفحول وضربها وكدامُها[1]

(١) الملمع التي استبان حملها. وسقت حملت. الأحقب الحمار الذي في موضع الحقب منه بياض. لاحه غيره. ضربها أي ضربها بأرجلها. وكدامها عضاضها.

يعلو بها حدَب الأكام مسحَّجاً
قد رابه عصيانها ووحامها[1]

الوحام هو شدة الشهوة ، شهوة الأتن للعير ؛ أراد أنها ترمحه (ترفسه) مرة وتستعصى عليه مع شهوتها لضرابه إياها ، فقد رابه ذلك منها حين أظهرت شيئين متضادين . هذا أصح تفسير جاء فى القاموس . ولكنى لم أفهم سرَّ امتناع الأتان حتى قرأت عبارة فرنسية تقول : « ظلم الحمار الأتان » إذا وثب عليها وهى حامل .

وقد جاء فى قاموس (لاروس) الفرنسى فى مادة ثيتل (أو شاموا وهو الحيوان المشهور بجلده) .

« الثيتل من ذوات القرون يعيش فى جبال أوروبا المرتفعه وأنواعه كثيرة ، يوجد بكثرة فى البرانس والألب والبلقان وفى آسيا الصغرى حتى طرسوس . وقرون الثيتل منتصبة فى استقامة ، معوجة الأطراف إلى الخلف كالخطاف وهو يعيش عصابات وجماعات بقيادة فحل مسن يسوقها فى أشد الأماكن تحدباً ووعورة . ويقفز بين الصخور الشاهقة بخفة فى العدو منقطعة النظير . ومن العسير صيد الثيتل لما فى تعقبه من أخطار ، فإن العصابة وهى فى حراسة الفحل الذى يرقب لها فى كل وقت ، لا تترك الصائد يقترب منها بسهولة إذ لا يكاد الرقيب يحس بالصائد حتى ينبعث منه صوت أشبه بالصفير الحاد ، فلا يلبث القطيع أن يهوى مخارم الجبل هوياً ويختفى » .

هذه حياة الثيتل ، وهى أشبه بحياة الحمار أو الثور الوحشى ، كما وصفها امرؤ القيس ولبيد وغيرهما . وقد أغفل الجاحظ صفة حياة الحيوان الوحشى . قال فى الجزء الخامس : « ومن الحيوان ما يكون لكل جماعة منها رئيس أو أمير .. لأن الرئيس هو الذى يوردها ويصدرها . وزعم بعضهم أن رياسة اليعسوب ، وفحل الهجمة ، والثور ، والعير لاقتدار الذكر على الإناث . . »

(١) الحدب ما ارتفع من الأرض . والأكام الجبال الصغار . والمسحج المعضض قد عضضته الحمير .

وهذا كلام لا يشفى غلة .

قلنا : إن الشعر الجاهلى يمتاز على الشعر الإفرنجى بتصوير الحيوان ، ويمتاز عليه بالشعر الغنائى ، وخصوصاً بمقطعاته ، كما يمتاز عليه بصفة عامة بالسبق فى تصوير الحقائق المستمدة من صميم الحياة . وقد كتب المرحوم الشيخ نجيب الحداد « مقابلة بين الشعر العربى والشعر الإفرنجى » فلم يذكر عند الكلام عن الشعر الجاهلى من أوجه الشبه والمقارنة بالشعر الإفرنجى إلا البعد عن المبالغة ، قال : « فلا تكاد تجد لهم (الإفرنج) غلواً ولا إغراقاً ولا تشبيهاً بعيداً ولا استعارة خفية ، ولا خروجاً عن حد الجائز المقبول من المعانى الشعرية فى جميع وجوهها ومقاصدها ، فهم من هذا القبيل أشبه بالعرب فى جاهليتهم إذا مدحوا لم يبالغوا ، وإذا وصفوا لم يغربوا ، وإذا شبهوا لم يبعدوا فى التشبيه ، وإذا رثوا لم يتعدوا صفات المرثى وأخلاقه فى المعانى السهلة المقبولة على خلاف ما صار إليه شعر العرب بعد الإسلام من الإغراق والغلو والمغالاة فى الوصف إلى ما يفوت حد التصور والإدراك »

وظاهر أن نجيب الحداد ، على الرغم من مكانته كشاعر وكاتب ، لم يتعمق فى دراسة موضوعه شأنه فى ذلك شأن من سبقوه ، ولكن حسبه أن فطن إلى أن الشعر الجاهلى القديم فى جوهره أقرب إلى الشعر الإفرنجى من شعر الإسلاميين والمتأخرين .

وقال نولديكه المستشرق الهولندى فى كتابه عن الشعر العربى القديم : « إن فى الشعر الجاهلى ما يفتن القارئ من أوصاف الحياة والعادات فى البادية ،حتى إن الشعراء لم يفرطوا فى ذكر حمار الوحش وأنواع شتى من الظباء والغزلان والآرام والوعول » .

وقال أيضاً : « وفى أحوال كثيرة يحتفظ الشاعر بوحدة الفكر فى قصيدته بأن يجعل كلاً من أقسامها خاصاً بوصف مناظر وحوادث من حياة الشاعر نفسه أو الحياة العامة التى يحياها البدو فى الصحراء »[1]

(١) ذكره المرحوم لطفى جمعة فى كتابه (الشهاب الراصد) .

لا شك أن نولديكه خير من كتب عن الشعر الجاهلى من المستشرقين ، ولكنه لم يستطع ، ولن يستطيع مستشرق ، مهما بلغ حسه ، تذوق بيان الشعر الجاهلى ، وما ينطوى عليه من قوة العاطفة ودقة التصوير .

ولكن حسب أولئك المستشرقين أنهم سبقونا إلى دراسة وتحقيق ونشر نفائس الأدب العربى بطريقة علمية ، فأحيوا تراثنا ، ذلك التراث الذى ساعد على جمعه وحفظه قديماً شيوخ الأدب واللغة أمثال ابن منظور والسكّرى وابن الأنبارى والمبرّد وغيرهم من كبار الأئمة والمجتهدين ، ولكن أكثرهم ، لانعدام حاسة الذوق عندهم ، قد أخطأوا فى فهم الشعر ومعانيه فعلينا نحن أن نتم عملهم ، وأن نعمل على الكشف عن كنوز العرب حتى يكون لنا أدب « مدرسى » ، حىّ لا ميت ، أدب ننحت من صخره ، ونستذرى بظله . ولن يتيسر ذلك حتى تتهيأ للبلاد ثقافة فى مستوى عال ، فالثقافة لبُّ لباب الحضارة وزينة الحياة .



رأى «سلفادور دالى» فى الفن المعاصر

بقلم الأستاذ محمد صدقى الجباخنجى

«سلڤادور دالى» من زعماء المدرسة «السير يالية» المعاصرة، وتهدف هذه المدرسة الفنية إلى تأكيد أهمية اللاشعور فى الفن وتختلف عن المدرسة التكعيبية اختلافاً يكاد يكون كلياً، إذ تؤكد التكعيبية الشكل وتضحى بالمرئيات والرمز بينما «تحفل السير يالية» كما يمارسها «دالى» بالرمز والمرئيات ولا تهتم ببناء الشكل من الناحية الجمالية الهندسية .

ويمتاز دالى عن غيره من زعماء المدرسة، «السير يالية» بأداء دقيق متقن مصقول يلتزم الطبيعة إلى حد بعيد .

كما يمتاز باحترام كبير لسادة الفنانين فى عصر النهضة وظهور أثر هذا الاحترام فى أعماله بقدر ملحوظ .

ويبدى المصور سلڤادور دالى زعيم الفن السيريالى فى كلمته التالية سخطه على الفنون المعاصرة، ويدعو إلى الانصراف عن السيريالية محللا نقائص التصوير المعاصر، والمحاولات المتطرفة التى جانبت جدية الجهود الفنية الصادقة، داعياً الفنانين المعاصرين إلى أن يعودوا إلى قواعد الفن الكلاسيكى الذى وصفه بقوله «إن فيه مجالات واسعة لإظهار المواهب الفردية، والمقدرة على الإجادة» .

إلى أولئك المحبين للفن الحديث، وأولئك الذين تتنازعهم الأفكار فلا يكادون يجمعون على رأى، أقول: إنه لا جديد فى عالم الفن، طالما نشهد تلك الأعمال الهزيلة المتداعية التى ينعدم فيها أثر الصناعة الفنية الراقية، والمهارة ووضوح المعنى، وهى التى أدى إليها الانحراف الطائش، وبلادة الحس فيما نسميه فنوناً حديثة .

لقد عرف «بيكاسو» و «ماتيس» كيف يرسمان، ولكننا نرى اليوم مقلديهما لا يعرفون كيف يستعملون الألوان، وبالتالى تنقصهم الدارية بالرسم، ودليل ذلك: الاختلاف الواضح بينهم فى كيفية تصوير وجه الإنسان، وتبدو الفوارق أكثر خطورة مهددة متوعدة بكوارث مغرقة للفن فى ظلمات البربرية .

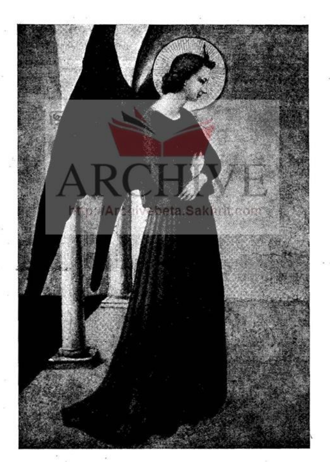
ويشتد فزع الفنانين المعاصرين عند رؤيتهم أعمال أساتذة عصر النهضة، ويحاولون إخفاء إعجابهم، ولا يكادون يواجهون أعمال «رافايللو» أو «ليوناردو» خشية أن تبهر أبصارهم بإتقانها وجودتها، ونراهم يفرون ناكصين ليبعثوا إلى الحياة بنماذج مثالية فى بربريتها، ومثل هذا النكوص يجعلهم يقفون عند التخوم التى وقفت عندها فنون الكهوف وجزر الأرخبيل والزنوج، ليعاودوا تسطيرها متعجلين بطريقة كاريكاتورية، فبدت صورهم كمقال شوهته أخطاء مطبعية عن جهل وضراوة، وهكذا ظل سر الجمال القدسى فى فنون «فيدياس» و «براكيتل» و «ميكيلانجيلو» و «ليوناردو» حلماً بعيد المنال، كالضوء الفضى اللامع فى أفق سماء ملبدة بالغيوم المظلمة .

واكتسب فن التصوير أشكالا زخرفية بمجرد تحوله إلى تجريد الحقيقة الساطعة من أجمل أشكالها، وعندما استشعر بعض المصورين المحدثين الخطر الداهم الذى يكمن فى زخرفية التجريد، والتهديد المباشر الذى ينقص من قيم أعمالهم تحولوا فى قنوط ويأس إلى طبع فنونهم بمميزات تشيد فى زهو بالجانب التأثيرى فارضين أحاسيس لا يكاد يشاركهم فيها أحد، وهنا يبدو شبح النذير بمولد فن هجين نصفه زخرفى، ونصفه الآخر كاريكاتورى، وشتان بين زخارف سجادة «عجمية» أو تكوين هندسى من زخارف قصر الحمراء «الهمبرا» بغرناطة، كأمثلة ممتازة من الفن التجريدى النقى، الصادر عن ثراء فى

تحت اسم « الأكاديميزم الحديث » للقبح والطعن ، والإسفاف ، والإفساد ، والتشويه .

ونجد الفروق واضحة بين أعمال القدامى وأعمال المحدثين ، فنى الأولى نلمس الإنجاز والمهارة فى الإنتاج الشهى المقبول ، وفى الثانية نجد الفن يتخبط كالأعمى فى منعطف ضيق ، مزهوًّا بثياب مرقعة مهلهة النسيج .

أيها المصورون المعاصرون؛ الزموا جانب الجدية ، فالألوان وحدها لا تكفى بدون رسم جيد ، واستمدوا من فنون أسلافكم القوة والإبداع ، لتعيدوا بناءالفن الكلاسيكى شامخاً عالياً فى عصرنا الحديث .



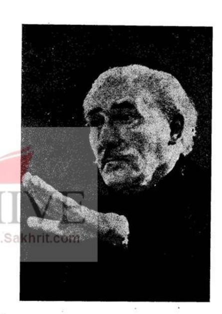
من فن « عصر النهضة »

→ من فن « دالى »

درس عملي في قيادة الأوركسترا

أرتورو توسكانيني

من كتاب «الكلمة للأوركسترا» لبرنارد شور



ما أندر الفنان الذي يمكن أن نضفي عليه حقًّا صفة الكمال ! ففينا ، نحن أعضاء الأوركسترا ، أقلية متزمتة ديدنها النقد والتنديد ، وفي كل أوركسترا تعود العزف برياسة مشاهير القواد تجد ميلا للنقد ، ولعقد المقارنات الهدامة ، انتقاصاً من قدر هذا بالنسبة لذاك وما أسرعهم إلى استحضار أرواح ريختر ، ونيكش لعقد المقارنة والتقليل من شأن القائد عندما تعوزهم المقارنة بين القادة الأحياء .

ولكن الأسماء الرنانة تتضاءل حيال توسكانيني ، فهو القائد المعاصر الذي يسلم له كل فرد في أوركستراه بالتفوق ، ويصبح العزف تحت قيادته فنًّا فريداً . فهو يثير حمية رجاله ، ويجلو أذهانهم ، وتلبس معه الموسيقى — التي فقدت جدتها من كثرة الترديد — رونقاً جديداً ، وتصبح التدريبات مطلباً للجميع يتطلعون شوقاً إليه لا تعتورهم لحظة سأم ، بل هي حية مركزة إلى أبعد الحدود ، كل تكرار فيها له جدواه . ويكادون ينسون الوقت ، ويحل التعب الجسماني لديهم فقط محل الساعة ، تلك التي يستحث العازف عقاربها كلما أصابه الملل .

قد يقول توسكانيني ، بعد تدريب قاس مفصل : "Non va male" لا بأس ! "Bitte da capo" أرجو الإعادة من الأول[1] ، ومثل هذا الطلب من قائد ممل ، قد يعقبه تذمر من جانب أعضاء الأوركسترا الذين يتخيلون أن لا غرض من هذا التكرار إلا إشباع زهو القائد ، أو ملء فراغ الوقت . لكن مع توسكانيني لا توجد لحظة فراغ ، فالتدريب ينتهي حالما يشعر أن ليس هناك حاجة إلى مزيد . وهو قلما يرضيه شيء ، على أنه يعرف تماماً ما يمكن أن تبلغه غاية جهد الأوركسترا ، ويبدو أن محاولته الوصول إلى غاية الكمال أمر يتعلق به شخصياً ، لا محاولة في الوصول بالأوركسترا إلى ما لا يستطيعه . فإذا لم يقتنع هو بعمله فليس من دأبه أن يشعر رجال الأوركسترا بأنهم كانوا مقصرين .

والحيوية الهائلة الصادرة منه تستدعي من العازفين مقابلتها بالمثل ، ولكنه يدرك نهاية جهد الأوركسترا فلا

(١) يشير المؤلف إلى اختلاط اللغات على لسان توسكانيني ، من أثر تنقله بين الأوركسترات الإيطالية والألمانية والإنجليزية والفرنسية والأمريكية إلخ

يكلف رجاله أكثر مما يكلف به نفسه . وعندما يشعر بكلال الأوركسترا يوقف التدريب ويقترح تدخين سيجارة . فعندما أدركه الإعياء بعد ساعتين من التدريب على السمفونية الريفية (الباستورال) قال : « أنا متعب الآن ، وأعتقد أنكم كذلك أيضاً ، فلنخلد إلى الراحة » .

وليس لديه مجال فى استمرار العزف لمجرد إمتاع نفسه ، فقد ينتهى قبل الموعد المحدد إذا سار الأمر بنجاح ، وقد يلغى أحياناً التدريب التالى إذا ما أحس الثقة من كفاية الاستعداد . فإذا حدث ، وهذا فى حكم النادر أن أراد استعادة شيء إرضاء لشخصه فلن يخفى هذه الحقيقة ، بل يعلنها فى صراحة . حدث مرة عند مراجعة « الملكة ماب » لبرليوز أن توجه للأوركسترا فى ابتسامة عذبة قائلا : « إن أداءكم على خير ما يرام ... أما أنا فعلى غير ما يرام ! Bitte, da capo أرجو الإعادة » . وهذا يغاير تماماً القائد الشاب الذى يقضى ساعة فى أداء لا يحتاج إلى أكثر من عشر دقائق ثم يصيح مزهواً : « فلنستعد القطعة من جديد » .

وتوسكانينى ينظم عمله فى التدريبات بحيث ينتهى إلى كل ما يريد ، فتجيء قيادته للتدريب الأخير هادئة رتيبة ، مع كامل الحيوية . وقد حدث فقط فى مرة أو مرتين وهو فى لندن ، أن استغرق التدريب كل الوقت المحدد له . بخلاف أولئك القادة الذين ينسون الوقت ، وتغلبهم العصبية وهم يصارعون الزمن . تبلغ الموسيقى ، فى التدريب النهائى ، إلى مستواها الرفيع نفسه فى الحفلة ، وبالعناية نفسها والحيوية الدافقة المتبادلة بينه وبين أوركستراه . .ولم يحدث قط أن تفوق التدريب على الحفلة ، كما يحدث عادة مع بعض مشاهير القادة الذين يبذلون جهداً عنيفاً فى قيادة التدريب ،إذ لا يلبث فى الحفلة أن يتخاذل وتنضب حيويته .

ومن العناصر المميزة لعبقريته أنه لا يبالى بالمستمعين فوجودهم وعدمه سواء لديه عند الأداء . فإذا كانت إيماءاته فى الحفلة أكثر قليلا فى التعبير والوضوح ، فسلوكه الذى يستدعيه الموقف هو هو نفسه لا يتغير . ليس فيه أثر لحب الظهور و« التمثيل » حتى ليكاد يصح القول بأنه ليس للجمهور تأثير عليه إطلاقاً ، لولا الحقيقة فى شأن مثل هذا الرجل القوى الروح ، إذ لا شك فى أنه يتلقى حافزاً نفسانياً من مجموعة المستمعين المفتونين به .

والتواضع ، الذى يبدو منه فى نهاية الحفل لائذاً بالأوركسترا ليشاركه التكريم، تواضع طبيعى لا شك فيه . فهو لا يظهر إلا مرة أو مرتين وسط الضجيج المتصل مهما بلغ استحسان الجمهور ، يهمس بعدها فى أذن عازف الكمان الأول ليقود أفراد الأوركسترا إلى خارج المسرح ، وبهذا ينتهى الحفل .

والتركيز ، التركيز المطلق ، هو الاتجاه الذى تنصب عليه كل قوى توسكانينى خلال التدريب ، وخلال الحفلة على السواء ، وقد يكون قصر النظر الذى يعانيه مساعداً له على الإعراض عما يحيط به ، وكلنا يعلم أن العيون المغمضة تساعد على تركيز الفكر وقوة الذاكرة . وهذا التركيز الذى يعتبر أساساً لعظمته يتيح له أن يعيش ويفكر بعمق وكفاية فى الموسيقى التى يعيدها إلى الحياة ، ويشعر كل من يعمل معه بالجاذبية التى تشده إلى صميم قلب العمل الموسيقى ، إنها حالة فكرية تطْرُد كل شيء ما عدا الغرض المنشود ، يدخل صاحبها فى عالم آخر يسحب معه الأوركسترا . وكثيراً ما يلاحظ خروجه عن طوره أثناء التدريب ، حينما يكون مشغولا فى عالم تفكيره ، ويحدث ما يقطع عليه التفكير . ولا يقع له ذلك أبداً أثناء الحفلة ، فإن شيئاً ما لا يقوى حينئذ على إزعاجه .

وعند ما تبدأ الحفلة لا يثيره الخطأ الطفيف ، ولا ينعكس أثره على محياه ، أما وقت التدريب، عندما يستجمع قوى الأوركسترا لبلوغ ذروة صوتية ، وتعجز

إحدى الآلات الثقيلة عن بلوغ ما يطلبه من كل قواها ، فإن توسكانينى عندئذ يثور وتتطاير كلماته مع عصاه ، وكأن أفواه سقر قد انفتحت مغاليقها ، فترة لا تدوم طويلا .

* * *

ذكر شاهد عيان أنه عند ما كان توسكانينى يدرب الفرقة على السمفونية البطل « إيرويكا » فى إحدى العواصم الأوروبية ، بدا لرجال الأوركسترا أنهم أدوا الحركة الأولى والثانية على ما يرام ، ولكن هذا الذى بدا لهم كان هدوءاً أشبه بالهدوء الذى يسبق العاصفة التى انفجرت بعد « الإسكرتسو » عندما غادر توسكانينى المنصة غاضباً وأصر على ألا يعود إليها إلا إذا تغير خمسة أو ستة من العازفين . وعلى الرغم من أن المقاعد كانت كلها محجوزة فقد تأجلت الحفلة خمسة أيام أعيد فيها تأليف الأوركسترا .

ولا شك أن لدى توسكانينى من الأسباب ما يدعوه إلى مثل هذا التصرف من حين إلى آخر ، حتى يحتفظ قطعاً باحترام عازفيه وحتى يبذلوا خير ما يستطيعون . وإن ما يحكى عن حدة طبعه يجعلنا نسر ونحن نقرر بأن علاقته بأوركسترا الإذاعة كانت دوماً من أسعد العلاقات .

وتوسكانينى لا يحتمل الإهمال ولا التراخى ولاعدم الكفاية . ويظهر أنه يدرك بالسليقة متى كان العازفون يبذلون أقصى جهدهم ، فإذا أدرك أنهم لم يفعلوا ، قطع العزف وخاطبهم منفعلا : « أفهم أن ترتكبوا الخطأ مرة ، أما أن ترتكبوه مرة أخرى ! سانتوديو ! هيا هيا ! وتنبهوا ! » .

وإذا ثار أخرج الكلمات متلاحقة بصوت يضطرب حنقاً ، أما إذا اشتد به الغضب فيتحول إلى الإيطالية الذلقة ممزوجة بخليط من الفرنسية والألمانية . وإنجليزيته تكفيه للتعبير عن مطالبه العادية ، وقد لا تسعفه الكلمة أحياناً فيجهد الفكر لحظة أو لحظتين ، ثم يطلع فجأة بمصطلح خال تماماً من أثر اللكنة .

وهو يخرج إيضاحاته غناء بصوت أجش كأنه صوت الأوتار المزدوجة أو يتحول عنه إلى صوت « الفالستو » (غناء الرجل بصوت نسائى) ، وهو فى هذا يماثل السير توماس بيتشام : أما مجال صوته فمحدود ، ولكنه يفى بأغراضه ، والشعور الذى يريد أن يعبر عنه لا لبس فيه ، وهو لا يعنى بالإيضاحات المطولة ، بل يؤدى كل شىء بحركات من عصاه ، أو بالإيماء ، أو بالغناء .

وموضوع كل تدريب هو « Cantando, sempre cantando » ، يجب أن تصدحوا بكل قطعة تعزفونها . غنوا حتى فى فترات السكوت ، ليس المطلوب العزف السليم فقط ، بل الغناء ، « مولتوكنتاندو » ، طوال الوقت ، "Ah, cantare, cantare" ، فالموسيقى بدون غناء لا تساوى شيئاً .

ويسير فى صعيد واحد مع موهبة التركيز الفريدة لدى توسكانينى ، خادمه المطيع ، إنه ذاكرته الفذة ، فهو يتذكر كل شىء على حقيقته حتى أدق التفاصيل ، وليس فى ذهنه موضع يلفه الضباب ، ولا فى ذاكرته مجال للشك . وما أسرع اكتشافه للون موسيقى متحول بعض الشىء . وعند ما يجمع تفكيره فى ناحية ، أثناء التدريب ، فإنه يغنى بطوطة وراء بطوطة ، من مقطع « للكلارينيت » الثانى أو « القور » الرابع مع أنها ليست ألحاناً ، وإنما هى سطور لحنية لتكملة التوافق الهارمونى .

ومن المؤكد أنه يعى فى ذاكرته كل سطر للآلات فى مدونته الكاملة « Score » ، وكثيراً ما يدلل على صدق ذلك عندما يعالج التراكيب الهارمونية الثانوية ، والأكورات . فبدلا من أن يلفت النظر إلى خطأ فى توازن التركيب ، فإنه يغنى سطراً كاملا من مجموعة هارمونية ، عند ما يضع همه فى تصحيح آلة بعينها .

وهو يطبق حاسة التجميع هذه على نطاق واسع

فى أداء الصيغ اللحنية ، وما يكون عادة سناداً خلفياً للنغم ، ويصرف بالفعل فيها نفس الوقت الذى يقتضيه فى تنميق نغم جميل ، أو فى بناء الذروات الصوتية .

وما زلنا نذكر فى بلادنا العناية التى بذلها فى إخراج الهارمونيات التى تؤديها الوتريات الخفيضة فى مؤلف السير إدوارد إلجار « تحولات سمفونية على لحن غير معروف» وكان ذلك أول قيادته لأوركسترا بريطانى فى صيف سنة ١٩٣٥ . حدث ذلك فى الواقع عند بدء التدريب الأول ، وكانت هذه هى كلماته بنصها : « الهارمونية ، وما أدراك ما الهارمونية ، حقاً إنها موسيقى بديعة ، بشرط أن تؤدّى حية ، وأداؤكم لها ميت بالنسبة إلى » ثم طلب إلى « الڤيولات » و « التشللو » أن تعزف بضع بطوطات مراراً وتكراراً حتى رضى عنها ، وأصبحت هارمونيات الاصطحاب فى مثل لون الموضوع الأصلى وحساسيته .

وتوسكانينى مفرط فى قصر النظر حتى لتدرك ، عندما تراه مطلاً على المدونة الكاملة يكاد يلمسها بأنفه ، مدى قوة ذاكرته وضخامة ما تعيه من تفاصيل . ولاشك أن القراءة بهذا الإجهاد نوع من الحفظ والاستذكار . ومن المؤلم أحياناً أن تراه يبحث فى المدونة عن علامة أو حرف أو عن بعض النقط الأخرى التى تركها . إنه يستعيد كل شىء من ذاكرته ، ولا يبحث فى المدونة إلا عن رقم التدريب أو للتأكد من التفاصيل ، وفى هذه الحالة يكون على صواب تسعة وتسعين فى المائة وهو غالباً لا يضع علامات على مدوّناته ، ومع ذلك لا ينسى شيئاً معيناً سبق أن طالب به . ويستعمل أى المدونات الكلاسيكية التى تقدم إليه ، أما المؤلفات غير المعهودة فيحضر لها مدوناته الخاصة . وفى بعض الأحيان يوزع على أعضاء الأوركسترا مدوناته الخاصة ، وبعضها فى حالة سيئة ، ولكنها لا تغطيها الملاحظات كما تعودنا أن نراه فى مدونات القائد الهولندى منجلبرج .

والأسطورة التى يقال فيها : إن توسكانينى لم يعدل قط فى قطعة كلاسيكية ، ولم يغير ولو تغييراً بسيطاً فى العلامات الأصلية لا أساس لها ، فالاستثناءات ، التى تجعلها من النوع الذى يؤيد القاعدة ، قليلة . مثال ذلك بدؤه الكريشندو Crescendo الطويل فى الحركة الأولى للسمفونية الريفية « الباستورال » خفيفاً جداً pianissimo بدلا من أداء خفيف piano حسب إشارة بيتهوفن ، ليضاعف من قوة الاندفاع إلى الذروة التى يرمى إليها .

والاستثناء من القاعدة واضح جداً فى افتتاحية « كوريولان » وخصوصاً فى هارمونية اللحن الثانى عندما يؤكد إظهار الفقرة ذات الكروش والدوبل كروش . ثم هو يشير إلى عزف كريشندو ودمنيوندو فى كل بطوطة من بطوطات الشيللو والڤيولا وهى تعزف الأربجيوات . وعندما تقارب هذه الافتتاحية ختامها يحدث تغييراً فى السرعة ليس فى المدونة ما يشير إليه ، وهو أمر نادر فى أداء توسكانينى ، وليس من ينكر أن نتيجة هذا إبراز موسيقى بيتهوفنية أصيلة . و « كوريولان » هى المقطوعة الكلاسيكية الوحيدة التى أجرى فيها تحويراً هاماً ، بينما السمفونية البطل « إيرويكا » هى الموسيقى التى يؤديها كما كتبت دون أدنى تعديل .

وهو ، فى موسيقى « برامز »، يعمد إلى التعديل فى قوة بعض أجزائها الهامة إذا كانت النتيجة غير مرضية ، ولكنه أكثر اعتماداً على ذكاء الأوركسترا فى قراءة ما بين السطور عند المواضع التى لا يتضح فيها الغرض من التوزيع اتضاحاً تاماً . أما فى موسيقى هايدن وموتسارت فإنه يطلق لنفسه الحرية فى التعبير . ولكن العلامات ذات المغزى التى يضيفها هى علامات طفيفة ، يحق لكل موسيقى حصيف أن يلجأ إليها فى المواضع التى يتركها المؤلف مجردة من علامات التعبير . وهو يطلق لنفسه الحرية فى أداء موسيقى كوريللى وكيروبينى وروسينى .

وليس توسكانيني بالمحافظ المتزمت ، فهو عندما يؤدى الموسيقى الكلاسيكية المتقدمة لن يتردد فى البلوغ بها إلى الأوج ، فمثلا نجده فى ارتفاع النغم الذى يكون المؤلف قد تركه دون علامات التعبير أو انخفاضه يؤديه بكريشندو وديمنويندو طبيعيين ، وقد يغير فى التلوين عند تكرر الفقرات . ولكنه فى موسيقى بيتهوفن وخلفائه يلتزم توجيهات المؤلف دائماً . وكذلك يفعل فى مؤلفات المحدثين ، ارتفع قدرهم أو انخفض ، فهو حريص غاية الحرص دائماً على أداء أغراض المؤلف الموسيقى بكل دقة وأمانة .

سواء عنده فى ذلك أى نوع من الموسيقى ، فهو يؤدى المقطوعة كما لو كانت أثيرة لديه ، تستحوذ على حبه وإعجابه . يجود بقلبه وروحه ليجعل من عمل مؤلف فى المرتبة الثانية عملا فنيًّا سامقاً . وهو يبدأ دراسة المدونة أمامه كأنها عمل جديد يكتشفه توًّا ، ويبهر باكتشافه . ويميل قطعاً إلى عزف بعض الموسيقى الإيطالية التى يعدها الناس ، على أحسن تقدير ، فى المرتبة الثانية ، فيقضى ساعات فى التدريب على « كرنفال فينيسيا » لتومازينى ، ويطرب كطفل فرح بألعوبته عندما يجهد الأوركسترا أنفسهم فى قراءة الفقرات الرائعة كى يخرج بالمقطوعة ولها سمات العمل المجيد .

وينتقل التركيز منه إلى الأوركسترا قبل أن تنبس شفته بكلمة أو ترتفع سبابته . فيقف أمام الأوركسترا مستجمعاً قواه الروحية . وحين يفعل ذلك يضطر الجميع إلى الإحساس بشعوره . وهذا الإطار الذهنى يعتبر عماد كل تدريب ، إذ يستحيل معه أن يبدأ بداية خاطئة . فهو يعلن عن اسم القطعة التى ستعزف ، ثم يقف هنيهة ساكناً ، بضع لحظات كما لو كان يستحضر فى تلك الدقائق العمل كله .

ولعصاه صفتان فريدتان ، لا تكاد تتميز بغيرهما ، أولاهما حركة يده الرائعة ، وهى تحمل العصا ، ولعلها أفصح إيماءة من قائد أوركسترا ، تبدو وكأنها تجمع فى قبضة يده خيوط الأوركسترا جميعها ، وتشيع الحياة فيها . وثانيتهما قوة ديناميكيةخفية هائلة تفعل فعل السحر فى الإعداد للهبوط بعصاه إيذاناً بالضربة . أما حركة يده فتشد إليها أعين النظارة والأوركسترا على السواء ، وأما حركة الاستعداد فالأوركسترا وحده هو القدير على تبين ما تهيئه له من تحفز لعزف الضربة النازلة . وتصبح أشد تغييرات السرعة صعوبة ، حتى لأبعد أعضاء الأوركسترا عن المنصة ، واضحة جلية لا تخطئ أبداً ، ولا تحيد عن لحظتها المناسبة بالضبط . وهذا الاستعداد الخاطف الواضح فى رفع يده بالعصا ، يفيد أكثر ما يفيد فى تهيئة ضربات رجال الإيقاع ، وهم ميالون إلى التأخر نوعاً ، بسبب بعد المسافة بين القائد وبينهم . وهذا الإعداد يسوق رجال الإيقاع بعنف ، فيندفعون وبقية أعضاء الأوركسترا فى نبض موحد رائع .

وتوسكانيني يقبض على عصاه بشدة ، ولا يسمح أبداً لرسغه أو لأصابعه أن تعمل مستقلة . وسبابته تبقى أبداً ممتدة على عصاه أقرب ما تكون إلى طريقة ڤاينجارتنر . وعصاه لا يقف طرفها فى الهبوط عند حد معين ، ومع ذلك ففى حالات أداء الهارمونيات الصعبة لا يشك عازف فى مكان وقوف العصا ، وهذا واضح تماماً حتى لأولئك الذين يجلسون فى أطراف الأوركسترا. ولكن الشك ينبعث فى موضع واحد ، عندما لا يوضح توسكانيني نهاية تركيب هارمونى ، وقد ينشأ عن ذلك التباس بسيط فى امتداد التركيب كله إلى نهاياته .

ومغناطيسيته الشخصية تطوع له كل شىء آخر ، فهى تشع من الرجل ، وتمسك بتلابيب كل عازف ، لا بقبضة من حديد ، بل بقوة إنسانية خارقة فيها تعاطف ومحبة . وتوسكانيني دائماً بمعزل عن العازفين لا يتصل إلا برئيس الڤيولينات الأولى . وقد يعجب الإنسان

فيتساءل إن كان يعرف وجوههم ، ولكن مما لا ريب فيه أنه يعرفهم بطريقة عزفهم . ولا داعى للمبالغة فى وصف الرجل ، فهو إنسان عظيم فحسب .

جسمه مرن ، سهل الحركة ، يلتفت إلى الڤيولينات الثانية نفس التفاته إلى الڤيولينات الأولى ، فهو يتجه حيث تنتقل أهمية العزف . فعند بدء العاصفة ، فى السمفونية الريفية « الپاستورال » يتحول بكليته إلى الڤيولينات الثانية ثم يدور بجسمه إلى الڤيولينات الأولى فى لحظة دخولهم ، ومع ذلك ، فوقفته ثابتة وقلما تأتى قدمه بحركة .

ويعتبر التدريب مجهوداً مضنياً للأوركسترا . وملكة التركيز عند توسكانينى قد تخرجه عن طوقه . فبينما يعزف أحدهم فقرة طويلة منفردة « سولو » يبذل فيها أقصى مهارة وفن ، وإذا بتوسكانينى يوقفه فجأة ، ويقرع الدرج بعصاه ، لمجرد أن شيئاً ما فى أسلوب العزف أو لونه يتعارض والصورة الحية القائمة فى ذهن توسكانينى . ثم هو يصيح محنقاً : « لماذا لا تنظر إلىّ ؟ لا توجد إشارة إلى تعجل الإيقاع هنا ، فلماذا تستعجل ؟ « أندیامو » ، هلم ، اعزف كأنك تغنى ! إنها موسيقى جميلة جداً وأنت تعزفها ببرود ! « أندیامو دا كابو » هلم من جديد الشبابة والفلوت » .

وقد يرعد توسكانينى ويبرق فى أية لحظة ، ومع ذلك فصبره عجيب وبخاصة فى بعض المقاطع التى يعرف أنها صعبة الأداء على الأوركسترا ، كمجموعة ، أو على قسم معين منه . ولقد عمل ذات مرة بكد ليؤلف بين الفيولا المنفردة والشبابة فى الحركة الأولى من « إيبريا » لديبوسى . وبعد محاولة أو محاولتين ، كان عدم الانسجام وخطأ تصليح الآلة أكثر من أن تحتمله أعصابه . عندئذ اقترح على عازف الڤيولا أن يتحول من مقعده ليجلس إلى جوار عازف الشبابة ، وبهذا وصل إلى نتيجة أكثر توفيقاً . ولكنه ، بعد محاولات ، وجد أنه لا يزال هناك ما تجب مداركته ، فطاف الألم المتزايد بوجهه ، ولكنه انتهى إلى القول مبتسما فى عذوبة : «لا بأس ، "da capo" مرة أخرى ، يجب أن نتجمل بالصبر ، إنها فى الواقع صعبة » وأخيراً تخرج الفقرة كاملة الأداء ، فلا يحاول بعد ذلك إعادتها فى أى تدريب .

وعند ختام «لغب الآجام» لڤاجنر ، صادف بعض العناء ، إذ لم تكن الڤيولينات الأولى واضحة تماماً فى أرپجياتها الصـــاعدة ، فحاول أن تؤديها وحدها ثلاث مرات أو أربعاً إلى أن تم له أخيراً ما أراد ، ولم يحاول إعادتها فى تدريبه مرة أخرى ، وجاء أداؤها فى الحفلة على ما يرام .

ولوحظ أنه يتجاوز فى بعض الأحيان عن فقرات يبدو العزف فيها غير محكم ، كما لو كان ذلك برغم أنفه . وهذا صحيح ، ولكن احتمال وقوع ذلك لا يتعدى المرة الواحدة . ويقع ذلك عادة فى الفقرات الثانوية ، عندما يكون الأداء سائراً سيره الطيب . وقد تحدث ، من جهة أخرى ، سقطة فى أحد الأقسام التى تسترعى انتباهه فيضرب المنضـــدة فجأة بعصاه ويصيح « أندیامو ! ياخسارة ! كانت ماشية bene لماذا أتلفتموها ؟ وا أسفاه ، ياللخسارة ! » ثم يتحول إلى المدونة الموسيقية — « والآن أين هذه الفقرة ؟ » ، هيا ! احرصوا على حسن الأداء ! » وقد يستغرق فى البحث وقتاً ثميناً ومرهقاً إلى أن يعثر على الفقرة فى مكانها من المدونة .

ولا يعرف رجال الأوركسترا متى تحين اللحظة التى ينقلب فيها هذا الميزان المعلق بشعرة دقيقة ، فهم أبداً على مثل القتاد . ومع ذلك فهذه العصبية التى يبتعثها توسكانينى فى العازفين لا تشل العزف بل تعين عليه ، فكل عازف يدرك أنه إنما يوقفه ، ويطلب منه إعادة مقطع لسبب لا بد أن يكون جوهريًّا ، وهناك قادة يوقفون العزف كثيراً لاستعراض معلوماتهم ، أو ليحاولوا تبيين

معالم الأوركسترا أحياناً . أما توسكانينى فلم يحدث قط أن قام فى الأوركسترا بدور الموجه أو المحاضر . وإذا استثينا ڤاينجارتنر ، فربما لا نجد قائداً أقل كلاماً منه فهولم يفه قط بكلمة تشير إلى نفسه أو إلى عمله .

ولكل قائد فى الغالب اسم يطلقه أعضاء الأوركسترا عليه ؛ مشتق من تصرفاته أو من جملة مأثورة عنه ، وقد يكون فى فكرة خاصة بالإيقاع أو فى جملة يستعملها بالذات مستهدفاً غرضاً مّا ؛ فمثلا برونوڤالتر يعرف بكلمة "piu piano" ومنجلبرج يعرف بكلمة Ter - Der وألبرت كوتس يعرف بكلمة «أريد لون التجلى» والسير هنرى وود يعرف بجملتيه العسيرتين على التقليد « العبوا قرب الفرس» و « دعوا نغماتكم تنفذ إلى صميم الأفئدة » وأما توسكانينى فإنه يعرف بصيحته التى لا تنقطع وهى « غنوا ، كنتاندو ، دائماً كنتارى » فما ألصق هذه الكلمة بأذهان الأوركسترا ، كلمة "Cantando" فهى تعبر عن كل ما يطلبه بإلحاح منها .

وأشد لحظات الأوركسترا حرجاً تجىء عند مطلع الحركة ، وبخاصة فى البداية الأولى للسمفونية ، فطالما أعيد مطلع « الپاستورال » إلى أن اتزن الانسجام تماماً والعبارة ، وبخاصة الكريشندو الطويل . حدث ذلك أيضاً فى « كوريولان » وفى سمفونية برامز من مقام دومينور بل فى كل الأعمال العظيمة باستثناء « الإيرويكا » التى لم تمس تقريباً فى حركتها الأولى ولا فى حركة الإسكرتسو . وتناول التدريب بالتفصيل حركتها الثانية والأخيرة ، وبذل جل عنايته غالباً فى الجزء الختامى للحركة البطيئة « المارش الجنائزى » . ولقد بقى زمناً طويلا وصيحة عويل الڤيولينات الأولى لا تروقه حتى أصبح الختام الباهر فى هذه الحركة لا يحتمل فى شجاه وشجنه . وثابر المرة تلو المرة وهو يعيد ويبدى دون أن يتفوه بشىء سوى كلمة « كالعويل » ، ولكنه كان يقترب شيئاً فشيئاً صوب ما يهدف إليه بشعوره . وفى

بعض الأحيان كان يوحى بصورة للأوركسترا ليساعد أعضاءه على الفهم ، وقد طلب منا بالفعل سنة ١٩٣٥ أن نتصور الموسيقى التى نعزفها . وأحياناً كان يقترح أن نتصور انفعالا ، مثلما حدث وهو يدربنا على لحن « المباراة » فى افتتاحية « أساتذة الشعر الغنائى » : « اعزفوا خفيفاً جداً ياڤيولينات أولى Sotto voce ، ولكن بوجد ، كما لو كان أحدكم يسر إلى نفسه ، أحبك ، أنا أحبك ، همساً تحت أنفاسه ! » ومثل هذا التعبير يصدر منه تلقائياً ، وبخاصة عندما يحار فى البحث عن الكلمة الإنجليزية الصحيحة . وهو عندما يضل عن الكلمة الأجنبية التى تعوزه ، أو عندما تغيب عن نظره نقطة من نقط المدونة الموسيقية ، يعصر فكره ، والغالب أن يعثر عليها بعد لحظة . إن ذاكرته أشبه بذلك الجنى خادم مصباح علاء الدين — ذاكرته طوع ندائه . أما المدونة الموسيقية فهو حافظ لكل تفاصيلها بما يقرب من الكمال . خذلته ذاكرته مرة واحدة فى مهرجان ١٩٣٧ عندما عاد إلى المدونة ووجد أنه المخطئ . كان ذلك فى مقطوعة « إيديل زيجفريد » بالقرب من بدايتها حيث تنتهى جملة موسيقية بنوتة « بلانش منقوطة » للڤيولات ، وقد دهش من أن عازفى الڤيولا قد أطالوا العزف إلى هذا الحد . ولما رجع إلى المدونة لاحظ أنهم على حق . فهذه النقطة المضافة إلى البلانش كانت الخطأ الوحيد الذى وقعت فيه ذاكرته .

وعند ما يبدأ التدريب فى مثل هذه المهرجانات ، لا يحاول ترتيب جلوس أوركستراه ، إنما يتلفت حوله سائلا عن رؤساء الأقسام ليتأكد فقط من موضع جلوسهم ، ثم يبدأ العمل مباشرة ، ولا يؤدى مقطوعة كاملة لمجرد التعرف على الأوركسترا ، والتعود على القاعة ، فهو إما موقف للأوركسترا إذا كانت لديه ملاحظة يبديها أو أنه يؤجل تعليقاته حتى النهاية . والواقع أنه بعد ثلاث دقائق من البداية ، يبدو كأنه يعمل مع الأوركسترا

منذ أيام . بخلاف بعض القادة ، إذ يلاحظون موضع جلوس أعضاء الأوركسترا ثم يهمهمون : « هذا محال » ويأخذون فى تغيير مواضع الجلوس بأجمعهم ، وقد يستغرق ذلك منهم ساعة من الزمن . أما توسكانينى فلا يغير شيئاً .

والتدريب مع توسكانينى يخلق جواً فريداً فى بابه ، ويكون واضحاً كل الوضوح حتى قبل أن يتخذ موقفه على المنصة ، وليس فقط عند التدريب الأول ، بل وفى كل تدريب . وتوسكانينى لا يعاو المنصة إلا إذا ساد القاعة سكون مطلق بعد انتهاء عملية تصليح الآلات كلها . ويستقبله رجال الأوركسترا وقوفاً عند كل صباح ، أداء لواجب الاحترام ، فيرد لهم تحيتهم بابتسامة « أسعدتم صباحاً » . ويزعجه أيما إزعاج إذا خطر لهم أن يستقبلوه بالتنغيم كما يفعلون مع كثير من القادة . والبداية لها عنده أهمية قصوى فى خلق هذا الجو الغريب ، المشحون بالحيوية ، الذى لا يتراخى أبداً ، والرجل فوق منصته . وهو لا يحتمل تصليح الآلات أمامه إلا إذا طلب هو ذلك شخصياً . فإذا كان لا مفر من التصليح ، فليكن ذلك دون أن تطرق أذنه نغمة واحدة من نغماته ، وهو حديد السمع ، لا يشترك بنفسه فى التصليح على خلاف منجلبرج ، إذ يكفيه أن يكون النغم صحيحاً ، وويل للمقصرين فى إصلاح آلاتهم .

وهو يصل دائماً إلى غرفته قبل بدء التدريب بربع ساعة على الأقل ، ولا يحتمل الضوضاء التى تسبق التدريب ، وبخاصة فى تلك اللحظات التى فيها يركز تفكيره فى المدونة الموسيقية . وهو يرتدى فى التدريب سترة من الألباجا مزررة حتى حلقه على الطريقة العسكرية مع سروال مخطط ، يلبس فى الجزء الأول من التدريب ياقة وأكماماً بيضاء منشاة ، لا يلبث أن يخلعها فى فترة الراحة عندما تزداد حرارة الجو .

وهو يعتلى المنصة بهدوء وهمة ، بعد إيماءة تقدير وابتسامة ارتياح رداً على تحية الأوركسترا له كل صباح ، ثم يأخذ فى البحث عن المدونة المطلوبة . وغالباً ما يبدأ عمله بالتحول نحو نقطة ثانوية يجهد نفسه فى البحث عنها ، على طريقته من قصر النظر ، وينفذ صبره إذا لم يعثر عليها . ثم يبدأ فى توجيه الكلارينت الثالث مثلا ، ست بطوطات بعد الحرف ب ، حيث يعزف مقام صول بطول الروند ، فيطالب بالعزف « كريشندو » إلى نصف البطوطة ، ثم « دمنويندو » فى النصف الثانى منها ، لا كما هى مشار إليها ، أى دمنويندو طول البطوطة . ولتوكيده ذلك يرسم بأصبعين من كل من يديه هكذا <> . وغالباً ما يبدأ التدريب بتفصيل من هذا النوع مما يوحى بأن عقله كان مشغولا بالمدونة الموسيقية قبل وصوله إلى المنصة .

وبينما يستعد الأوركسترا للعزف ، يستغرق هو فى تفكير عميق بضع لحظات ، ويميل رأسه قليلا إلى أسفل ، وقد أمسك بالعصا رأسية وهى ملتصقة بجسمه ، يلمس طرفها ذقنه . « Bien-bitte-allora » بهذه الكلمات المركبة من لغات ثلاث ينقر بعصاه بحدة على الدرج ، ويباشر القيادة دون توقف من أجل التفاصيل الصغيرة التى يحتفظ بها فى ذاكرته إلى أن تسنح بذلك وقفة اضطرارية فى العزف ، أو ترجأ إلى ختام عرض الحركة . ومعظم التفاصيل الخاطئة الصغيرة يعبر عنها بوجهه أو بقرقعة لسانه . فإذا سار كل شىء على ما يروم ، فلن يعزف القطعة مرة أخرى . إنه لا يعيد شيئاً لا تستدعيه الضرورة مطلقاً .

وقد افتتح تدريباته فى لندن عام ١٩٣٧ بسمفونية برامز الأولى (دومينور) ، عزفها حتى وصل إلى علامة الإعادة الأولى ثم توقف قائلا : « آه ، مش بطال ، فيه بعض أشياء ! الڤيولينات الأولى والثانية : أفصحوا عن الدوبل كروش ، فإننى لا أسمعها ، Bitte الڤيولينات

الأولى والثانية وحدها، ست بطوطات بعد (ا) بوضوح وبسرعة ، alors يافاجوتو ، يا فيولينه أولى وأنت يا فلوت (يغنى الجملة الموسيقية التى تبدأ بعد ست بطوطات من علامة ا).« هذه الموسيقى الجميلة ! آه لماذا لا تصدحون بها ؟ Sempre cantare, sempre cantare غنوا ، غنوا ، دائماً ! Alors-da capo من الأول » .

وبعد التوقف مرة أو مرتين ، يتجلى للإنسان الجو المشحون ، وعند كل توقف يسود القاعة سكون رهيب لا يعكره نغم شارد أو همس مكتوم ، كما يحدث أحياناً مع القادة الآخرين ، عندما يواصل واحد أو اثنان من الموسيقيين عزفهم . أما توسكانينى فالسكوت عنده فجائى ، تكاد تحسه مادياً .

وهو يطلب إلى الأوركسترا ، قبل بدء الأندانتى ، أن يعزف piano, espressivo, in tempo e cantando ثم يقف بعد عزف بضع بطوطات ليذكر وتريات القرار بالعزف « خفيفاً جداً » عند البطوطة الثالثة ثم يعزف البداية مرة أخرى ، ويستمر إلى حين دخول الشبابة ليقف مرة أخرى بعد بطوطتين أو ثلاث من العزف المفرد . « آه ، كانتاندو ! هذا عزف بارد — من العبث العزف إذا لم تصدح » ثم يغنى هذه المقاطع الأخيرة للشبابة المفردة بشعور متدفق ينقلب فيه صوته إلى «الفالستو». ويستحيل ألا يستولى عليك ذلك الشعور الفياض العجيب الذى يخيل إليك أنه يتفجر منه . فإذا وجد تجاوباً من العازفين فهو سعيد ، أما إذا غاب عنه ذلك لسبب ما ، فإنه يشعر بخيبة أمل مريرة ، تدفع به فى محاولة عصبية للتعبير عما يتصوره واضحاً فى ذهنه ، مشوشاً فى أذهان رجال الأوركسترا .

« آه ، لماذا لا تنظرون إلىّ ؟ إننى أعمل هذا أو ذاك فتفرسوا فىّ ! مستحيل ألا تفهموا ، أنديامو ! أنديامو ! إننى لا أشير بتعجيل الإيقاع ولا بالتريث فيه in tempo ، حافظ على الإيقاع واصدح ، إننى لا أطلب أكثر من «كنتارى» معى » . وهكذا تتدفق من فيه أمثال هذه الجمل المتناثرة ، ويدق الأرض بقدميه ، وتتطاير بعض الأوراق المفككة من المدونة .

وبعد بطوطة أو اثنتين تتزاحم وتريات القرار مبكرة ، فيضيع فيها توكيد الفيولينات الأولى ، وينبه توسكانينى الأوركسترا إلى أن دخولهم يجىء بعد « كروش » كامل . وعند « سولو » الشبابة يتجه إلى وتريات القرار المصاحبة ، ويقول : « لا تعزفوا بهذا الجمود ، ولكن فى يقظة ، مع توكيد النوتة الأولى ! يا شبابة ! عزفك سليم صحيح ، ولكنى أريدك أن تضع شيئاً داخل النغم ، اصدح ، كنتاندو ، سمبرى كنتاندو ! » .

ويقف مرة أخرى بعد تسع عشرة بطوطة قبل ج لينبههم إلى أن هذا هو الموضع الوحيد فى الحركة الذى يشعر فيه الموسيقى بشىء من القلق، وهذه الفقرة الموسيقية التى تكرر أربع مرات ، مبتدئة على الفلوت ومنتهية على الفيولينات الأولى ، يشير بعزفها متدرجة الانخفاض ، ويعيد عزفها مرات حتى يحقق التناسق التام بين الآلات ثم يستمر إلى النهاية . وبعد أن يشجع الأوركسترا بكلمة « Bene » يعود إلى تحذيرهم عند العودة إلى الإيقاع الأصلى فى هذه الحركة، ويقول : « إنها حركة difficile ، وما دمنا قد عزفنا فى تباطؤ فقد وجب أن نعود تواً إلى الإيقاع الأصلى » .

وتعالج الحركة الثالثة بخفة الريش والزغب ، وتظهر على محيا توسكانينى علائم الضيق عندما يتلبد الجو بين التشيللو والكنترباصات من جهة وبين الوتريات العليا من جهة أخرى عند حرف ب . وتكون هذه الفقرة باعثة على صيحاته الأولى « حاسب ! via via ، ليست واضحة . ياتشيللو أنتم متأخرون، وأنتم ياكونترباص العبوا وحدكم ، تمبو ، تمبو دون تريث أو إسراع ، "Absolument in tempo"

عند ما يعالج تأليفاً صعباً من هذا النوع ، أو تصادفه بعض العقبات الفنية ، فإنه يطلب إلى الآلات المقصودة أن تعزف وحدها ، فإذا بلغ مراده مرة فلن يعاود الطلب مرة أخرى . وتدريبه على الحركة الأخيرة قليل جداً ، فهو يبنى الحركة بأجمعها حتى تصل إلى ارتفاع مريع più allegro ويردفها بلحن الكورال معزوفاً بنفس السرعة . ويخرق بذلك التقليد المتعارف عليه من عزفه متباطئاً molto largamente .

ولم يحدث طوال المهرجان أن كرر التدريب أكثر مما يجب ، وفى حالات قليلة ، فى مثل الحركة الأخيرة لبرامز ، ولم يتجاوز المرة الواحدة . ولم تعزف الحركة الأولى والإسكرتسو فى « الإيرويكا » سوى مرة واحدة فى بداية التدريب ، ثم لم يقربها مرة أخرى إلا فى بعض مقاطع قليلة منها . لكنه من جهة أخرى عنى كثيراً بالتدريب على « المارش الجنائزى » وخصوصاً فى مقاطعه الأخيرة ، وعند الفقرات المؤلفة على غرار « الفوجة » . وكذلك الحركة الأخيرة بأجمعها . وهو يمضى وقتاً ضخماً فى التدريب النهائى على الخاتمة من أجل الوصول إلى تآلف واضح عند بداية الحركة ، وكذلك فى الانتقال من مجموعة آلات إلى مجموعة أخرى فى المرجعات .

وهو لم يتعود على مثل هذا العمل التفصيلى فى التدريب الأخير ، فلا عجب إذا هو انفجر بشكل مريع وأثار غضبه فجأة عزف الـ poco andante ، وكان العمل قد بلغ هذا الحد على أحسن حال ، وإذا به ، دون سابق إنذار ، يمسك بالمدونة الموسيقية المفتوحة أمامه ويكاد يمزقها إرباً إرباً وقد تطايرت أوراقها المفككة حول المنصة ، وجعل يضرب الأرض بقدميه وهو يدور على نفسه فوق المنصة ، ويتدفق من بين شفتيه سيل من الإيطالية يستعيذ فيه بالقديسين ، وبالرب نفسه « لماذا غيرتم التمبو ؟ لماذا جنحتم إلى الإسراع والتباطؤ ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ » ثم سيل آخر من الإيطالية مع مزيج من الفرنسية والألمانية . ويتحول وجهه ، الذى يعتبر من أجمل الوجوه فى حالة هدوئه ، إلى شكل مخيف . ومع ذلك فأمثال هذه الزوبعة لا تدوم إلا قليلا ، ولن تتأثر بها بقية التدريب بحال من الأحوال . وهذه الفقرة الموسيقية بالذات عزفت مرة أو مرتين ، كى يحقق لها التوازن المطلوب ، ولكنها كانت المرة الوحيدة التى كان انفجاره فيها خطيراً .

وتوسكانينى لا يحاول ، فى القطع الموسيقية الضئيلة الشأن ، أن يلزم المؤلف برأيه ، ولكنه دائماً يحاول بغير كلال أن يكون أميناً فى أداء رأى المؤلف ونادراً ما يفشل ، ولكن إذا لم يستطع « أن يخاطب » الأوركسترا بوضوح ، على حد تعبيره ، فما أسرع ما يصاب مزاجه بالتعكير .

ولتوسكانينى مقدرة على تذليل الصعاب الفنية ، وعزف فقرات الحشو الموسيقى . إنه يشعر بإيقاع مقطوعة ما ، ويعزفها بالإيقاع الذى تبلغ فيه ذروتها . فى مثل مقطوعة إلجار : « مقدمة والليجرو » يتوقف العزف على التمبو الصحيح ، لتظهر القطعة فى أبهى حلة من الوضوح والسناء ، فعبقرية توسكانينى تكمن دائماً فى مقدرته على التوفيق بين هذه الحقيقة وبين اتجاهات المؤلف . إنها مسألة مستترة قد لا يلحظها المستمع ، ولكن أعضاء الأوركسترا يدركونها غاية الإدراك . ولا تنفصل الصعوبة عن السهولة بأكثر من قيد شعرة فى المسائل الفنية ، وتوسكانينى ينجح دائماً فى بلوغ السهولة .

ونحن ، رجال الأوركسترا ، نشعر بأننا أشد الناس ارتباطاً بقائدنا ، فنعرف قبل غيرنا إن كانت الموسيقى تنبع من قلب القائد أو من عقله . وأقولها فى صراحة وعن ثقة : إن النبعين يتوازنان تماماً فى توسكانينى . فعمله الموسيقى يصدر من كيانه كله ، وإن كان عقله هو الذى يوجه قلبه . هذه حقيقة يلمسها كل عضو فى الأوركسترا فى الدقائق الخمس الأولى عند التدريب .

إنه يستسلم تماماً للموسيقى ، وكل سطر من سطور وجهه يعبر عن شعوره المتدفق ومدى عمقه وعنفه . وفى الحق لا يدل احتفاظه بالسيطرة المطلقة القوية على أنه غير مخلص لنوازع نفسه ، لأن كل قوة على وجه الأرض يجب السيطرة عليها ليكون لها الأثر الفعال ، انظر إليه وهو يضاعف من قوة بناء الذروات الصوتية ، وكيف يطالب بالمزيد ثم بالمزيد إلى أن تنفد أنفاس رجال الأوركسترا وقواهم ، فيمنحهم من احتياطيه أنفاساً وقوة إلى أن يصل بهم فى أقصى الحيوية إلى النقطةالتى يرجوها لبلوغه الذروة . ولا يسمح لقواه أن تضيع سدى ، كما أنه لا يحاول إضافة ألوان من عنده فوق ما أراد المؤلف لحمله الموسيقية . ومجده الرفيع يتجلى فى أداء العمل الموسيقى ببساطة خلابة تجعله يبدو فجأة فى حلة قشيبة وضوء جديد ، وبالرغم من هذا فالموسيقى تعزف كما أراد لها مؤلفها تماماً .



←

رقصة الحلوى
للدكتور خليل مظهر

بين المأساة والملهاة

بقلم الدكتور محمد زكي العشماوي

إن الكلام عن المسرحية قديم منذ عرفت المسرحية عند اليونان القدماء ، ولقد كان أرسطو أول من حاول أن يضع تحديداً لهذا النوع من الفن فى المسرحية ، ولقد جاء هذا التحديد بارعاً فتأثر به دارسو الأدب ونقاده زمناً طويلاً ، وجعلوه أساساً لفهمهم ودراساتهم فيما بعد .

وإذا كان تعريف أرسطو للمأساة قد صادف شيئاً من النقد ، فقد جاء أكثر هذا النقد لعدم استطاعة الناس بعد أرسطو أن يدركوا ما قصد إليه ، وإنما اختلفوا فى فهم أقواله ، وتضاربت أقوال الشارحين والمفسرين فاختلفت تبعاً لذلك ردودهم على نظريته .

لقدحاول أرسطو أن يعرّف المأساة فحدثنا عن طبيعة المأساة ، وعرض علينا ما ينبغى أن يتوفر لها من عناصر ، فذكر أنها عمل جدّى كامل أو تقليد لعمل جدّى كامل ، ولعله يفهم أن كلمة تقليد هنا إنما تعنى أن الفن يستمد موضوعه من الطبيعة بأوسع معانيها ، فأرسطو يشير بهذه اللفظة إلى أن المسرحية ينبغى أن يتوفر لها ما يتوفر لسائر الفنون من قوة الخيال والإلهام ، ثم يذكر أنها عمل جدّى أى أنها تصور كما تصور سائر فنون الشعر أفعال الإنسان فى حياته ، فالمأساة فى الواقع تعبير عن الفعل الإنسانى ، ولكنها تختلف فى تناول هذا الفعل الإنسانى ، عن سائر ضروب الشعر ، فالقصة مثلا تتناول تصوير الفعل الإنسانى ، ولكنها تختلف فى ذلك عن المسرحية؛ فالمسرحية مقيدة بزمن محدود ينبغى أن تمثل فيه وتنتهى فى جلسة واحدة يشاهدها جماعة من الناس ، بينما تجد القصة الحرية فى تناول الفعل الإنسانى فى شتى صوره وتجد الوقت الكافى لتصوير سوابق الفعل ولواحقه ، وتتعمق إلى جوانبه المختلفة فتعرضه بالتحليل والتصوير ، والمسرحية لا تحيط من الفعل الإنسانى إلا بجانبه البارز ، فالمسرحية مثلا عند ما تريد تصوير رحلة بحرية يقوم بها جماعة من الناس فإنها لن تأخذ من عناصر هذا الفعل إلا صورة بارزة واحدة بينما تستطيع القصة أن تتبع الرحلة منذ بدايتها إلى نهايتها وأن تحدثنا عن المواقف بالتفصيل . محركة فى نفوسنا صور النفس الإنسانية فى كل جزئية من جزئيات الفعل الإنسانى .

إذن فالمسرحية تتخذ تصوير الفعل الإنسانى من جانبه البارز الواضح ، وهذا ما عناه أرسطو عندما قال عند تعريفه للمأساة بأنها ينبغى أن تكون فى صيغة مسرحية لا فى صورة قصصية ، ولكن هذه الصيغة المسرحية التى تحدث عنها أرسطو فى حاجة إلى تفصيل طويل ، فثمة اختلاف كبير بين القصة التى تكتب لتقرأ وبين القصة التى تكتب لتمثل ، وليس من شك أن المسرحية أدب يراد به التمثيل؛ والتمثيل شىء متعدد العناصر يجتمع فيه الممثلون والملابس والمسرح والنظارة والمناظر . فوق ما فى المسرحية نفسها من عناصر تتمثل فى الفكرة والقصة والحوار ، وإذن فالخامة التى تتألف منها المسرحية هى هذه العناصر مجتمعة ، وبقدر ما يوفق الكاتب إلى تحقيق الانسجام بين هذه العناصر المؤتلفة ، وبقدر ما يوحد بينها فى عمل متكامل ، وبقدر ما يكون لها من تماسك بقدر ما يكون لها من نجاح وكمال ، ولقد تبدو هذه العناصر متنافرة ، ولكن الفنان له من روحه ما يطوع له أن يخلق من مقومات

فنه المتباينة عملاً متناغماً له كيانه الحى النابض .

وإذن فأول ما ينبغى أن يراعيه كاتب المسرحية أن يختار من الفعل الإنسانى جانبه الذى يثير الدهشة والعجب ، لأنه يريد أن يضع فكرته فى زمن محدود بساعات قليلة فيؤثر الحوادث التى يتوفر لها عنصر الإثارة والتى تستوقف النظر ، وليس عنصر الإثارة شيئاً يهتم به الكاتب فيصرفه عن سائر العناصر الواجب توافرها ، فنحن نعرف أنه بمجرد أن يطغى عنصر من هذه العناصر على الآخر فقد ظهر التنافر ، فإن عنصر الإثارة سيجد إلى جانبه عنصر الممثل وهو لا يقل أهمية لأن المسرحية تستعين بإنسان بشرى ليكون وسيلة لتأدية فعلها أو عملها . فالممثل بحكم كونه إنساناً ينبغى أن يظهره المؤلف فى صورة إنسان يأتى الأفعال الإنسانية العادية ، فلا يليق عندئذ أن يظهره كاتب المسرحية فى موقف من المواقف الخارقة لطبيعة الإنسان ، ولقد أصبح المسرح الحديث ينفر من استعمال الأشباح والجن ، لأنك تحاول عندئذ أن تجعل الإنسان يسلك سلوك هؤلاء وفى هذا تقمص لشخصيات خيالية قد يصعب على الممثل الآدمى أن ينهض بها وتبدو شيئاً خارقاً لا يستساغ ، ولعلنا ندرك كم يعانى المخرج الحديث عند ما يحاول إخراج مسرحية هملت ويجد أمامه شخصية الشبح أو أشباح ماكبث أو الجن فى مسرحية مجنون ليلى لشوقى .

وإذن فالممثل سيعبر عن أفعال إنسانية غير خارقة لطبيعته ، والممثل لا ينبغى أن يزيد فيه عنصر الكلام على عنصر الحركة ، ففى بعض المسرحيات نرى أن الكلام يطغى بحيث تقل معه الحركة الجسدية للممثل ويكون عندئذ التأثير مركزاً فى الكلام ، ويضعف بذلك الفعل الجسدى المنظور المشاهَد على المسرح فيلفت النظر . ومع أن الكلام ضرب من الفعل الإنسانى إلا أن فقدان الحركة الجسدية يعرِّض فن المسرحية لخطر كبير ويفقدها التوازن ومن الأمثلة الواضحة لهذا النوع الفصل الثانى من مسرحية كليوباتره لشوقى فإن الحركة تكاد تنعدم فيه ، وهو الفصل الذى تظهر فيه حفلة كليوباتره لمارك أنطونيوس بعد عودته من القتال فيكثر فيها الغناء والشرب والحديث ، وتقل فيها الحركة المسرحية بل تكاد تنعدم ، وكذلك فى الفصل الأول من أهل الكهف لتوفيق الحكيم .

غير أن عنصر الحركة المسرحية ينبغى ألا يتحرر كل الحرية ، فالعمل الجسدى فى المسرحية محدود يحد منه البناء المسقوف الذى تدور فيه أحداث المسرحية ، فالمسرحية تمثل من الأفعال الإنسانية ما يمكن حدوثه داخل البناء أى داخل المسرح وتهمل الأحداث التى تخرج عن هذا النطاق ، وأعمال المسرحية لا ينهض بها ممثل واحد ، وإنما ينهض بها جماعة من الممثلين ، والرواية الجيدة هى التى تستطيع أن تضع شبكة الأفعال فى صورة تتفق وصورة الجماعة الإنسانية ، وهذا هو الفارق بين المسرحية والقصيدة الغنائية . فالقصيدة تمثل الفعل الإنسانى من جانبه الفردى ، أما المسرحية فتمثله من جانبه الجماعى ، وهذا ما يفسر لنا تطور المسرحية التى أصبح عدد ضخم منها يدور حول موضوعات اجتماعية يشعر الإنسان أنه لا يتحرك فى خلاء وإنما يعيش فى مجموعة إنسانية ، وإذن فنحن ننظر إلى أفعال المسرحية من حيث علاقاتها بأفعال أخرى ، ويحاول المسرح بقدر اتساعه وبقدر مناظره وطاقته أن يقارب بين الواقع وبينه ، فهو يحاول أن يعطيك صورة من مجتمع تراه فى الحياة وتشاهده مثل النزاع بين الفرد والأسرة أو بين الفرد والمجتمع أو الحزب الذى ينتمى إليه .

والمسرحية مضطرة بحكم خضوعها للمسرح أن تتجه اتجاهاً واقعياً ، وأن تصور الأشياء إلى حد كبير بظواهرها لا بحقائقها الخافية وراء الظواهر ، وقد يصعب على المسرحية التعمق إلى مشكلات الكون الكبرى والمثل الإنسانية العليا ، لذلك فإننا نلاحظ أن المسرحية قد بدأت تتطور بالفعل إلى الملهاة ، فالكثرة الغالبة الآن من

المسرحيات مسلاة ، وتعليل ذلك أن طبيعة الملهاة قريبة من الواقع .

نحن نعرف أن المسرحية التى تدور أحداثها حول صراع ينتهى بالفشل وموت البطل هو المأساة . أو أن المسرحية التى تنتهى بفوز البطل فهى الملهاة مع فروق [جوهرية أخرى تفرق بين الملهاة والمأساة ، فالمأساة تحتاج فى ربط الحوادث وجريانها إلى منطق شعورى معقول تتحقق به المأساة ، بحيث لا يشعر الذى يرى المأساة أن شيئاً غير عادى قد حدث أو أن شيئاً غير عادى قد أثر فى جوهر الحوادث وأخضعها لعامل الصدفة ، فلا يصح مثلا أن يموت البطل فى صدام مفاجئ يحس له المشاهد قلقاً نفسياً ويحتاج المشاهد عندئذ أن ينهض من مقعده لينقذه من موته ، ونحن نعلم أن عامل الصدفة متحقق فى الحياة ، ولكن لا ينبغى مع ذلك أن يكون اعتماد المؤلف عليه دون غيره ، وإنما ينبغى على المؤلف أن يجعل موت بطله شيئاً لا يمكن دفعه وتبرره المقدمات ويتحتم وقوعه مع منطق الحوادث ، ففى مسرحية كمسرحية روميو وجوليت لشكسبير عند ما يقتل البطل نفسه أمام جثة صاحبته التى ظنها ميتة ، وعندئذ قد يصيح أحد المشاهدين ليمنع روميو من قتل نفسه فيكون بصيحته هذه موجهاً طعنة من النقد إلى مؤلف المسرحية .

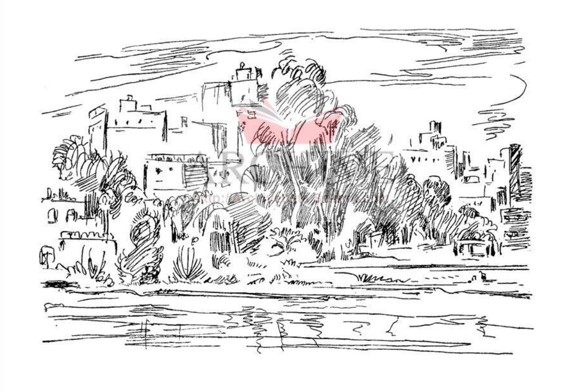
وإذن فتحقيق المأساة لا يتم إلا إذا سارت حوادث المسرحية بالبطل إلى موت محتوم ليس فيه عامل من الصدفة ، أو تكلف مصنوع . أما الملهاة فلا تعالج من الأفعال إلا الجانب البسيط الواضح فتعالج من الأشخاص عاداتهم . ما يتفق منها وتقاليد المجتمع ، وما يختلف وأوضاع الحياة الاجتماعية ، ولذلك فإن الملهاة تختار أحياناً من الرجال الذين تتعارض أعمالهم وتنعكس مع أوضاع الجماعة فيثير بذلك ضحك المشاهدين وسخريتهم . وليس معنى هذا أن الملهاة تخلو من العمق والجد وإنما نقصد أن مجال نبوغ الملهاة هو فى تصوير جوانب الحياة الواقعية المادية ، وهى من غير شك حين تبصرنا كيف ينبغى أن نحيا ، وحين تنظر النظرة الصادقة التى تفرق فيها بين الحق والباطل والتى تحاول فيها أن تبرز لنا الفعل المنحرف عند ما تعرضه جنباً إلى جنب مع الفعل المستوى — لا شك أن الملهاة حين تتناول هذه النواحى إنما تعبر عن الجد العميق ، ولكنها تختلف عن المسرحية فى أنها لا تمثل الفعل كما تريده القوة المدبرة المسيطرة على الكون وما فيه ، كما نلاحظه فى بعض مآسى اليونانيين القدماء ، ومن هنا كانت لغة المأساة القديمة مختلفة عن لغة المأساة الحديثة ، وبالأحرى عن لغة الملهاة.

فالمأساة اليونانية القديمة يتضح فيها أن أفعالها من تدبير قوة عليا ، فأساة أوديب جاءت من إرادة الآلهة فالجريمة التى ارتكبها أوديب برغم جهله بها تراها الآلهة شيئاً لا يغتفر وشيئاً ينبغى التكفير عنه ، فالبطل هناك خاضع لتدبير قوة عليا ، وإذن فالفعل فى المأساة اليونانية مجاله كون آخر غير الكون الأرضى ، ولذلك فإن مجال الخيال والرمز والشعر أوسع مدى وأكثر انتشاراً فى مآسى ذلك العصر ولقد تغير الموقف إلى حد كبير فى مسرحيات شكسبير ، فالذى ساق هملت إلى قضائه وموته لم تكن قوة خارجة عن شخصه وإنما كانت كذلك شخصيته ، وكان كذلك سلوكه وهما العاملان اللذان حددا موقفه الأخير ، وبرغم اختلاف المسرح فى عصر شكسبير عنه فى عصر اليونانيين القدماء فإنه ظل متحرراً من كثير من قيود المسرح الحديث ، وظلت كذلك المأساة تعالج إلى حد ما القوانين الكونية الشاملة المسيطرة على حياة الإنسان .

من أجل هذا كانت اللغة التى تكتب بها المأساة القديمة شعراً ، وكذلك الملهاة . والذى ساعد على هذا أن روح المأساة القديمة كانت من روح الشعر التى تخلق فيها عند ما نريد أن نسمو بأرواحنا ، وأن نستروح نوعاً من الترانيم الدينية المثالية التى لا تقوى عليها غير لغة الشعر ، ولقد ذكر لنا أرسطو وهو يعرف المأساة أن وظيفتها الأولى : أنها تحدث فى النفس تطهيراً Katharsis

يخلصها من الأذى بما تبعثه فى النفس الإنسانية من عواطف الرحمة والخوف، فكان عنصر التطهير وهو عنصر دينى من أهم العناصر التى توفرت للمأساة القديمة ، ومن أجل ذلك كان ينبغى لشعراء اليونان أن يعالجوا مآسيهم بلغة جديرة بهذا المعنى الدينى . أما المسرح الحديث فقد دخلت عليه قيود كثيرة حددت موقف المأساة والملهاة منه ، فلم يكن فى المسرح القديم كل هذه المناظر والستائر والنضد والأثاث ، وكل هذه العناصر تحد من خيال الشعراء وتحصرهم فى جو من الواقعية يقربهم من الحياة العادية ، فيكون النثر عندئذ طبيعياً فى التعبير عن الحياة المادية التى توحى بها مظاهر الحياة الواقعية فى المسرح الحديث .

وهكذا كلما اقتربت المسرحية من الواقع كلما تجردت من الشعر ، وكلما تطورت فاقتربت فى طبيعتها من طبيعة الملهاة .



أصل الحياة

بقلم الدكتور فؤاد زكريا

لو راجع كلٌّ منا مجموعة المشكلات التى تشغل دهنه كلما خلا إلى التفكير فى نفسه وفى الكون المحيط به ، لوجد على رأسها مشكلة أصل الحياة .

فالحياة ، تلك الصفة الفذة الفريدة التى تنفرد بها مجموعة معينة من الكائنات وسط بيئة أخرى خلت منها تماماً — هى بلا جدال ظاهرة كانت تجتذب تفكير الإنسان وتسترعى انتباهه العميق منذ أبعد العصور ، وكم دارت حولها بين الفلاسفة من مناقشات ، وكم نُسجت حولها من أساطير ، وبُنيت عليها مذاهب ومعتقدات !

فمن الأمور المحيرة للذهن الإنسانى بحق ، التفكير فى أصل هذه الظاهرة الفريدة التى يجد الإنسان نفسه متميزاً بها عن الطبيعة الجامدة المحيطة به . وحين يتعمق التفكير فيها قليلا ، فسرعان ما يتبين له أنه ليس هو الكائن الوحيد الذى يتصف بصفة الحياة ، بل إن مملكة الحيوان والنبات بأسرها تشاركه إياها . فكيف انفرد هذا العالم الحى بصفات النمو والتغذى والتكاثر عن العالم غير الحى ، الذى يظل دائماً على جموده وثباته ؟ وعلى أى نحو ، وفى أى عصر ، ظهرت صفة الحياة هذه ؟

لا شك أن من أول الإجابات التى تطرأ على الأذهان الساذجة ، القول بأن الفارق بين الحىّ وغير الحىّ فارق ظاهرى فحسب : فالكون كله كائن حى هائل ، وكل مظاهر الطبيعة ، حتى المادة الجامدة ، تدب فيها الحياة ، وما الكائنات الحية المألوفة إلا مظهر ضئيل لتلك الصفة التى تسود الكون بأسره . ذلك هو الحل الذى أتت به أولى المدارس الفلسفية فى العصر اليونانى ، المسماة بالمدرسة الأيونية ، وهو ، كما نرى ، حلٌّ يتخلص أصلا من مشكلة أصل الحياة ، إذ يؤمن بأن الحياة ظاهرة أصيلة فى الكون ذاته ، أعنى ليس لها أصل ولا مبدأ أول ، وإنما وجدت فيه بالطبيعة .

على أن سذاجة هذا الحل تبلغ من الوضوح حداً يجعلنا فى غير حاجة إلى مناقشته مناقشة مفصلة : فهو مبنى على نظرة مشبِّهة بالإنسان Anthropomorphique يتصور الإنسان فيها الطبيعة الخارجية على مثاله ، ويستبعد مقدماً فكرة وجود اختلاف بينه وبين هذه الطبيعة ما دامت تجر عليه مشكلات لا قبل له بالتفكير فيها ، فيتصور العالمين : عالم الطبيعة غير الحية وعالم الحياة ، على أنهما متصلان ومتجانسان ، ويمحو الهوّة السحيقة الفاصلة بينهما .

ليست مثل هذه الحلول إذن : هى التى تساهم فى إيضاح غوامض تلك المشكلة المعقدة ، مشكلة أصل الحياة ، فلندعْ ما فيها من روح أسطورية جانباً ، ولنناقش حلولا أخرى تبدو أكثر جدية .

* * *

ووسط ذلك العدد الهائل من الآراء والمذاهب المختلفة ، نستطيع أن نلمح اتجاهين رئيسين : اتجاهاً يقف بالمشكلة عند حد معين يتوقف بعده ، واتجاهاً يحاول أن يسير فى طريق الحل إلى النهاية . وفى رأينا أن هذا خير تقسيم ممكن نستطيع أن نميز به الحلول العلمية من غير العلمية بالنسبة إلى هذه المشكلة ، بل بالنسبة إلى ما عداها من المشكلات . فلا جدال فى أن العلم

حركة دائبة ، وسعى متواصل إلى كشف الحقيقة . والنظرية العلمية الصحيحة هى تلك التى تظل تتعقب الظاهرة دون توقف حتى تصل إلى أصولها الأولى ، فإن لم يكن فى وسع جيل من الأجيال أن يصل إلى هذه الأصول ، فليس له مع ذلك أن يسد الطريق أمام الأجيال التالية ، ويدعو إلى التوقف عند حد معين ، مؤكداً أن الذهن يعجز عن المضى فى التفسير إلى أبعد من ذلك ، بل ينبغى عليه أن يترك الطريق مفتوحاً أمام أذهان الأجيال التالية ، التى سيصل أحدها حتماً إلى الحل الصحيح . ومن هنا كانت الروح العلمية الحقة هى تلك التى تتعقب الظاهرة حتى أصولها الأولى ، بينما ينبغى أن توصف كل نظرية تدعو إلى التوقف عند نقطة معينة قبل الحل النهائى ، بأنها غير علمية ، مهما ادّعت الانتساب إلى مجال العلم .

* * *

فلنبدأ إذن بأن نتأمل طائفة من الآراء التى تتوقف بالمشكلة فى منتصف الطريق ، ولا تمضى فى حلها إلى النهاية .

أول هذه الآراء ، ذلك الاعتقاد الشائع بين كثير من السذج ، من أن الحياة تتولد تلقائياً : وهو اعتقاد قديم ظل سائداً فترة طويلة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، ولا يزال يؤمن به الكثيرون ، ويقول أنصار هذا الاعتقاد بأن الكائنات الحية يمكن أن تظهر تلقائياً ، دون أن تكون راجعة إلى كائنات حية سابقة وتؤيد اعتقادهم هذا مشاهدات غير دقيقة ؛ تبدو فيها الحياة متولدة تلقائياً ، كما فى الديدان التى تتولد فى جوف الصخور الصلدة أو فى العفن ، ولنذكر هنا المثل العامى القائل : « دود المش منه فيه » . هذا الرأى ظل سائداً حتى أثبت « باستير » بما لا يدع مجالا للشك ، أن كل الكائنات الحية ترجع إلى كائنات حية أخرى ، وأن الاعتقاد بالتوالد التلقائى المزعوم لا يرجع إلا إلى ضآلة حجم الكائنات الحية الأصلية ، التى لا يمكن فى معظم الأحيان ملاحظتها بالعين المجردة ؛ وهكذا أمكنه أن يعلن على نحو قاطع : « أن التوالد التلقائى خرافة » .

على أن بعض الباحثين قد حاول أن يأتى بحل آخر للمشكلة ، فقال : إن الحياة ترجع إلى مجموعات من الصفات التى تنتقل ثابتة من جيل إلى جيل . وفى فلسفة الرواقيين تعبير واضح عن هذه الفكرة ، فعندهم : أن لكل حى بذرة كامنة ، أو بتعبير أدق ، مبدأ بذرى Logos spermatikos يقرر مستقبله فى داخله ، ويجعل كل شىء يحدث فيه بدقة ، وفى موعده الضرورى .

هذه المبادئ البذرية تسرى فى الحى من البداية إلى النهاية ، وهى أشبه بروح كامنة فى المادة ، وأصل ظهورها مفاجئ ، ثم تظل سارية فى الأشياء ، ويتحقق كل منها إذا جاء الوقت ، وسنحت الظروف الملائمة . ومثل هذا المذهب فى رأينا غير علمى ، لأنه يقف بالظاهرة عند حد معين ، هو ظهور المبادئ البذرية للأحياء فجأة وبهذا يفسح المجال لمختلف التكهنات والتخمينات عن هذا الظهور المفاجئ .

على أن من المذاهب ما يدعى لنفسه الصبغة العلمية ، وهو منها براء ؛ فمذهب (لوكريس Lucréce) وهو بدوره فيلسوف لاتينى قديم ، لا يلجأ فى تفسيره للحياة إلى أفكار غامضة كالمبادئ البذرية ، بل هو يفسر كل شىء عن طريق الحركة الآلية للذرات ، دون تدخل أى مبدأ روحى . فالكون فى الأصل عبارة عن ذرات لا متناهية ، تتهاوى ، ولكن يحدث أحياناً أن تنحرف قليلاً عند سقوطها ، فتتجمع بعض الذرات ، وتكوّن مركبات أكثر تعقيداً ، وينجح بعض هذه المركبات — بالصدفة — فى تكوين مختلف الكائنات الحية . وهذا الالتجاء إلى الصدفة لا يقل إخفاقاً عن الالتجاء إلى مبادئ غامضة كالمبادئ البذرية ، إن لم يتجاوزه ابتعاداً عن الروح العلمية .

ومع ذلك، فلم يكن الأمر مقصوراً، فى هذه التفسيرات غير العلمية ،على المدارس الفلسفية القديمة وحدها ، بل كانت هناك مدارس حديثة فى علم الحياة وقعت فى أخطاء مشابهة لهذه ، وإن كانت تتخذ لنفسها فى الظاهر صبغة العلم الدقيق . فقد رأى بعض خلفاء « دارون » مثل : مندل Mendel ومورجان Morgan ؛ أن الخصائص الحيوية تحملها مواد تسمى بالمورّثات genes ، تتركز فى صبغيات نواة الخلية الحية . هذه المورّثات قد ظهرت بغتة فى عالمنا هذا ، وظلت هى التى تحدّد الحياة بتركيبها الخاص الذى لم يطرأ عليه تغير جوهرى خلال التطور الكامل للحياة . على أن هذا الظهور المفاجئ للمورثات لا يحل المشكلة أصلا ، بل يُبقى على كل غوامضها ، وما أشبهه بالرأى الرواقى فى ظهور المبادئ البذرية لكل الأحياء دفعة واحدة ! ومن أصحاب هذا الرأى فريق يحاول تعليل هذا الظهور المفاجئ للمورّثات بالصدفة الحسنة وحدها ، فيكون فى ذلك أشبه بلوكريس ، فيلسوف الصدفة الآلية القديم . فليس هذا فى حقيقة الأمر تفسيراً للمشكلة . إذ لا تكفى المصادفات أبداً لتفسير ذلك التنظيم الداخلى الدقيق ، والقدرة على أداء الوظائف الحيوية المتباينة ، التى تتميز بها كل الكائنات الحية .

وإذن ، فلكى تكون النظرية علمية بحق ، ينبغى عليها ألاّ تتوقف فى سيرها عند حد معين ، أو على الأقل ، لا تغلق الأبواب فى وجه محاولة المضى فى التفسير إلى النهاية . وكل نظرية تنتهى إلى نقطة معينة ثم تعلن عجزها عن التفسير ، بل تؤكد أن تفسير ما يجاوز ذلك محال ، وكل نظرية تهيب بالصدفة والاتفاق، وتجعلهما أساساً لفهمنا للأشياء، لا تستحق أن تنتسب إلى الروح العلمية الصحيحة .

* * *

ولندع هذه الآراء غير العلمية جانباً، ونبدأ فى تلمس الحل الصحيح لمشكلة أصل الحياة . والخطوة الأولى فى سبيل هذا الحل ، هى أن ندرك طبيعة المشكلة ذاتها ، ونقدِّر صعوبتها . فبين الحى وغير الحىّ هوة عميقة ، واختلاف هائل. ولا شك أن فى ذهن كل منا فكرة عن الفروق التى تميز عالم الحياة من العالم غير الحى . ولكن ، إذا شئنا أن نعبر عن هذه الفروق بطريقة دقيقة ، لقلنا : إن أهم ما يميز الحى فى تركيبه الكيميائى هو ازدياد نسبة المواد اللامعدنية فيه ، وغلبة عنصر الكربون على تكوينه(بينما تغلب السلكا والسلكات على عالم اليابس، وتكون نسبتها فيه ٩٤٪) . ويسهل إدراك أهمية عنصر الكربون هذا إذا رفعنا درجة حرارة أجزاء من جسم الحيوان والنبات شديداً ، فإنها تتفحم ، بينما لا تتفحم الأجسام غير الحية إذا سخنت .

وبين الحى وغير الحى فارق أساسى فى تكوينه الباطنى : فالتكوين الداخلى للحى عظيم التعقيد ، وظاهره غير باطنه ، إذ أنه ينمو نمواً داخلياً ، لا بإضافة عناصر جديدة إليه على نحو ظاهرى — فى حين أن غير الحى يتميز فى تكوينه بالتجانس التام ، ويشبه ظاهره باطنه ، وإذا نما فبالإضافة الخارجية فحسب .

وأهم من ذلك كله أن الحى فى سلوكه يوجه نفسه بنفسه ، فهو كما يقول الفيلسوف الألمانى كنت Kant « علة ومعلول لذاته » ، أى أنه يتحكم فى نفسه بنفسه ، ويوجه ذاته تبعاً لمطالبه الباطنة — ومثل هذا النوع من السلوك الموجه يغيب تماماً عن مجال غير الأحياء .

* * *

ولعل القارئ قد أدرك ، من هذه الفروق الجوهرية مدى اتساع الهوة بين عالم الأحياء وعالم غير الأحياء . ولعله أدرك أيضاً صعوبة إيجاد حل علمى سليم لمشكلة الحياة ، تُعبر فيه هذه الهوة السحيقة ، دون الحاجة إلى الإهابة بأفكار ومبادئ غامضة ، ودون الالتجاء إلى الاتفاق أو الصدفة .

ولنفكر فى الأمر أولا من الناحية المنطقية الصرفة : فالحياة ظاهرة من ظواهر هذا العالم الذى نعيش فيه . ووجودها فى هذا العالم لا بد أن يكون قد حدث على أحد أنحاء ثلاثة لا رابع لها : فإما أن تكون الحياة قد وجدت دائماً ، على أرضنا هذه ، أو تكون قد وردت إليها من كوكب آخر خارج عن هذه الأرض ، أو تكون قد ظهرت على الأرض فى مرحلة من مراحل تطورها .

أما الفرض الأول القائل بأن الحياة قد وُجدت على الأرض منذ بداية تكوينها ، أى أنها ظاهرة مصاحبة لظهور الأرض ذاتها ، فلا تؤيده أية نظرية علمية . ويسهل تفنيد ذلك الفرض إذا أدركنا أن الأرض التى نعيش عليها قد مرت — فى بداية عهد تكوينها — بفترة طويلة كانت حرارتها فيها من الارتفاع بحيث لا تسمح بظهور أى نوع من أنواع الحياة .

أما الفرض الثانى : القائل بأن الحياة قد وردت إلى أرضنا من مصدر آخر ، وبُذرت فيها عن طريق جسم من الأجسام الفلكية المحيطة بها ، فنستطيع أن نفنده إذا تساءلنا : من أين تأتى بذور الحياة هذه ؟ إن قيل إنها أتت مع نيزك هبط على الأرض ، كان ردُّنا أن النيازك تأتى من نجوم فى مرحلة ليس فيها ماء ولا هواء ، ولا يتوافر فيها أى شرط من شروط الحياة . ولكن لو فرضنا جدلا أنها أتت من كوكب مسكون ، حاملة معها بذور الحياة ، فسوف نلاحظ — رغم ذلك أن اصطدام النيزك بالغلاف الجوى يحطمه ، فما بالك ببذور الحياة ؟ ! ثم إن المسافة التى تباعد بيننا وبين أقرب النجوم تقتضى فى قطعها زمناً لا يعيشه أطول الأحياء عمراً — كل هذا ، فضلا عن الارتفاع الهائل فى درجة حرارة الأجواء التى تعبرها النيازك ، وتعرضها خلال رحلتها للإشعاعات القاتلة . وأخيراً ، فبجانب ذلك التفنيد العلمى ، هناك تفنيد آخر عقلى : فذلك الفرض لا يرضى العقل ولا يشبع نزوعه إلى المعرفة ، إذ أنه يقتصر على إرجاء المشكلة فحسب ، وبدلا من أن نتساءل : كيف ظهرت الحياة فى عالمنا ؟ سوف نظل من بعده نتساءل : وكيف بدأت الحياة فى تلك الأرجاء التى جاءتنا منها بذور الحياة ؟ ! . . .

وإذن فلم يبق إلا فرض واحد ، هو أن الحياة قد ظهرت على أرضنا هذه فى وقت ما ، أى أنه أتى على الأرض حين من الدهر لم تكن فيه حياة على الإطلاق ، ثم ظهر عليها كائن أو عدة كائنات حية ، فكيف حدث ذلك ؟ وما السبيل إلى كشف الطريقة التى ظهرت بها الحياة ؟

من أكبر العوامل التى أعانت العلماء على تكوين فكرة عامة عن أصل الحياة أن الأنواع المختلفة للأحياء لم تتطور كلها سويًّا ، وتسير فى طريق التحول معاً . فلو كان ذلك قد حدث ، أعنى لو كانت كل الأحياء قد تطورت معاً ، لما كان فى وسعنا أن نتصور أحوال الحياة فى عصورها الغابرة . وإنما تطورت الحياة على نحو غيرَ متكافئ ، فظل بعض أنواعها حتى اليوم فى حالة أشبه بحالته الأولى ، وظل بعضها الآخر فى حالة وَسط ، وتقدم بعضها حتى بلغ أرقى مراحل التطور . وهكذا أصبح لدينا اليوم ممثلون لكل الأنماط الرئيسة للحياة ، على النحو الذى ظهرت فيه متعاقبة ، وتظهر اليوم على مسرح الحياة أجيالها المتعاقبة سويًّا : من ثدييات وزواحف وأسماك ولا فقريات . . . إلخ . وهكذا يمكن القول إن الحياة لم تحرق كل سجلاتها القديمة خلال تحولها ، وإن كان قد ضاع من بين هذه السجلات — بالتأكيد — ماله أهمية قصوى فى تفسير أصلها .

واعتقد بعض العلماء أن هذه الحقيقة توصلهم إلى طرف الخيط الذى يمكنهم منه الوصول إلى أصل الحياة : فلا بد أن هذا الأصل مماثل لأدقّ الكائنات الحية التى نلمسها اليوم فى عالمنا . وركز الباحثون أنظارهم على الكائنات الدقيقة التى تعيش على البكتريا ، أى على

الڤيروسات Virus ، وهى كائنات طفيلية تعيش على الخلايا الحية ، وتبلغ فى حجمها أصغر حد ممكن ، إذ يبلغ حجم الڤيروس الواحد حوالى جزء من مائة ألف جزء من المليمتر .

وبدأ الأمل واضحاً فى عبور الهوة بين الحى وغير الحى ، عن طريقة الڤيروسات الضئيلة الحجم ، عندما أن اكتشف ستانلى فى عام ١٩٣٥ أن الڤيروسات تتبلور. وأجريت بعد ذلك تجارب متعددة ، أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ، أن بعض أنواع الڤيروس على الأقل يمكن أن يكوّن بلورات بالمعنى الصحيح . على أن التباور ليس من صفات الحىّ . ومن هنا نشب نزاع حادٌّ بين فريقين من العلماء : فريق يرى أن الڤيروس لا ينتمى إلى مجال الأحياء ، وفريق آخر يؤكد أنه كائن حى ، وكل ما فى الأمر أن حياته ، من حيث هو كائن متطفل قد أدّت إلى تعديل أساسى فى تركيبه ووظائفه ، بحيث أصبح يعتمد اعتماداً كلياً على الكائن الذى يتطفل عليه .

وسواء أكان الڤيروس حيّاً أم لم يكن ، فالذى لا شك فيه أنه يحتل موقعاً وسطاً بين المادة غير الحية وبين الحياة ، ودليل ذلك عدم استطاعتنا الجزم بانتمائه إلى هذا الطرف أو ذاك . ونستطيع أن نقول إنه يشغل فراغاً من الهوة بين الحى وغير الحى إذا عددناه حيّاً ، لأنه سيكون عندئذ جامعاً بين صفات الحياة وصفة من صفات العالم غير الحى ، وهى التبلور . أما إذا لم يكن حيّاً ، فيمكن القول عندئذ إنه يمثل مرحلة انتقال لا شك فيها ، إذ أن الڤيروس الكبير الحجم يشبه — إلى حد غير قليل — المراحل الدنيا من عالم الميكروبات ، التى تنتمى قطعاً إلى مجال الأحياء .

ولكن هل يعنى ذلك أننا اقتربنا من الحل الصحيح؟ الحق أن الالتجاء إلى الڤيروس لتفسير أصل الحياة لا يقدمنا كثيراً نحو هذا الحل . ذلك لأن الڤيروس طفيلى ، لا يعيش إلا داخل كائن حى . فلو فرضنا أنه هو أصل الحياة ، فلا بد أن يكون قد وجد من قبله الكائن الحى الذى يعيش فى داخله ، وبذلك تظل المشكلة قائمة : فالحى يمهد لظهور الڤيروس ، وليس الڤيروس هو الذى يمهد لظهور الحى . أما إذا قيل إن أصل الحياة ڤيروس من نوع مخالف ، كان يستطيع أن يحيا بذاته دون أن يتطفل على كائن غيره ، فذلك القول — فضلاً عن كونه فرضاً لا تثبت صحته أية تجربة — يخالف قوانين التطور ، إذ نفترض تراجع الڤيروس إلى الوراء خلال هذه الملايين العديدة من السنين ، وفقدانها الوظائف التى كانت لها فى البداية ، مع أن المفروض أن الكائن إما أن يتقدم به التطور ، أو يظل — على أسوأ الفروض — على حاله ، أما التدهور فلا يمكن تصوره .

وإذن ، فالتدرج مع الأحياء حتى أبسط مظاهر الحياة لم يتقدم بنا نحو الحل الصحيح ، فلم يبق علينا إلا أن نحاول عبور الهوة من الجانب الآخر : أعنى أن نتدرج مع المادة فى مختلف مظاهر تطورها ، لنرى إن كان فى وسعنا أن نصل منها إلى الحى . ومثل هذه الطريقة فى البحث تتوافر فيها — بالتأكيد — شروط المنهج العلمى كما عرضناها من قبل : فهى تتعقب الظاهرة بلا توقف ، وتحاول ملء الهوة أو الفراغ دون أن تقحم فى تفسيرها أفكاراً تنتمى إلى مجال غير المجال الذى يدور فيه بحث العلم .

والخطوة الأولى فى هذا السبيل هى أن نبحث عن أصل المادة التى يتركب منها جسم الكائن الحى ، تلك المادة التى قلنا إن عنصر الكربون هو العنصر الغالب عليها والمميز لها ، والتى يطلق عليها اسم المادة العضوية . فكيف ظهرت المواد العضوية على أرضنا هذه ؟ كان الاعتقاد يسود من قبل بأن هذه المواد العضوية لا بد أن ترجع إلى كائنات عضوية سابقة ، وساعد على تثبيت

هذا الاعتقاد ما شوهد من أن المواد العضوية الحالية ، سواء منها ما يظهر فوق سطح الأرض وما يكمن فى باطنها ترجع كلها إلى النشاط الحيوى لكائنات حية كانت تعيش فى عالمنا ، ثم اندثرت . على أن هذا الاعتقاد القديم لو كان صحيحاً ، لأصبح حل مشكلة أصل الحياة عسيراً بحق . فلو كانت الأجسام العضوية كلها لا تظهر إلا عن طريق كائنات عضوية سبق لها نوع من الحياة ، لكان ينبغى علينا ، لكى نرجع بالحياة إلى أصلها ، أن نفسرها عن طريق الأجسام التى تنشأ بدورها عن كائنات عضوية حية .

غير أن العلماء قد تمكنوا من إثبات بطلان هذا الرأى ، الذى يرد كل مادة عضوية إلى حياة سابقة ، عن طريق دراسة مادة الكواكب المحيطة بالأرض . فقد ثبت وجود مواد عضوية فى بعض هذه الكواكب ، رغم أن الأحوال فيها — من حرارة وضغط عظيمى الارتفاع أو الانخفاض — لا تسمح بوجود أى مظهر للحياة . وأمكن ، عن طريق تحليل الشهب المتساقطة على الأرض ، التأكد من أنها تحتوى على مواد كربوهيدرائية (أى ناتجة عن تفاعل الكربون مع الماء) مماثلة لما يوجد فى باطن الأرض ، وهى فى الحالتين يستحيل أن تكون ناتجة عن حياة سابقة .

والخطوة الأساسية التالية ، فى تكوين مادة الحياة ، هى أن تظهر مواد ذات طبيعة بروتينية . ولسنا نريد أن نخوض مع القارئ فى تفاصيل التفاعلات الكيميائية المؤدية إلى تكوين هذه المواد ، وحسبنا أن نشير إلى أن الماء يمكنه أن يركب مع العناصر العضوية مركبات أعقد منها كثيراً ، إذا تفاعل معها فى ظروف خاصة . وقد أجريت تجارب معملية ثبت منها إمكان الوصول إلى مركبات بروتينية معقدة فى أحوال مشابهة للأحوال الطبيعية ، وذلك إذا رفع الضغط على المواد المتفاعلة إلى حد كبير . على أن مثل هذا الشرط ، أعنى ارتفاع الضغط ، يتحقق من تلقاء ذاته فى الأغوار السحيقة للمحيطات ، وهى التى يقطع العلماء بأن الحياة بدأت فيها . فمن الممكن إذن أن تتحول المادة العضوية بفعل ضغط مياه المحيط إلى مواد بروتينية معقدة مشابهة لتلك التى تتكون منها الكائنات الحية الحديثة

ولكن هذه لم تكن سوى مادة البناء التى يشيد فوقها صرح الحياة ، وإن كانت لا تزال بعيدة عن الحياة ذاتها . على أن تكوين البروتينات المعقدة التركيب يمثل خطوة كبرى نحو ظهور الحياة : ذلك لأن للبروتينات خصائص عدة ، وإمكانيات هائلة . وهى مواد جمة النشاط ، كشف العلماء عن صفات رائعة لها ، ومن أهم هذه الصفات : صفة القابلية للاندماج ، ولنشرحها هنا بشىء من التفصيل ، إذ أنها تلعب الدور الأكبر فى هذا التفسير العلمى لأصل الحياة .

فإذا مزجت محلولات من مواد بروتينية ذات جزيئات كبيرة ، تتجاذب جزيئاتها وتتجمع فى نقط محددة فى المكان ، وتتركز المادة كلها فى قطرات متميزة عن المحلول الذى كانت به ، ولا يكاد يبقى فى هذا المحلول إلا الماء وحده . ونستطيع أن نقرب هذه الفكرة إلى الأذهان إذا تصورنا الأحوال التى يمر بها اللبن إذا تخثر : فبينما يكون فى بداية الأمر متجانساً ، تتجمع بعد ذلك أجزاء منه فى أماكن محددة ، وتترك الماء من حولها يكاد يبدو صافياً ، وتصبح هذه الأجزاء المتجمعة متميزة عن الوسط المحيط بها بعد أن كانت متجانسة معه تماماً .

هذه الخاصية الرائعة التى تتميز بها المواد البروتينية ، تفسر لنا قدراً كبيراً من الظاهرة التى نحن بصدد بحثها : فتلك المواد إذا تجمعت تستطيع أن تكوّن قطرات اندماجية Coacervates ، تتركز فيها المادة ويصبح لها قوام خاص بها فى المحلول أو الوسط الذى كانت من قبل متجانسة فيه . وقد تكون هذه القطرات الاندماجية ضئيلة الحجم ، ولكنها فى أحوال أخرى قد تزداد

حجماً ، وتتخذ شكلا شبه هلامى ، ويزداد تركيبها الداخلى تعقيداً ، وتغدو أقدر على البقاء والثبات . وكل هذه التغيرات داخل القطرات الاندماجية قد تم نتيجة لتغيرات خارجية أو تفاعلات كيميائية داخلية .

ولننتبه جيداً إلى هذه القدرة الفريدة التى تتميز بها المواد البروتينية ، والتى يمكن التثبت منها بالتجارب المعملية على نحو قاطع . ففى قاع المحيط كانت توجد مواد عضوية ، ازداد تركيبها تعقيداً بتفاعلها مع الماء تحت ضغط المحيط الهائل . ثم اكتسبت خاصية جديدة بعد هذا التعقد ، هى القدرة على أن تندمج فى قطرات لها قوام خاص ، متميز عما حوله ، وهنا تبدأ أولى صفات الحياة : وهى أن يكون للكائن قوام بذاته ، متميز عن البيئة المحيطة به ، فيواجهها وهو مستقل عنها .

ولنتابع سيرنا مع هذه القطرات الاندماجية من المواد البروتينية ، فنجد لديها القدرة على امتصاص عدة مواد من المحلول المحيط بها ، وقد ثبت ذلك بالتجربة ، إذ أضيفت أصباغ إلى السائل المحيط بها ، فانتقلت مادته بسرعة إلى داخل القطرة ، وقد يكون من المواد المحيطة بالقطرة ما يتفاعل معها كيميائيًّا إذا امتصته ، فتحدث فى داخلها تغيرات أساسية نتيجة لهذا التفاعل ، ويزداد تركيبها تعقيداً ، وتنتقل من مجرد مادة عضوية ، إلى مادة غروية colloid لها قدر — ولو ضئيل — من التنظيم الداخلى ، ولا نستطيع أن نقول إن هذه القطرات تستحق — فى مبدأ الأمر — أن تسمى حية ، إذ أن تركيبها الداخلى ما زال يفتقر إلى الدقة والتنظيم ، وما زالت غير قادرة على القيام بوظائف تتمشى مع الظروف المحيطة بها ، كما هو الحال فى بروتوبلازم المخلوقات الحية .

فإذا ما وجدت فى البيئة المحيطة بالقطرات الاندماجية عناصر غير عضوية تساعد على ازدياد سرعة تفاعلها ، كالحديد أو الكلسيوم ، وإذا ما ازداد تركيز البروتينات فيها ، ساعد كل ذلك على اختفاء مزيد من التمدد عليها ، وعلى اصطباغ كل قطرة منها بصبغة فردية إلى حد ما ، إذ تختلف خصائصها عن بقية القطرات ، ويتحكم فى ذلك الاختلاف فى تركيبها الداخلى ، بجانب المحيط الخارجى .

ولم يدم من هذه القطرات إلا تلك التى تتميز بثباتها ، وبتغلب قوة التماسك فيها على قوة التحلل — أى بالاختصار ، الأكثر تكيفاً مع البيئة . ولم يقتصر الأمر على دوامها ، بل إنها ازدادت حجماً ووزناً ، ثم انقسمت — بفعل عوامل آلية خالصة — إلى قطرات لها نفس خصائص الأولى وتركيبها ، وبدأت هذه تسير فى طريقها المستقبل بدورها . وهكذا سارت تلك القطرات فى طريق الكثرة العددية من جهة ، وازداد التنظيم الداخلى والقدرة على الثبات من جهة أخرى .

وبعد تطور طويل فى هذا الاتجاه ، أمكن أن تظهر الكائنات الحية الأولى ، بعد أن بلغ التنظيم الداخلى لهذه المواد العضوية مرحلة رفيعة ، وظهرت على أرضنا الأحياء الأولى .

ولقد كان تركيب الكائنات الحية الأولى أرقى بمراحل من القطرات الاندماجية ، وإن يكن أبسط بكثير من تركيب أبسط الكائنات الحيطة التى نعرفها . فلم تكن الكائنات مركبة من خلايا ، إذ أن مثل هذا التكوين من خلايا يمثل مرحلة متقدمة فى تطور الحياة .

وبمرور ملايين السنين ، تقدم تركيب الكائن الحى ، وأصبح أقدر على التكيف مع أحوال الحياة . ولم يكن فى أول الأمر قادراً على التغذى إلا من المواد العضوية . ولكن تناقص هذه المواد العضوية جعل الكائنات التى تعتمد عليها مدفوعة إلى الفناء ، ما لم تتحول إلى مواد غير عضوية . وبالفعل نجح بعضها فى امتصاص مواد غير عضوية ، تنتمى فى تركيبها إلى الماء والكربون ، وأصبح قادراً على امتصاص الطاقة الشمسية ، وتحليل المادة الكربونية بوساطتها — وهكذا

ظهرت أبسط النباتات : الطحالب الزرقاء ، التى ظلت آثارها باقية فى أقدم رواسب القشرة الأرضية .

وظلت كائنات حية أخرى تتغذى بالطريقة القديمة ، أعنى بالمواد العضوية ، ولكن مصدر غذائها أصبح هو الطحالب ذاتها ، ومن هذه الكائنات التى تتغذى على الطحالب ظهر العالم الحيوانى .

هذه المرحلة التى بلغناها فى حديثنا ، وهى فجر الحياة ، قد حدثت منذ ألف مليون سنة ، وفى رأى بعض العلماء منذ ألف وثمانمائة مليون سنة . أما المراحل السابقة عليها ، التى عرضناها بإيجاز فى هذا المقال ، فلا بد أنها دامت أضعاف هذا الوقت .

وإلى التباعد الزمنى الهائل ينبغى أن نرجع تلك التطورات الهائلة التى انتقلت بالمادة من الحالة غير الحية إلى الحالة الحية . وقد يرى الكثيرون فى ذلك الانتقال الحاسم أمراً يستحيل تصوره ، وهؤلاء ينبغى أن يذكروا أن الأمر لم يتم فى عصر أو فى فترة يمكن ملاحظتها ، بل تم خلال مئات الملايين من السنين . . .

إن الطبيعة صابرة ، وهى ترسم خطتها وتترك للزمان تحقيقها ، أما الذهن الإنسانى فهو دائماً متسرع ، لا يتصور من التغيرات إلا ما يشاهده فحسب . ولو أفلح هذا الذهن فى أن يكوّن لنفسه صورة صحيحة لتأثير الزمان خلال فتراته الهائلة هذه ، لما أصبح هذا التطور الحاسم فى نظره أمراً يدعو إلى الاستغراب .

وبعد ، فقد يتساءل قارئ : إننا لم نتحدث إلاّ عن أصل واحد للحياة ، مع أن للحياة أنواعاً متباينة ينبغى أن نحدد أصل كل منها . وهذا التساؤل يُرد عليه بأن للحياة صفة أخرى جعلت الأنواع يؤدى كل منها إلى الآخر ، بحيث لا نكون فى حاجة إلى تفسير أصل كل منها ، بل ترتد كلها إلى نوع واحد ، ويمكن أن تُفهم من خلال أصل واحد — هذه الصفة هى صفة التطور ، التى ترسم خطوط قصة أخرى غير هذه — قصة الانتقال من أبسط أنواع الكائنات الحية إلى ذلك التركيب الرائع الفريد — إلى الإنسان . . .



الواقعية فى فن تولستوى

ممثلة فى قصة «أنا كارنينا»

للكاتب الألمانى ليونيل تريلنج

قلّ أن قوبلت قصة بمثل الإعجاب والترحيب اللذين قوبلت بهما قصة «أنَّا كارنينا» عند ظهورها، إذ تذوّق القراء فيها نوعاً من الأدب القصصى يمثل لهم صوراً من الواقع، ومن أحداث الحياة كما مارسوها وألفوها، وكما لم يقرءوا عنها لكاتب من قبل.

ولقد صور الكاتب ماثيو أرنولد Mathew Arnold فى رسالة له عن «تولستوى» الأثر الذى أحدثته هذه القصة بقوله: «إن أنا كارنينا ليست قطعة من الفن، ولكنها قطعة من الحياة!» وإذا كان مثل هذا القول ضرباً جميلاً سائغاً من المجاز، إلا أنه يبدو عبثاً ولغواً، او أخذ بدلالته المباشرة ومغزاه اللفظى، لأن الفن هو الفن، والحياة هى الحياة، ولا يمكن أن يكون أحدهما جزءاً أو قطعة من الآخر. والواقع كذلك أن كلاً منا يحيا حياته الخاصة، ويسعى سعيه المتصل فى الحياة، غير متأثر فى الغالب بما يقرأه من قصص، ولقد نود أحياناً أن نرد بعض انطباعاتنا أو انفعالاتنا إلى شىء مما نقرأه من الأدب، ونخال أننا نحيا فى أحداثه ونسبح فى خضمه. ولكن هذا لايعدو أن يكون تبريراً لأثر أو لفكرة استقرت فى نفوسنا، دون أن نعرِّف مصدرها، أو لعل هذا محاولة للكشف عن أصولها وتعرُّف منابتها. ورغم هذا فإنها رغبة لا غنى لنا عنها لكى نميز أدب تولستوى وأضرابه، ونصف فنونهم.

وهكذا كان الأثر الذى أحدثته قصة «أنا كارنينا» بين القراء وليد مثل هذا الانطباع، وكأنهم جميعاً لم يعرفوا من قبل إلا الفن القصصى التقليدى، ولم يلتقوا بالأدب الواقعى أو التصوير الطبيعى إلا فى هذه القصة، رغم أن هذا الانطباع لا يطابق الواقع، لأن تولستوى لم يبتدع نهجاً قصصيًّا جديداً.

والحق أن قصة «أنَّا كارنينا» ظهرت أولا فصولاً متتابعة بين عامى ١٨٧٥ — ١٨٧٧، ولما أخرجت فى شكل قصة كاملة عام ١٨٧٨ كانت قد احتلت مكانة رفيعة فى عالم الفن القصصى، وغزت المجال الحقيقى أو الحيوى الذى جعل الكاتب يقف جهوده عليه، وهو: مجال الحقائق المباشرة. وفى هذا الصدد تكفى الإشارة إلى الأدب الفرنسى، ليثبت قطعاً أن تولستوى ليس أول رواد النهج القصصى الواقعى؛ فقد كانت نظرية الواقعية أكثر نضجاً فى فرنسا حيث أخرج بلزاك Balzac مصنفاته فى تاريخ المجتمع الفرنسى وتقاليده، وذلك قبل أن يخرج الكاتب فلوبير Flaubert قصة «مدام بوڤارى» وكتاب «التربية العاطفية L'Education Sentimentale» بنحو ثلاثين عاماً، وحيث كان زولا Zola فى أوج عظمته ومجد إنتاجه. ورغم أن تولستوى لم يبلغ وقتئذ مرتبة هؤلاء الفحول من كتَّاب الأدب الواقعى، إلا أن قصة «أنا كارنينا» أفاءت عليه هذا الصيت البعيد، والتبريز فى حلبة القصص الواقعى، بعد أن مهدت له السبيل إلى العظمة قصة «الحرب والسلم» التى تحظى اليوم بإعجاب لم يتح لها مثله خلال القرن التاسع عشر.

هذا وما زالت الآثار والانطباعات التى خلقتها قصة «أنَّا كارنينا» حتى اليوم ماثلة قوية لم تهن ولم تضعف؛

بل إن الكتاب المعاصرين ، مثل بروست Proust وجويس Joyce ، أفسحوا لها فى المكانة ، وزادوها رفعة وعلوًّا فى عالم الأدب ؛ ورغم تنحية العقبات وإزالة الموانع التى كانت تعترض سبيل البحث عن الحقيقة ، ورغم الوسائل الحديثة لمعرفة أنواع السلوك الإنسانى ، فإن من يقرأ اليوم هذه القصة لا بد وأن يقول وهو ممتلىء بالعجب والدهشة المفرطة : أجل ، إنها الواقع ذاته ؛ إنها حياة حقيقية ! . وها هو ذا الناقد المعاصر فيليب راف Philipp Rahv يعيد اليوم على مسامعنا مغزى ما قاله ماثيو أرنولد فى القرن السابق : « إن الثغرة القائمة بين الفن والحياة تبلغ حدها ، إلا فى أدب تولستوى ، لأنه يعتمد فى أدبه دائماً على الارتباط والصلات بين الفن والحياة لا على الفصل بينهما – ولهذا لا جرم فى القول ، بأن تولستوى لا يعالج موضوعات مبتدعة ، ولكن يعالج مسائل من صميم الحياة ، ومشكلات لا يرتقى إليها الريب . إنه يملأ شخصيات قصصه بواقعية مباشرة تبعث بالغ الإعجاب ، وتعفيه من التذرع بأدوات الفن ، ومن الالتجاء إلى وسائل الأدب كصيغ المبالغة أو التورية أو المجاز ! » .

ولكن ليس ما يتميز به أدب « تولستوى » من اتصاله بالحياة ودنوه من الواقع ، كفيلاً وحده بأن يجعله أعظم كتاب القصة طرًّا ؛ إذ من المستطاع خلق انطباعات ، وإحداث انفعالات فى الإنسان تستعصى على فنه القصصى الممتاز ، وذلك عن طريق السمو بالخيال وإفساح المجال له ، وإحكام بناء القصة ، وإجادة تناولها ، وحبك موضوعها . ولقد نجد فى مصنفات : ديكنز Dickens ودستويفسكى Dostojewski و هنرى جيمس Henry James وغيرهم ألواناً من التصوير ، وأحداثاً من صنع الخيال ، لا سبيل إلى وجودها فى أدب تولستوى .

وإذا لم يكن هذا الكاتب سيد كتاب القصة جميعاً ؛ فلا أقل من أن يكون أكثرهم مركزية فى أدبه . إنه يضفى على القصة قيمة كبيرة من ناحية دنوها من الحقيقة ومشابهتها للحياة ، لا من ناحية القيمة الأدبية الفنية . ولا شك فى أن دراسة أدب تولستوى دراسة مقارنة تكشف عن مدى ما يتذرع به غيره من المجاز والمغالاة وتشويه الحقائق ، وإن كان هذا أمراً لا غبار عليه لإصابة الهدف المرجو ، وإحداث الأثر المطلوب .

وثمة كاتب فرد ظفر بمثل هذه المكانة ، ونعم بمثل هذا التميز النسبى هو « هوميروس Homer » إذ أحدث أدبه فى القرن الثامن قبل الميلاد أثراً أقوى ، وانطباعاً أعمق مما نشعر به اليوم عند قراءة أدب « تولستوى » ، حتى لقد قال الكاتب بوب Pope فى هذا الصدد : « إن الطبيعة وهوميروس شىء واحد ؛ ولا اختلاف بينهما ! » .

والوصف الذى يجب أن يوصف به أدب هوميروس من الناحية المقارنة : أنه أدب موضوعى ، فهو يصف الأشياء وصفاً مباشراً ، ويجعل الصلات بيننا وبينها صلات مباشرة فلا نشعر بشخصيته أو بشخصية واسطة أخرى ، إنه يعرض الموضوع أو المشكلة أو الحادث غير مشفوع برأيه ، كما هى الحال فى الطبيعة وفى أدب تولستوى . وهنا نعود إلى أن نذكِّر مرة أخرى بأن هذا القول ضرب من المجاز أيضاً . لأن الطبيعة وهوميروس بعيد بعضها عن بعض فى الواقع بُعد فن « تولستوى » عن الحياة ، ولهذا فإن ما اصطلح على تسميته بالواقعية فى أدب « هوميروس » أو « تولستوى » ليس من الموضوعية فى شىء ، وإنما هو فى الحق « ذاتية » عارمة ، فكل ما فى « الإلياذة » أو ما فى « أنا كارنينا » يوجد أولا فى الوسيط الذى يتمثل فى « حب الكاتب » ، وهو حب نفاذ مستقر عادل ، له قوة خلق هذه الصور الموضوعية المزعومة ، ولا تختلف الطبيعة عن هذا ، لأن كل شىء فيها لا يوجد إلا فى وسيط من الزمان والمكان والمناخ .

ويجب علينا لكى نتعرف على « موضوعية » تولستوى أن

نقارنها بمثيلتها فى أدب « فلوبير » الذى يعتبر ولا شك كاتباً موضوعيًّا مذ عرف النقد الأدبى « الموضوعية » ونستطيع القول بأن « موضوعية » فلوبير تتميز بما تثيره من الشعور بالاستفزاز والتحدى ، بينما تتصف موضوعية تولستوى بما يشعر بالتعاطف والمودة ، إذ أخضع كل شىء لرحمة سابغة وقوة خارقة . وهو ، كسلفه هوميروس لا يبيح لنا الاختيار بين الخصوم أو التحيز لأحدهم ؛ فكما لا نجرؤ على أن نضفى كل عطفنا وحدبنا على « أخيل Achille » أو على هكتور ، ولا أن نختار بين ذاك و پرياموس Priamus ، فإننا كذلك لا نستطيع القطع بأن الحق كان فى جانب « أنّا كارنينا » أو فى جانب بعلها ، أو القول بأنها هى أو ڤرونسكى Wronski » على باطل .

وعلى هذا الأساس الأخلاقى ، وبصرف النظر عن الجهود الفنية الأخرى ، يقوم الزعم الفريد عن الواقعية فى مصنفات تولستوى ، لأن الكاتب لا يطوع له إلا الحب الجارف أن يصور أشخاص قصته بكل ما فيهم من كمال ومناعة وقوة وضعف ، وفى أويقات الفشل وفى ذروة المجد ، وفى سخافاتهم وفى فتنتهم وروعتهم ؛ وإلا فإن أى كاتب آخر يستطيع أن يصور لنا أن بطلته تتدرج إلى مستوى امرأة شاذة ، غامضة السلوك ، دون أن يفتر حبه لها ، رغم أنه حب يبلغ مبلغ الحب الحسى . وأى قصصى آخر يمكن أن يحدثنا عن البطل « ڤرونسكى » وكيف أخذ فى أن ينحدر ويتابع الانحدار ، دون أن يحاول الكاتب الحط من قدره ومكانته فى أعين القراء . ولهذا فإن ما نزعمه « واقعية » فى أدب تولستوى ، ليس فى حقيقته وكنهه إلاقوة حبه وعميق إيمانه بمثُله التى يحط من قدرها دقة ملاحظاته ، ومحكم تصويره لحياة تقصر عادة عن أن ترتفع إلى مصافّ هذه المثُل العليا .

وهكذا يبدو ما فى أدب تولستوى من عوامل النصر والتفوق ، إذ يعكس لنا صوراً عارية عن الطلاء لحياة حقيقية نعرفها ونألفها ، ولهذا نتقبل هذه الصور بكثير من الرضى والحماس ، ونبادله باستجابة مخلصة ، وودة قلبية ، اعتقاداً بأنها الحقيقة لأننا نجد فى أمثال هذه الحقائق المصوّرة فائدة لنا ، فكل إنسان ذى استقامة وصراحة يودّ أن يكون نفسه إحدى لوحات تولستوى المعروضة على العالم ، بل لعل سر القوة ومقياس البراعة فى أدب تولستوى ، أنه يتيح لذوى الخلق الرضىّ من الناس الصور التى يرون أنفسهم فيها : صورة الفرد المتوسط الذى ليس بالطيب جدًّا وليس بالماكر جدًّا ، والذى ليس بطلا ، ولكنه ليس جباناً ، والذى ليس بالذكىّ الألمعى ، ولكنه على قدر من الذكاء وأصالة الرأى ، والذى يستطيع رغم التقاليد الاجتماعية والنظام والقانون أن تكون له حياته الخاصة غير المقيدة ، وبدؤه الخاص الذى يتبعه . وأن يكون بعد هذا ذا شخصية وكرامة فى محيطه الخاص .

ولكن ليس كل هذا فى الواقع إلا تحويراً أو تحايلاً على الحقيقة الصارخة بأن الواقعية فى أدب « تولستوى » أبعد الأشياء عن الموضوعية ، وإن كانت فى حقيقتها تمثل إرادته وإرادتنا ورغباته ورغباتنا — أما وقد تبين هذا ، فعلينا أن نتقدم خطوة ، لنسلم بأن تولستوى قد اضطر فى تصويره لهذه الحقائق أن يغفل أموراً شتى لم يتخلّ عن ذكرها غيره من الكتاب المبرزين فى تصويرهم لأمثال هذه الحقائق . ويجدر بنا فى هذا الصدد أن نشير قبل أى شىء آخر ، إلى إغفال ذكر « الشر » فى أدب الكاتب الروسى الكبير ، بينما تمثل مشكلات الشر المركّز وهى مدار الرحى ، فى أدب معاصره الألمعى دوستويڤسكى Dostojewski ، ولكن مما لا ريب فيه أن تولستوى لم يكن غافلا ولا مقفل العينين عما يعانيه الناس من آلام ومآسٍ ، بدليل أن « ليڤين Lewin » — الذى قد يمثل شخصية الكاتب فى قصة « أنّا كارنينا » كان ضحية

تفكيره بأن ليس للإنسان أن يتوقع فى الحياة غير الألم، فالموت هو النسيان الأبدى ؛ إذ زجت به هذه الهواجس بين براثن أزمة نفسية عنيفة ؛ لم تلبث أن بلغت به مفترق الطرق الذى طلب عنده واحدة من اثنتين : « إما تفسيراً مقنعاً للحياة لا تبدو هى معه مهزلة شيطانية قاسية ؛ وإما الانتحار ! » — وهذه الفكرة هى ، من الناحية الشكلية ، الفكرة نفسها التى عذبت « إيفان كارامسوف ، Iwan Karamsow » واستبدت به ، رغم ما بين الفكرتين من فارق كبير فى العبارة والتركيز . إن شعور « ليفين » بسلبية الحياة ينطوى على مزيج من الألم والعنف والغموض ، وقد ينتهى به آخر المطاف إلى سوداوية شديدة ، ولكنه برىء من هذا الفزع المحض المفرط الذى يتصف به إيفان . ولعل ليفين أقدر على اجتياز أزماته فى سهولة ويسر كثيرين . لأنه يملك اللبنات التى تمكنه من تشييد صرح السلام الروحى ، وهى : الورع ، والعمل ، والتقاليد ، واتصال الأسرة ؛ هذه اللبنات التى تعوز « إيفان » أو التى قد يرفضها كوسيلة صالحة لبناء السلام فى نفسه .

إننا اليوم جميعاً فرائس سهلة للشعور بالخوف والشر ، كما أننا بدون استثناء سواسية حيال ما يسميه هنرى جيمس « توقع الكوارث » ، ولنا من الأوضاع العالمية الراهنة كل مبررات هذا التصور ، ودواعى ذلك الشعور . ولهذا فنحن أكثر استجابة وتأثراً بالكتاب الذين يحلق خيالهم فى أعلى مراقى الشر وأبعد آفاق البليات . إن ظروف الحياة اليوم كفيلة بأن تخلق فى نفوس الكثيرين الصور والميول والأمزجة الماثلة فى قصص دوستويفسكى : حيث تبدو كل التفاتة محرجة ، وكل صغيرة وكبيرة إبرازاً لشعور ثائر ، ولحساسية مرهفة ، ولإرادة جريحة . ومن المعقول فى مثل هذه الظروف أن ينبعث فينا الشعور بأن تولستوى ، رغم تأثرنا غير المباشر بسحر قصصه ، لا يقدم لنا الحقيقة بعينها ، ولكنه يقدم لنا مثالاً جميلاً لها ، وبديلا عنها .

ومما لا ريب فيه أن تصوير تولستوى وخياله فيما يتصل بنواحى الشر ومشكلاته ليس مكتمل النمو ، ولا تام النضج [1] . ولكن لعل هذا بالذات هو مرجع القيمة الخاصة التى يحظى بها بين جماعة الأدباء ، ذلك أن القوة التى تنفذ إلى كنه الشر ، وتبتدع مشكلاته ليست مجرد وظيفة من وظائف كل قلب شجاع جسور ، ولكنها قوة متأثرة مانعة ، لا تهمل بجوارها قوة أخرى من قوى الخيال والتصور العاملة ، كما أنها أقدر على خلق الشر ذاته منها على خلق ضحاياه . وحتى إذا ما عمدت مرة إلى الكشف عن عاديات الشر وفرائسه ، فإنها تلجأ إلى الوسائل المجردة ونحن نميل بطبيعتنا إلى الأدب الذى يتزود من هذا الخيال ، رغم ما ينطوى عليه من خطر ، إذ قد يختلط علينا الأمر فى النهاية فنعتبر الشر مكافئاً للحقيقة ، ونضفى عليه فى غير وعى ما يجدر بالحقيقة من الحفاوة والتكريم . ومن المحتمل كذلك أن يفسد الانصراف إلى دراسة الشرور وحدها أو تغليب طابع الشر فى الأدب ما استقر فى نفوسنا من خير الحياة — ولقد شهد الأدب منذ عصر تولستوى أسفاراً كثيرة قيمة مثيرة ، إلا أنه مما يسترعى النظر ، أن لا أحد من الكتاب تقريباً استطاع أن يصور لنا العلاقات الطبيعية التى بين الناس أو يفسر غوامضها ، رغم أن كثرة من الكتاب استطاعوا أن يخططوا لنا صوراً من العذاب والألم عن طريق الإشارة والايماء إلى مسرات الحياة وطيباتها ، كما تيسر لغيرهم أن يصفوا لنا فتور العلاقات ، وضعف الروابط بين الناس . ولكن الأسرة ، بصفتها ممثلة لهذه العلاقات الطبيعية ، حقيقة واقعة فى أدب تولستوى ، فالواجبات الأبوية تخلق فى الأسرة ظواهر مادية حقيقية رمزية تصويرية ، لأن الحب الإنسانى موجود حقاً ، بحيث يستطيع المرء فى غير ما حرج أن يهتم به ، ويتحدث عنه ؛ وكذلك فإن الحب ينمو

(١) ولكنه مع ذلك قوى لدرجة كافية لخلق شخصية كشخصية «نيكولاى» أخى «ليفين» الذى بلغ شكه فى الحياة من الاكتمال والعمق مبلغ الشخصيات التى خلقها دوستويفسكى

ويشتد، ويضعف ويندثر ؛ وسواء كان رفيقاً طبعاً أو ثائراً جامحاً ، فإنه دائماً وفى كل وقت أكثر من استعارة، وأقرب إلى الحقيقة من المجاز . إن البقاء الحيوى (البيولوجى) حقيقة فوق كل شك ، وليس لزاماً ، كما يزعم جيمس جويس مثلا ، أن تطرّد الحياة فى طراز نمطىّ دقيق ، ولكنها بسيطة المظهر لا سبيل إلى الخلاص منها . وهكذا يسدى تولستوى إلينا جميلاً بضعف تركيز أدبه فى نواحى الشر، وفتور خياله فى هذه الناحية. ويعوضنا عن هذا بأن يصف لنا الحياة ويذكرنا بحقيقتها العادية ، وكيف تنساب فى مسالكها اليومية كما يعهدها الناس جميعاً .

ولقد ذكرت أن السرور الذى يخالجنا عند قراءة « أنّا كارنينا » مستمد من العرض الأخلاقى الذى يتميز به أدب تولستوى ، ولهذا فإن النقد الأدبى ، والنوعى منه بصفة خاصة ، يجب أن يلقى السلاح عند مواجهة هذه القصة . وإذا كنا نجتاز فترة للنقد الأدبى فيها مطالب بالغة الجرأة، ولكنها ليست بأية حال مطالب مغالىً فيها؛ الا أن النقد المميز لهذه الفترة يقوم على أساس التحليل النفسانى (السيكولوجى) للحديث ، وهذه الطريقة وإن كانت طريقة مفيدة فى حد ذاتها إلا أن الأدب ينطوى على لمحات ولفتات ، لا يمكن أن يحيط التحليل اللغوى بقوتها الخفية ، لأنها لا تتصل فى الواقع باللغة وفنونها ، ولكنها نتاج خيال عبقرى أخلاقى، وموهبة تصويرية عظيمة. فعند ما يقرأ الإنسان كيف أخذ « هكتور » ابنه الصغير بين يديه وهو يودّع (صديقه) « أندروماك Andromaque» وكيف وجل الطفل من خصلة الشعر التى تزين خوذة أبيه ؛ ثم كيف خلع هكتور خوذته ووضعها على الأرض مرحاً ؛ أو عند ما نقرأ كيف يذهب بريماموس Priamus إلى خيمة أخيل Achille كى يطلب إليه تسليمه جثمان ابنه القتيل ، وكيف يجرى الحديث فجأة وفى ظلال الفناء ، بين الشيخ والفتى عن الموت والقدر ، فإنه ما من شىء أصلا يستطيع أن يفسر لنا قوة هذا التأثير والانفعال . ففى مثل هذه المواقف تتجمع عوامل السلوك الأخلاقى . وحتى إذا كان لمثل هذه العاصفة التى تجتاح شعورنا ، سند من قوه العبارة وبلاغتها ، كقول هملت Hamlet مثلا « لم يبق إلا الصمت ! » ، فليس فى مقدورنا أن نلوذ بالتحليل اللغوى ، إذ ليس للعبارة فى هذه الحالة مغزى نفسانى ، لأنها لا تعدو أن تكون العبارة الصحيحة فى الموضع الصحيح ، ويتملكنا شعور بأن هذا الشخص فى هذا الموقف لا يمكن أن يقول إلا هذا ، ولا يستطيع الإجماع مع شعورنا بالحياة أن يفسر لنا : لماذا تحدث فينا هذه الكلمات بالذات مثل هذا التأثير الطيب، وتثير فينا غريزة الاعتراف بالجميل ؟ وبعبارة أخرى : فإن الناقد لا يستطيع فى بعض الحالات أكثر من الإشارة إلى القطعة الفنية مقرظاً .

وقصة « أنّا كارنينا » هى إحدى هذه الحالات التى يتضاءل حيالها النقد الأدبى ولا يجاوز هذا النشاط البدائى البسيط . ويحق لنا الآن أن نتساءل عن مواضع العظمة ، ومكامن التبريز فى هذه القصة . ولا تتأتى الإجابة إلا فى أحد قوالب التقريظ ، كأن نقول : إن عظمتها تبدو فى هذا الموقف ، أو فى كثرة هذه الومضات اللماحة الشعرية غير المتكلفة أو المصطنعة، أو فى تصوير رجل، ووصف خلقه مثال ذلك :

« امتطى الأمير كوسوفليف Kusowlew فرسه الأصيلة ، وقد أمسك بزمامها تابع إنجليزى ، وكان « فرونسكى » وجميع الرفاق يعرفون ما عليه الأمير من ضعف الأعصاب ، ومن شدة المحافظة على الكرامة ، ويعلمون خوفه من ركوب جياد الفرسان . ولكن لم يبق للأمير مفر من الركوب فى هذه الآونة الحرجة ، حيث كان الخطر ماثلاً ، ومن المحتمل أن يسقط فتدق عنقه، بعد أن وضع فى طريقه عند كل مجازة طبيباً وممرضة وعربة إسعاف

طرِّزت عليها علامة الصليب . وقد وقفوا جميعاً على أهبة الاستعداد للعمل » .

وثمة قطعة أخرى تصف نظاماً اجتماعياً :

« لم يكن ڤاسينكا Wassenka قبل هذا على علم بأناقة الصيادين التقليدية ، وهى أن يذهبوا للصيد فى أسمال بالية ، وهم يحملون أحدث طراز من السلاح والذخيرة — لم يعرف هذا التقليد إلا فى هذه المرة وقد وقف قبالته أركاديڤيتش Arkadjewitsch بطلعته المرحة وجسمه البدين الفارع ، مرتدياً لباساً زرياً ، فقرر ڤاسينكا أن يبدو فى حفلة الصيد المقبلة فى مثل هذا المظهر » .

ومن أمثال ذلك سباق الحواجز الخالد الذى نظمت ڤرونسكى وسقوط الفرس الإنجليزية المفجع ؛ وكذلك حديث « دولى Dolly » مع الفلاحة عن الأبناء، وعن واجبات الزوجة . أو عند ما يشترك ليڤين فى الحصاد ، ويناديه المزارع الشيخ متحدياً « يجب أن تتم العمل الذى تكفلت به ! » ، ثم كيف كان الرجال يخشون أن يسقط السيد بينهم إعياء من العمل الشاق، ثم كيف تكون فرحتهم كبيرة آخر الأمر إذ استطاع السيد الثبات والمثابرة حتى النهاية . ونذكر أيضاً من هذا الضرب موقفاً هو مشهد من مشاهد حياة تولستوى نفسه ، عند ما كان يحاول الظفر بزوجته دون منافسيه ؛ وفى هذا الموقف كان ليڤين Lewen وكيتى Kitty يتساهمان بكتابة الحروف الأولى من الكلمات بالطباشير على سطح مائدة اللعب ؛ أو المشهد الذى يبدو فيه كارنين Karenin مصمماً على أن يغدو نبيلا ومسيحيا طيباً ، وكيف عجز عن بلوغ غايته فى مواجهة الجماعة التى أبت أن ترى فيه إلا شخصية مضحكة ؛ أو فى ذهاب « أنَّا » لزيارة ابنها يوم عيد ميلاده . وكثير غير هذا من المواقف المألوفة غير المصطنعة .

وثمة نوع خاص من السحر فى هذه القصة ، إذ يبدو أن « تولستوى » كان يعوزه الشعور بالتناسب الذى نرى ضرورة وجوده بين قيمة كل حادث والمجال الذى يقدره الكاتب لتصويره ، بدليل أنه لا يبيح إلا سطوراً قليلة للحديث عن اعتراف « ڤرونسكى » المفاجئ بأن الذى يصل ما بينه وبين « أنَّا » ليس رابطة الحب ذاتها ، ولكن نهاية هذا الحب ، رغم ما لهذا الاعتراف من أثر كبير فى إدراكنا للعلاقات بين الحبيبين ؛ بينما يكرس « تولستوى » صفحات عدة لحادث آخر أقل مرتبة من هذا وأضعف أثراً ، هو كشف « ليڤين » عن حزم قمصانه جميعاً ، بحيث لم يجد قميصاً يرتديه فى يوم عرسه . وكان من شأن العناية الكبيرة التى أضفاها الكاتب على حادث القمصان هذا ، أن كتب أديب مشهور هو ماثيو أرنولد مقرراً بأن هذه القصة ، بصفة خاصة ، لا تعتبر أبداً عملاً فنياً ، بل يجب أن ينظر إليها كقطعة من صميم الحياة العادية المألوفة . وربما كان فى هذا المشهد ، كما فى غيره من المواقف الكثيرة المماثلة ، ما يوحى بما تميز به « تولستوى » كقصصى ، من قوة إحساس مباشرة خارقة ، حافلة بأحداث الحياة ، وشعور قوى مرهف بمجرياتها . وفى هذا تتراءى الحجة البالغة على إدراكه أن الفكر الإنسانى نهبة للواقع والتافه من الشئون ، وعلى شعوره القوى وثقته العميقة بأن للحقيقة والتوافه فى الحياة قيمة كبرى ، رغم أنهما لم يبلغا بعد مبلغ العوامل الفاصلة الحاسمة .

وإذا كنا نأبى أن نضلل أنفسنا ونغرر بعقولنا ، فعلينا أن نذكر دائماً : أن الفكر المتحر من العوامل الخارجية المحيطة به ، وأقدر على فهم الأمور وأكثر إدراكاً لغوامضها فى يسر . ولهذا فمن العسير جدا أن نتعرف على مدى استقلال التفكير البشرى وحقيقة دوافعه ، بين هذه العوامل الجمة ، والصلات التى لا مهرب له منها ولا خلاص ، والتى تخلق الحقائق والتوافه معاً .

عن مجلة « ديرموناث » الألمانية

نقد الكتب

الوطن العربى فى سويسرا

مصر والبلاد العربية

فى الأشهر الأخيرة صدرت فى سويسرا كتب عن مصر والبلاد العربية، بعضها يتناول القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحالية، والآخر يتصل برحلات علمية فى هذه البلاد قام بها رحالة سويسريون.

وأود أن أنوه هنا بكتابين: أحدهما بعنوان عربى هو «البلاد العربية بين الشرق والغرب»، وعنوان ألمانى هو Die arabischen Völker am Kreuzweg

«البلاد العربية فى مفترق الطرق»

تأليف هانز توتش Hans E. Tütsch

والآخر بعنوان: «الشيخ إبراهيم: رسائل إلى أهله»: والشيخ إبراهيم هو الاسم الذى تلقب به الرحالة السويسرى يوهان لودفج بوركهرت، واسم الكتاب فى الألمانية.

Scheik Ibrahim (Johann Ludwig Burckhardt)
Briefe an Eltern und Geschwister
Basel, 1956.

(١)

أما أول الكتابين فكان فى الأصل مقالات نشرها «هانزتوتش» — وهو كاتب صحافى — فى جريدة «Neue Zürcher Zeitung» على إثر رحلات استخبارية كثيرة قام بها فى الشرق الأدنى فى الفترة ما بين ديسمبر سنة ١٩٥٥ وأكتوبر سنة ١٩٥٦، وهدف من ورائها إلى بيان التيارات الروحية فى البلاد العربية والمشكلات الأساسية التى تثار فيها، وكذلك ما تعج به من مسائل فى السياسة الداخلية والخارجية؛ حتى يطلع القارئ على القوى الموجهة فى المنطقة، والعوامل الفعالة فى تشكيل مصايرها.

والمعلومات التى استند إليها الكاتب فى مجموعها دقيقة صحيحة، ولكن تأويله لهذه المادة الأولية التى جمعها يسيطر عليه هوى خاص:

١ — فهو يرمى أولا إلى بيان خطر البلاد العربية على أوروبا والغرب عامة؛ فيطيل فى الحديث عن كراهية الشعوب العربية للغرب (ص ٢٣) دون أن يبين الأسباب الحق لهذه الكراهية، ومردها إلى الاستعمار، ورغبة هذه الشعوب فى التحرر.

٢ — ويشير ثانياً إلى أمور عرضية، فيحاول أن يتخذ منها مشكلات: مثل دعاواه عن وضع المسيحيين فى البلاد العربية (ص ٢٨)؛ مما أدى به إلى مزاعم بالغ فى إظهار جوانب منها؛ حتى يوهم القارئ بوجود تعصب ضد الأقليات.

٣ — وراح يؤكد دعوى أخرى لا يلبث هو نفسه أن ينقضها؛ فيزعم أن العرب يكرهون الزراعة، ودلل على ذلك بالميل الغالب فى سورية إلى التجارة وقلة اهتمام أهلها بالزراعة (ص ٧٤ و ٧٥)، على حين أنه فى القسم الخاص بمصر يبرز تغلُّب الميل إلى الزراعة على كل ما عداه! وسورية ومصر عربيتان بقدر واحد! فما معنى هذا التناقض فى التقدير إن أراد إرجاع الأمر إلى عوامل عنصرية؟

٤ — وعرض لمشكلة اللاجئين (ص ١٥٧— ص ١٩٩) ومشكلة فلسطين: فعرض حال اللاجئين عرضاً لا يخلو من النزاهة، ولكنه لم يبين: من المسئول عنها؟

وترفق فى حديثة عن إسرائيل إلى أقصى درجة ، ولم يشأ أن يحملها أدنى تبعة . وبالرغم عن أنه يقول إن ثلثى دخل إسرائيل من أموال ترد إليها إعانات من الخارج بلغت ٢٧٨ مليون دولار فى سنة ١٩٥٤ تغطى عجز الميزان التجارى ؛ إذ أن صادراتها الظاهرة والمستترة تمثل ثلث الواردات فقط — فإنه لم يعلق على هذا أهمية ؛ ويدمغ به حقيقة مثل هذه الدولة ، بل رآه أمراً طبيعيا (ص ١٩٢ ، ص ١٩٣) ؛ ولو كان الأمر خاصًّا ببلد عربى لقال فى ذلك الأقاويل العجيبة !

٥ — وختم الكتاب بفصل عنوانه : « دكتاتورية جمال عبد الناصر » (من ص ١٩٩ إلى ص ٢٣٧) هدفه منه إبراز خطر الرئيس المصرى على الغرب والدول الغربية ومصالحها فى هذه المنطقة ، وبيان مطامعه الإمبراطورية ! ثم تحدث عن المشروعات الاقتصادية فى مصر (السد العالى ، والإصلاح الزراعى ، ومديرية التحرير) ، فأخذ عليها افتقارها إلى رءوس الأموال الأجنبية ، وتنفيذها فى وقت واحد ، ورجع إثمار هذه المشروعات إلى إنشاء السد العالى ؛ فحسب أنها لن تنجح قبل أن يتم هذا المشروع ! وما دام المشروع متوقفاً على رءوس الأموال الأجنبية فلا يزال سائر المشروعات معلقاً !

٦ — وقد حرص المؤلف على أن يزود الكتاب بصور شمسية كلها تهدف إلى إبراز معنى واحد ، هو شدة الفاقة والبؤس بسبب قلة الموارد المستغلة وضعف الاقتصاد ، وتضخم النسل ؛ مما يكشف عن خبث نية المؤلف .

٧ — وعرض الكاتب لانتشار الآراء الشيوعية فى العالم العربى كله ، وأفاض فى الحديث عن الأحزاب الشيوعية ، وعن كون اللاجئين بيئة صالحة لنشر الأفكار الشيوعية ، كما أشار إلى تغلغل نفوذ روسيا فى هذه المنطقة ؛ حتى زعم أن كلاًّ من تيتو وجمال عبد الناصر فى خدمة موسكو ! (ص ٢٥) .

٨ — والملاحظة المفيدة الوحيدة التى يمكن أن تفاد من هذا الكتاب هى قوله : « إن الشباب العرب الذين يدرسون فى الجامعات الغربية تتجه غالبيتهم إلى العلوم والصناعات الفنية ، ويصل بعضهم إلى درجة إتقانها ، ولكن القليلين منهم هم الذين يفيدون بالتنشئة الإنسانية ؛ فهم يضربون صفحاً عن الأساس الروحى الذى جعل التقدم الصناعى ممكناً ؛ فألوان التقدم الصناعى الفنى فى الحضارة الغربية تؤخذ كما هى على حين تظل الأسس الروحية لهذا التقدم فى طى المجهول بالقياس إليهم . . . والشعور بعدم الاستقرار ، هذا الشعور الذى يتملك الطبقة المثقفة — نجده عند العربى خاصة مصحوباً على نحو غريب بشعور بالاستعلاء يوحى به إليه دينه ؛ مما يؤدى إلى إيجاد تذبذب نفسى بين عقدة النقص وعقدة الاستعلاء . وبينما المثقف فى غير بيئته من الغرب يعدُّ شاذًّا يشعر المرء أنه هو القاعدة فى العالم العربى ! » (ص ١٢، ص ١٣) .

فى هذه الملاحظة دعوة إلى ضرورة الجمع بين الصناعة الفنية والعلوم من ناحية وبين المقومات الإنسانية (الفلسفة والتاريخ الحضارى والفن والآداب العالمية . . إلخ) من ناحية أخرى ؛ حتى يتحقق التكوين الحضارى السليم .

(ب)

والكتاب الآخر يتضمن أولاً فصلا عن حياة الرحالة السويسرى يوهان لودفج بوركهرت ، وكيف أنه فى ١٨٠٩/٢/١٤ أبحر إلى مالطة ومنها إلى حلب ، وانتحل لنفسه صفة تاجر هندى مسلم ، وبعد أن وصل إلى حلب تنقل فى سورية ، ومنها إلى الأردن وفلسطين ، ثم القاهرة ، ومن القاهرة قام برحلة إلى أقاصى الصعيد والنوبة وشمالى السودان حتى وصل إلى شندى ، ومنها مضى إلى سواكن ، فأبحر منها إلى جدة ومكة والطائف ، وعاد إلى مكة واتجه شمالا إلى المدينة ثم ينبع ، حيث أبحر

منها إلى الطور وسيناء وعاد إلى القاهرة ، وكانت رحلة بقصد البحث العلمي ، وكان أول أوروبي يقدم صورة دقيقة عن الأماكن المقدسة فى الإسلام : أعني مكة والمدينة ؛ لأن اللذين سبقاه إلى الحجاز من الأوروبيين وهما سيتزن V.J. Seetzen (فى أكتوبر سنة ١٨٠٩) ومن قبله نيبور Niebuhr (سنة ١٧٦١–١٧٦٧) لم يقدما من الدقائق والتفاصيل عن مشاعر الحج والأماكن المقدسة مثلما فعل بوركهرت ؛ فقد كان هذا يتقن الإسلام ، وقد امتحنه محمد على فى الإسلام فكشف عن معرفة دقيقة به ؛ كما أنه أتقن اللغة العربية ، وأطلق على نفسه اسم الشيخ إبراهيم ، وبعد الحج سمى أيضاً الحاج إبراهيم .

وفى أثناء هذه الرحلات جمع معلومات وأموراً علمية لا تزال محفوظة فى مجامع الجمعية الإفريقية بإنجلترا حتى الآن ، كما أنه سجل ملاحظاته فى يوميات ومذكرات نشرتها الجمعية الإفريقية .

ثم أصيب بالدوسنتاريا ، وحدث له تسمم من أكلة سمك ، فتوفى فى القاهرة فى ١٥ من أكتوبر سنة ١٨١٧ ، ودفن فى مقبرة باب النصر ، وفى سنة ١٨٧١ أقيم له ضريح وضع عليه شاهد لا يزال قائماً حتى اليوم ، وقد توفى وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة إلا أربعين يوماً .

والكتاب الذى نتحدث عنه مجموعة رسائل أرسلها الشيخ إبراهيم هذا إلى أمه وإخوته وأهله ، وهذه الرسائل يصف فيها الكاتب ما شهده فى رحلاته من أحوال مصر والشام ، والبلاد العربية السعودية وشمالى السودان . ولهذه الرسائل قيمتها فى تاريخ الأحوال فى مصر والبلاد العربية فيما بين سنة ١٨٠٩ و سنة ١٨١٧ ؛ ومن هنا جاءت أهمية هذا الكتاب .

لهذا حرصت على التنويه به من جهة لأهميته من حيث المعلومات التاريخية عن هذه الفترة من تاريخ مصر والبلاد العربية ، ومن جهة أخرى ؛ لأنه يعد أول المستشرقين السويسريين .

عبد الرحمن بدوى

كيف انتقلت العلوم اليونانية إلى العرب ؟

تأليف دى لاسى أوليرى (لندن ١٩٥١)

"How Greek Science Passed to the Arabs" *By De Lacy O'Leary* (Routledge and Kegan Paul — London, 1951 — pp. 196).

من أساطير الاستعمار الثقافى والسياسى قول كيپلنج : « الشرق شرق والغرب غرب » . وكأن دول الغرب فى مكان ممتاز لا يصح أن تطرقه دول الشرق التى كانت إلى أمد قريب دولا خاضعة للاستعمار الغربى . وقد عمد الاستعمار إلى إقناع عقول الشباب فى الدول الشرقية والعربية — وبخاصة شبابنا المصريون — بهذه الفلسفة العنصرية الزائفة . وإذا بالتاريخ — تاريخ الحضارة — يقدم لنا سجلا حافلا من البراهين العلمية الدقيقة ليكذب دعاة الاستعمار والعنصرية .

وليس كتاب الدكتور « أوليرى » من أول صفحاته إلى آخرها إلا صفعة مدوية على وجوه الاستعماريين . إنه يتناول مرحلة هامة للغاية من تاريخ العرب ، ألا وهى مرحلة انتقال الحضارة الكلاسيكية القديمة إليهم ، تلك الحضارة التى امتزجت بخبراتهم واحتياجاتهم بعد الفتوح الكبرى ، لتسطع وتلمع على أيدى ابن خلدون ، وابن سينا ، وابن رشد ، وجابر بن حيان وعشرات غيرهم من الأعلام .

وعند الدكتور « أوليرى » أن عبارة « الحضارات الكلاسيكية » — غير دقيقة : ذلك أن العرب أفادوا أبلغ فائدة من حضارة اليونان وحدها دون الحضارة الرومانية ، وعنده كذلك أن العرب لم يتأثروا الأدباء والفنانين والمؤرخين والخطباء اليونانيين ، ولكنهم تأثروا « العلماء الذين كتبوا فى الطب ، والفلك ، والرياضيات ، والفلسفة دون غيرهم ، أولئك الذين تناولوا ذلك اللون من التفكير

العلمى الذى لا يحضرنا عندما نتحدث عن الأدب الكلاسيكى » ؛ ولهذه الملاحظة العامة مغزى عميق : ذلك أن العرب وكانوا يمثلون فى أجيالهم الأولى قوة تقدمية فاتحة دون شك — استشعروا حاجة ملحة إلى التزود بالعلوم والفنون التطبيقية لإقامة جيوشهم ، وبناء اقتصادياتهم الجديدة ، وتنظيم شبكة المواصلات الإمبراطورية ، ووضع نظم الإدارة والحكم على أسس حديثة بعد أن أصبحوا سادة وزعماء لأكبر منطقة سكنية وحضارية وتجارية فى العالم ، ألا وهى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط .

وفى الوقت نفسه كان لا بد لهم من الخوض فى شئون الفلسفة للتمييز بين مجال الإيمان ومجال العقل ، وضمان حرية التفكير العلمى ، وإن كان ذلك فى إطار العقائد الإيمانية عامة . وليس مجهود الفلاسفة المسلمين فى العصور الوسطى إلا محاولة جبارة لتحقيق سيادة الإنسان والفكر الإنسانى حول مناطق أوسع فأوسع من الحياة والمعرفة والوجود ؛ وإن « تهافت الفلاسفة » الذى قال به الغزالى لم يكن فى الواقع إلا هذا الجهد المضنى الدقيق ، المظفر لخدمة الفلسفة والعلوم والإنسان .

غير أن أوجه هذا التأثر عدة ، وهى عند المؤلف ثلاثة : « هناك أولا الكتاب العلميون اليونانيون الذين ترجمت كتبهم إلى العربية ، ودرسها رجال العلم العرب ، ثم هناك نتائج ومبادئ علمية نرى الكتاب العرب يسلمون بها ، ويطورونها ، ولكن دون الإشارة إلى المنبع الذى استخلصوها منه مع العلم بأنه لا يمكن تفسيرها إلا بردها إلى منبع يونانى (إسكندرى) ، وهناك أخيراً مسائل ومشكلات أثيرت ، وتناولها العرب بطريقتهم الخاصة ، وهى مسائل ومشكلات ما كان لهم أن يفكروا فيها لو لم يوح إليهم بها المفكرون اليونانيون الأوائل الذين حاولوا أن يجدوا حلولا لمثل هذه المعضلات وإن كانوا قد سلكوا إلى هذه الحلول سبلا مختلفة . . . »

وما دام الأمر كذلك كان لزاماً على المؤلف أن يدرس بشىء من العناية طرق الانتقال ، ويرى الدكتور أو ليرى أن هذه الطرق ، أو السبل هى :

١ — طريق الكتّاب والأدباء والعلماء المسيحيين السريان ، واختلاطهم المباشر بالعرب ، ثم انكباب العلماء والأدباء العرب بأنفسهم على المصادر اليونانية .

٢ — طريق الهند : وكانت الهند قد أفادت فائدة عظيمة من المعارف اليونانية وخاصة الرياضيات والفلك ، وذلك عن طريق الإسكندرية أولا ، وعن طريق مملكة بكتريا (بلخ) التى أسسها إسكندر المقدونى ؛ لتكون همزة وصل بين العالمين الهلينى والهندى .

٣ — وهناك طريق ثالث ، ولكنه ذو أهمية ثانوية ، تمثل فى إحدى المستعمرات اليونانية التى ظلت قائمة أجيالا طويلة فى قلب المنطقة المسيحية الشرقية .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الجزء النقدى ، فيحاول أن يقدم تقديراً علمياً دقيقاً للدور الذى قام به العرب فى الحضارة العالمية . وعنده أنهم لعبوا دوراً أساسياً فى الرياضيات والفلك ، بل إنهم وضعوا الجبر وحساب المثلثات من الأساس ؛ وعنده أيضاً أنهم اشتغلوا بالفلك بجدارة ، كما أن مساهمتهم فى الطب وعلومه كانت عظيمة حقاً ، وظل الطب العربى سائداً جامعات أوروبا حتى اكتشاف هارفى للدورة الدموية .

ومن بين الملاحظات التى يقدمها الدكتور أوليرى : « إن العلم العربى ازدهر فى الأساس فى جو البلاط ، كان العلماء يعتمدون فى الجوهر على الأقوياء والأغنياء ، وكانوا يخاطبون الرجل العادى فى القليل من الأحيان ولا سيما أن البحث العلمى والبحث الفلسفى بوجه خاص كان ينظر إليه وكأنه يهدف إلى البدع فى الدين . . . » إنها حدود العلم فى المجتمع الإقطاعى فى أولى مراحله ، ولم يتميز بها العلم عند العرب دون الغرب فى مثل هذه الظروف ، أما اليوم فلم يعد العرب ينظرون إلى العلم وكأنه

بدعة أو زندقة ، بل ها نحن أولاء نحتفل أيما احتفال بعيد العلم ، لأننا ندرك أنه لا سبيل إلى إقامة اقتصادنا القومى وحماية استقلالنا وسيادتنا وكياننا وضمان مستقبلنا إلا إذا تخطينا أجيال التأخر والرجعية الفكرية التى فرضها علينا الاستعمار !

* * *

آثار ممتازة — المسرحيات

كاراجيال — بوخارست ١٩٥٣

J.L. Caragiale : "Oeuvres Choisies - Théatre" (Ed. Le Livre — Bucarest, 1953 — pp. 271).

شاهدت القاهرة ، منذ أسابيع ، « الخطاب المفقود » لعميد المسرح الرومانى الحديث كاراجيال. ومن دواعى السرور أن تأتينا فى الوقت نفسه آثار كاراجيال من بوخارست باللغة الفرنسية توطئة لنقلها إلى العربية . وإن المجلد الخاص بآثاره المسرحية الذى بين أيدينا الآن يتكون مما يأتى :

١ — مقدمة بعنوان « يون لوكا كاراجيال (١٨٥٢ — ١٩١٢) بقلم الأستاذ سلفيان يوسيفسكو ، وهى فى ٢١ صفحة ، وفيها عرض مقتضب ، ولكن دون إسفاف لحياة الكاتب الكبير وآثاره .

٢ — أربع مسرحيات ، وهى : « ليلة عاصفة » ، وهى كوميديا فى فصلين ألفها كاراجيال فى ١٨٧٨ ، ثم « مسيو ليونيدا يواجه الرجعية » ، وهى كوميديا فى فصل واحد وضعها فى ١٨٧٩ ، ثم « الخطاب المفقود » ، وهى كوميديا فى أربعة فصول ترجع إلى عام ١٨٨٤ ، وأخيراً « مناظر من الكرنفال » ، وهى كوميديا فى ثلاثة فصول ألفها فى هذه الفترة نفسها .

* * *

ولا نظن أن هناك ما يدعو إلى تلخيص هـــذه المسرحيات الأربع ، ولكن لا بد أن نقول كلمة عن مضمونها العام من ناحية ، وعن فلسفة المسرح التى اعتنقها كاراجيال من ناحية أخرى :

إن المضمون المشترك لجميع هذه المسرحيات هو رفع النقاب عن أكاذيب الطبقة الوسطى الحاكمة فى رومانيا ، وعن تزييف الانتخابات البرلمانية ، وعن مآسى البير وقراطية ، وإبراز صفات الشعب الإنسانية تجاه تحلل الحكام وفسادهم . وقد لجأ كاراجيال إلى السخرية كأداة للتعبير ظناً منه أنها أقرب إلى قلوب الناس ، وأن الرقابة الملكية ربما تسمح بشىء منها ، ولكنه اصطدم عدة مرات وهذه الرقابة ، ولم تظهر مسرحية « الخطاب المفقود » كاملة غير منقوصة على مسارح بوخارست إلا بعد الحرب العالمية الثانية عندما بعثت حكومة الجمهورية الشعبية الرومانية تراث كاراجيال ، ووضعته فى المكان اللائق به : المكان الأول .

وقد لاحظ النقاد أن هجوم كاراجيال على الطبقات الحاكمة الرومانية قد اقترن فى الكثير من الأحيان بنقد لاذع وجّهه إلى أصحاب رءوس الأموال الصغيرة ، تلك الفئة التى تأثرت الحكام فى تفكيرها وأخلاقها وآمالها ، ولكن هذا النقد يصبح عنيفاً قاسياً عميقاً عندما يتناول المؤلف تأثير الطبقات الحاكمة على أفكار أصحاب الأموال الصغيرة .

أما فيما عدا ذلك ، أما عندما يتحدث كاراجيال عن تلك الطبقة الصغيرة فى حياتها اليومية — فإنه لا يقسو عليها ، بل يكتفى ببيان تخبطها فى الحياة وعدم وعيها .

* * *

وإذا انتقلنا إلى فلسفة المسرح عند كاراجيال ، وجدنا أنها فلسفة متقدمة تسير فى اتجاه خدمة الأغراض التى وضعها لنفسه من حيث مضمون مسرحياته ؛ فقد شن هجوماً لاذعاً على الروما نتيكيين وميلهم إلى الخطابة التى تقطع الحركة المسرحية وتبتر وحدتها ، وهاجم كذلك الرمزيين الذين يخنقون الحياة فى مقطوعات مجردة لا تفهم ، كما هاجم الأدب الرقيق المنمق ، والأدب الذى يتغنى بالفلاحين

ويصف حياتهم المتأخرة بأزهى الألوان !.

كان يرى أن جمهوره لا يتكون من الصفوة الممتازة ، بل من المتفرجين العاديين الذين لا تتحكم فيهم أكاذيب أصحاب الأموال الكبيرة وأساطيرها ، وكان يعبر فى رسائله عن اتجاهه نحو هذا الجمهور خاصة . وقد رحب به هذا الجمهور ، الجمهور الشعبى ، رحب به فى رومانيا حيث تبين فى شخصيات مسرحيات كاراجيال أصنام الحياة السياسية البلهاء ، ورحب به فى مصر ، حيث أدرك جمهورنا أنه أمام صورة لمجتمع العهد البائد ، مجتمع الرشوة والرجعية والفساد والتحلل واللاأخلاقية !

* * *

بقى أن نذكر أن كاراجيال – ويطلق عليه فى بلاده « موليير رومانيا » – لم يقف عند حد التأثر بثورة الشعب ضد الطبقات الحاكمة ، بل إنه أخذ يقترب من الحركة العمالية فى نهاية حياته ؛ مما يبرهن على أنه لم يكن جامداً ولا رافضاً للتطور والتقدم مع التاريخ .

« تحية طيبة إلى كاتب رومانيا الكبير ، « يون لوكا كاراجيال » .

الأحزاب السياسية والطبقات الاجتماعية فى فرنسا

تأليف الاتحاد الفرنسى لعلم السياسة تحت إشراف م . دوفرچيه
باريس – ١٩٠٠

"Partis Politiques et Classes Sociales en France" *Par L'Association Française de Science Politique, Sous La Direction de M. Duverger.* (Armans Cohin — Paris, 1955 — pp. 332).

ماذا حدث لفرنسا بعد الحرب العالمية الثانية ؟ كيف نفسر أن الحزب الاشتراكى الفرنسى وحده دون جميع الأحزاب الاشتراكية فى العالم عارض قرار الدولية الاشتراكية (الكوميسكو) وأدار العدوان الثلاثى ضد بلادنا ؟ ثم الطبقات الوسطى : هل صحيح أنها تسود الحياة السياسية الفرنسية ، أو أنها أداة تستخدمها « مائتا العائلة » لتحقيق سيطرتها وسياستها الاستعمارية الرجعية ؟ هذه الأسئلة ، وعدد كبير من الأسئلة الأخرى نستطيع أن نتبين الإجابة عنها أو على الأقل نقطة البدء لتقديم هذه الإجابة فى كتاب « الأحزاب السياسة والطبقات الاجتماعية فى فرنسا » الذى صدر منذ وقت قصير تحت إشراف المسيو « موريس دوفرچيه » الأستاذ بكلية حقوق بوردو ومدير معهد الدراسات السياسية بها .

والحق أن هذا الكتاب الجماعى – الذى شارك فى وضعه خمسة عشر أستاذاً ومفكراً وسياسياً – يعتبر فتحاً فى ميدان الدراسات السياسية الأكاديمية : ذلك أن هذه الدراسات جرت على أن تتناول الأحزاب السياسية فى ذاتها مستقلة عن أى موضوع آخر ، كما أن دراسات الأدب أو الفلسفة تتناول الإنتاج الأدبى والأعمال الفلسفية فى حد نفسها ، أى بمعزل عن المجتمع والطبقات الاجتماعية ، والتطور الاجتماعى والتاريخى الواقعى . ومن هنا كان الربط بين الأحزاب والطبقات تقدماً محموداً فى هذا الميدان .

* * *

والكتاب يتكون من مقدمة منهجية عامة للأستاذ دوفرچيه يفرق فيها بين نظرته وبين النظرة الماركسية ؛ فهو يعترف بوجود ترابط بين الطبقات الاجتماعية وأحزابها السياسية ، ولكنه يرى أن ظهور الطبقات الوسطى وأساطيرها السياسية فى الميدان قد غير الموقف نوعاً ما .

ثم ينقسم الكتاب إلى بابين كبيرين :

١ – الباب الأول ، وعنوانه « التعبير السياسى للمجتمع الفرنسى » ، وهو يتناول فى فصوله الستة : العمال ، والطبقات الوسطى ، وموظفى المؤسسات الأهلية ، والكادر الفنى ، والموظفين العامين ، والفلاحين .

٢ – الباب الآخر ، وعنوانه « التركيب الاجتماعى للأحزاب السياسية الفرنسية » ، وهو يتناول فى فصوله الستة : الحزب الشيوعى ، والحزب الاشتراكى ، والحركة

الجمهورية الشعبية ، والحزب الراديكالى ، والمحافظين ، وتجمع الشعب الفرنسى .

* * *

وهناك أخيراً فصل مستقل عن « الأصل الاجتماعى الذى ينبع منه رجال البرلمان الفرنسى » ، يتلوه فصل ضافٍ بالمراجع .

ولعل أهم فصول الكتاب جميعاً عدا مقدمة الأستاذ دوڤرجيه — ذلك الذى يدرس فيه پيير رامبير الحزب الاشتراكى الفرنسى ، وهو لا يتناول الحزب الاشتراكى من حيث سياسته ، أو تطوره الفكرى ، بل يكتفى بدراسة تركيبه الاجتماعى : إنه يبين أن الحزب الاشتراكى فيه ١٢,١٪ فقط من النساء ، وأنه حزب من المسنين ؛ إذ تبلغ نسبة الأعضاء الذين تقل أعمارهم عن ٤٠ سنة ٣٠,٤٪ فى مقابل ٦٩,٦٪ للذين تزيد أعمارهم على ٤٠ سنة !

وهو يبين كذلك أن التركيب الاجتماعى للحزب الاشتراكى يبرهن على أن هذا الحزب ليس حزب الطبقة العاملة الفرنسية ، وإن كان مرتبطاً بأجزاء قليلة فيها ؛ إن العمال لا يكونون إلا ٢٤,٩ ٪ من عضويته فى مقابل ٤٨,٢٪ للموظفين والتجار ، وكذلك فإن العمال لا يكونون إلا ١١,٤٪ من مسئولى الحزب الاشتراكى فى مقابل ٧١,٦٪ للموظفين والتجار !

وكذلك ، فإن الأصوات التى حصل عليها الحزب فى انتخابات سنة ١٩٥١ مثلا يمكن ترتيبها كالآتى : من ٤٢٪ فى المناطق السكنية حيث يقطن أقل من ٢,٠٠٠ نسمة ، إلى ١٠٪ فى المقاطعة التى يقطن بها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة : أى أن الحزب الاشتراكى يستمد قوته الانتخابية من مناطق الريف المتأخرة ، لا من المدن الكبيرة حيث الصناعة المتقدمة والثقافة الواسعة .

ومن هذه الأرقام القليلة — والبحث حافل بغيرها لا تقل عنها أهمية — نرى بوضوح مأساة الحزب الاشتراكى الفرنسى : إنه من حيث النشأة والأصل حزب اشتراكى ثورى مرتبط بالطبقة العاملة ، ولكنه أصبح اليوم بفضل سياسة زعمائه المتهادنة وتأثرهم بالصهيونية العالمية — حزباً يمثل مصالح تلك الفئات من الطبقات المتوسطة التى تعتمد على الاحتكارات لكسب حياتها (موظفين ، تجار ، إلخ) . ومن هنا كانت سياسة الحزب المتهادنة الممالئة لدوائر الاستعمار والرجعية !

* * *

والكتاب — كما قلنا — زاخر بالمعلومات : وقد رأينا أن نكتفى بعرض بحث من بحوثه ، ليكون عينة على ما فيه من معلومات قيمة نافعة ، وإن كانت فى بعض الأحيان معلومات ناقصة تعوزها الدقة والعمق الكافيان .

أنور عبد الملك

أنباءٌ وآراءٌ

الفن فى الصين الشعبية

من مواد دستور الصين ما ينص على أن الفن هو الوسيلة المثلى لتعليم الشعب وإسعاده ، ورفع مستواه .

ومن بين مواد الدستور الأخرى ما ينص على كفالة حياة الفنان وحريته وحماية نتاجه الفنى . وتنفيذا لمواد الدستور أقامت حكومة الصين بيوتاً تسمى « بيوت الإبداع الفنى » أو « بيوت الاستجمام » وفى أية منطقة تخطر على البال نجد بيتا من هذا النوع ، معداً لاستقبال الفنانين والأدباء والشعراء وغيرهم من أهل الفن الذين يرغبون فى الإبداع من وحى أية منطقة يشاءون ، وما على الفنان إلا أن يتصل باتحاد الفنانين فى الصين ليسوق إليه هذه الرغبة .

وهذه البيوت مجهزة بالمأكل والمشرب ومستلزمات المبيت ، والخامات ، والمراجع اللازمة له ، وبجميع وسائل الراحة التى تكفل للفنان عدم التفكير إلا فى إنتاجه طوال مدة إقامته مهما طالت . ولا يسأل الفنان بعد ذلك عما أنتج ؛ لأن الذى يدفعه هو ضميره ، فيذهب إلى مثل هذه البيوت وفى ذهنه فكرة جدية عن العمل الذى يريد أن يحققه . فإذا عاد الفنان وأقام معرضاً يرشح اتحاد الفنانين جزءاً من هذه المعروضات للنشر ، وهذا الجزء الذى يرشحه الاتحاد تأخذه الدولة بعد أن تدفع ثمنه إلى الفنان ، وتضمه إلى المتحف بعد نشره . فإذا كان تصويراً يطبع منه عدد معين بحيث يصل إلى جميع المدن الصينية عدد من النسخ يكفى النشر عن هذا الإنتاج فى كل مدينة .

ولا تطبع الدولة من إنتاج الفنان الواحد صوراً بالملايين ؛ لأن الفنانين هناك يعدون بالآلاف ، وهم دائمو الإنتاج ، ومن هذا يجتمع الكثير من الآثار الفنية المتنوعة ، وفى هذا التصرف ما يحد من السيطرة الفنية لفئة معينة من الفنانين . والاحتكارية الفنية بهذه المثابة ليست فى الصين ، بل إن كل فنان يتمتع بنصيبه من الشهرة بقدر يلائم مكانته .

* * *

أما دور الدولة فى تعليم الشعب فقد لمسته بطريق غير مباشرة : فهناك هيئة تشبه مؤسسة الثقافة الشعبية هنا ، وتسمى « الثقافة تطرق بابك » وهى هيئة طوافة ، أرجو أن تدخلها مؤسسة الثقافة الشعبية فى برنامجها : وتتكون هذه الهيئة من مجموعة من المدرسين والفنانين الطوافين ، مهمتهم أن يذهبوا بالعلم والمعرفة إلى الميادين والشوارع والبيوت لتعليم الأهالى دون أن يكابد أحد مشقة الانتقال إلى المدارس ، وهذه الفرق تحمل معها رسم الحروف الهجائية والكلمات ، وتنتقل بها إلى الأحياء الوطنية بعد أن يعدوها مقصوصة من خشب الأبلاكاج ، وملونة بالألوان الجذابة ، وتدعو هذه الفرق أفراد الشعب لتلقى الدروس فى الميادين والشوارع ، فيأخذ أستاذ الفرقة فى تثبيت حروف الدرس على الحائط ، ثم يبدأ فى تلقين الأهالى الدرس الأول ، وينصرف بعد أن يترك هذا معروضاً على الحائط لمدة أسبوع ؛ ليرسخ فى أذهان المواطنين من تكرار مرورهم به جيئة وذهابا ؛ ثم تعود الفرقة لتلقى على المواطنين الدرس الثانى وهكذا . .

أما الدروس الفنية فإنها تلقن بصرف بعض الخامات



حاجز قاعة ، نقوشه من الصدف والعقيق على أرضية من الخشب المطلى باللاكر

التحرير ؛ فقد عاش فى عصر الاستعمار الذى حاول أن يغريه بالألقاب والوظائف لاستمالته ، ولكنه أبى ورفض. وعدد أعضاء هذا الاتحاد يبلغ الثلاثين ألفاً ، وهم موزعون على مدن الصين ، وفى كل مدينة نائب لرئيس الاتحاد ، ويجتمع مندوبو هذه الفروع لوضع خطط التوجيه الفنى فى لجنة عامة ، ثم يتقدم الاتحاد بطلب تنفيذ قراراته من الدولة التى ترحب دائماً بمعاونته فى رسالته .

وقد لاحظت أن حياة الفن المعاصر فى الصين يندمج فى المفهوم الاشتراكى : فكثيراً ما يشترك فى العمل الواحد نحو ٤ أو ٥ من الفنانين ، وقد وجدت فى هذا التعاون شبهاً بالموسيقى ؛ حتى لقد ظننت أن للفن التشكيلى فرقاً تشبه فرق الأركسترا ؛ إذ يتعاون أكثر من فنان فى رسم المنظر الواحد : بأن يسجل أولهم خط الأفق ويسجل الوحدات الأمامية فى الصورة ، ثم يتقدم آخر فيرسم الشجر ، ويسجل ثالث رسم الطيور ، وكثيراً ما يشترك الشاعر فى هذه اللوحة بكتابة بيت من الشعر من وحى الساعة ، وربما كان معهم خطاط يسجل بدوره حكمة صينية بقلم من الأقلام التقليدية ، والخط بهذه المناسبة عنصر من عناصر اللوحة .

ولا تكاد تخلو اللوحة من عبارة نقد يكتبها أحد النقاد ، أو كلمة ثناء يخطها صديق حضر هذه التجربة الفنية ؛ فاللوحة تخرج من بين هذه الأيدى وكأنها معرض اجتمعت فيه الصور الفنية من مختلف الألوان من رسم وشعر ونقد ، وإنها لتبدو بالأختام الحمراء كوثيقة اشترك فى توقيعها المصور ، والناقد ، والشاعر ، والكاتب والخطاط .

محمد عزت مصطفى

* * *

● تزمع دائرة المطبوعات والنشر بحكومة الكويت إصدار مجلة أدبية علمية اجتماعية تصدر مؤقتاً مرة فى الشهر ، وهى تهدف بذلك إلى أن تكون تلك المجلة صورة للفكر العربى الحديث ، بحيث تجتمع على صفحاتها آثار رجال العلم والفن والأدب من أنحاء البلاد العربية جميعاً . والكويت من الأقطار العربية الشقيقة التى تحث الخطى فى النهضة الفكرية الآن .

● يتابع الآن الأستاذ يوسف أسعد داغر أمين المكتبة اللبنانية السابق فى بيروت إتمام السلسلة التى ينشرها بعنوان « مصادر الدراسة الأدبية » ، وقد نُقد الجزء الثانى من هذه السلسلة فى العدد الثانى من المجلة ؛

وستقع تلك السلسلة فى ستة مجلدات تتناول البحث العلمي المطبّق على الأدب العربي : قديمه ووسيطه وحديثه ، وستضم الأصول والمصادر المهمة التى يصح الاستناد إليها فى دراسة تطور الحركة الفكرية والثقافية عامة ، والأدب العربي خاصة فى خصائصه وفنونه وسير أعلامه فى البلدان العربية والمهجر من الأحياء بعد أن تناول الراحلين ، وهو يهيب برجال الفكر العرب أن يمدوه بمعلومات وجيزة عن حياة كل منهم ، وما نشروه من مؤلفات أو مقالات حتى يضمنه الجزء الثالث الذى يوشك أن يُطبع .

● تلقت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية من وزارة الخارجية السورية وثيقة تصديق الحكومة السورية على المعاهدة الثقافية التى كان مجلس الجامعة قد وافق عليها عام ١٩٤٥ ، وقد تم التصديق عليها بتاريخ ١٩٥٧/٢/٢ وكانت الحكومة المصرية قد صدقت على هذه المعاهدة فى ١٩٤٧/٧/١٨ ، ولا تزال الأمانة العامة للجامعة تنتظر وثائق إبرام هذه المعاهدة من الدول العربية الأخرى الأعضاء فى الجامعة . وأبرز ما فى هذه المعاهدة الاتفاق على تبادل إنشاء المعاهد العلمية والتعليمية ؛ والتعاون على إحياء التراث العربى الفكرى والفنى والمحافظة عليه ونشره وتيسيره للطالبين بكل الوسائل ؛ والعمل على تنشيط الجهود التى تبذل لترجمة عيون الكتب الأجنبية القديمة والحديثة ، وتنشيط الإنتاج الفكرى فى البلاد العربية بإنشاء معاهد للبحث العلمى والأدبى ، ووقف جوائز على المتفوقين من رجال العلم والأدب والفن ، وتعريف أبناء تلك البلاد بتاريخ بلادهم وجغرافيتها وأدبها والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية بكل الوسائل .

● احتفلت دار الكتب المصرية فى شهر مارس الماضى بانقضاء ٨٧ عاماً على إنشائها ، إذ افتتحت فى ٢٣ من مارس سنة ١٨٧٠ الموافق ٢٠ من ذى الحجة سنة ١٢٨٦ حيث فكر المرحوم على مبارك فى إنشاء « كتبخانة عمومية ليتأتى صيانة المصاحف والكتب وغيرها من الآلات الهندسية ، والرسومات والأدوات اللازمة لعموم الأشغال » فجمعت المخطوطات التى كانت محبوسة على المساجد والأضرحة ومعاهد العلم ، وأصبحت تلك الدار الآن من أكبر دور الكتب فى الشرق حيث بلغ رصيدها من الكتب حوالى ثلاثة أرباع المليون بين مخطوط ومطبوع فى شتى فروع المعرفة .

● قضت الشاعرة الشيلية جابريلا ميسترال Gabriella Mistral نحبها فى أحد مستشفيات « نيويورك » يوم الخميس ١٧ من يناير الماضى .

وقد ولدت تلك الشاعرة ، واسمها الحقيقى لوثيلا جودوى ألكياجا Lucila Godoy Alcayaga فى ٧ من أبريل سنة ١٨٨٩ بمدينة « فيكونا » ، وبدأت حياتها العملية مدرسة ثم أصبحت بعد أمد وجيز مديرة لأحد المعاهد الدراسية .

وبدأ اسمها يلمع فى الأوساط الأدبية باسم « جابريلا ميسترال » منذ كانت مدرسة فى معهد « لوس أندس » الدراسى ، وبخاصة بعد صدور بواكير شعرها فى ديوان « أناشيد الموت » Sonetos de la Muerte الذى أردفته بدواوين : « كآبة » Desolacion ، و « المعلمة الريفية » La Maestra Rural ، و « أحب الحب » Amor Amor ، و « تالا » Tala ، و « حنان » Ternura ، وكلها أشعار تتميز بالعمق ، وطابعها الحزن والألم . ولم يقتصر نتاجها الأدبى عند حد الشعر فقد ألفت كتباً نثرية كثيرة قيمة .

وفى عام ١٩٢٢ ، ندبتها حكومتها لدراسة فن إنشاء المكتبات وتنظيمها بالمكسيك فكلفها وزير التعليم المكسيكى وضع ديوان من الأشعار الخاصة بالأطفال ، فلاقى هذا الديوان قبولا حسناً ونجاحاً باهراً .

وبعد رحلة زارت فى أثنائها الولايات المتحدة وأوروبا — عادت إلى شيلى حيث رجعت إلى تقلد وظيفتها الأولى كمديرة لمعهد دراسى .

وعينت « جابريلا ميسترال » فى عام ١٩٢٦ سكرتيرة لمعهد التعاون الثقافى التابع لعصبة الأمم ، كما مثلت بلادها فى مؤتمر الاتحاد الدولى الجامعى الذى انعقد بمدريد عام ١٩٢٨ .

وقد فازت فى عام ١٩٤٥ بجائزة « نوبل » للأدب